أعلام الصعيد

في القرن العشرين

محمد عبد الشافي القوصي



بطاقة فهرسة

مكتبة جزيرة الورد

اسم الكتاب : أعلام الصعيد في القرن العشرين

المؤلف : محمد عبد الشافي القوصي

رقم الايداع ٢٠١٧/٨٨٩٤

الترقيم الدولى / ٧-٧٧-٦٥٦٥-٩٧٧-٩٧٨

الطبعة الأولى ٢٠١٧



القاهرة : ٤ ميدان حليم خلف بنك فيصل
ش ٢٦ يوليو من ميدان الأوبرا ت : ٠١٠٠٠٠٤٠٤٦ - ٢٧٨٧٧٥٧٤
Tokoboko_5@yahoo.com

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٦٩ ﴾

[العنكبوت]

إهداء

إلى سيدنا (إدريس) عليه السلام

أول منادٍ لـ(الإيمان) على ضفاف النيل!



مقدِّمة

ظنَّ جماعة مِن الرِّعاع اختصاص الأقدمين بإحراز فضيلة السبق في العلوم دون الخَلَف، حتى اشتُهِر عن جماعةٍ تعذُّر وجود مجتهِد بعد المائة السادسة! وهذه المقولة فيها من الجهالة ما لا يخفى على مَن له أدنى حظٍ مِن العلم، وأقل نصيب مِن عرفان، وأحقر حصةٍ مِن فهم؛ لأنها قصر للتفضُّل الإلهي والفيض الربَّاني على بعض العباد دون بعض، وعلى أهل عصرٍ دون عصر، وأبناء دهرٍ دون دهر، بلا برهانٍ ولا قرآن! فالله قد تفضَّل على الخَلَف كما تفضَّل على السَلَف، بلْ ربما كان في أهل العصور المتأخرة من العلماء مَنْ يقلّ نظيره من أهل العصور السابقة ... وهذا الكتاب (أعلام الصعيد) برهان على ذلك؛ لمن كان له قلبٌ، أوْ ألقى السمع وهو شهيد!

(**هذا الكتاب**) كفيلٌ بجلاء الهموم والأحزان، واستبدالها بالبهجةِ، والمسرَّة، والحبور!

(**هذا الكتاب**) يحوي كنوزاً من الحكايات التي لمْ يسمع بها إنسٌ ولا جان، كأنها فتوحات من الأسرار اللاهوتية، والتجليات الروحية .. مَنْ حُرِمَ خيرها؛ فقد حُرِم!

(**هذا الكتاب**) كأنه تنزيلٌ من التنزيل، أوْ كأنه إنجيل الإنجيل، أوْ مزمور من المزامير، ولا نكون مبالغين إذا قلنا: إنَّ فيه قبسٌ من صحائف إبراهيم، وألواح موسى!

(هذا الكتاب) يحمل حِكَماً رفيعة، ومواعظَاً بليغة؛ تجعل القارئ يخرُّ ساجداً فَرِحاً مسروراً، وربما يطير في الهواء، ويمشي على الماء!

(هذا الكتاب) لوحات فنية باهرة؛ تعتمد التكثيف والإيجاز، وتنطق بالرموز والإشارات، وتتجاوز الزمان والمكان إلى حيثُ لا زمان ولا مكان!

(هذا الكتاب) صاخب بالمناقشات، مزدحم بالحوارات، مملوء بالأسماء والأرقام، ومغرق بالنكات والألغاز .. إنْ لمْ يصبكم منه وابلٌ فَطَلْ!

(هذا الكتاب) يطوف العالَم كله، ويطوي القرون طيًّا، ويخترق الحواجز المنيعة، والحجب الكثيفة ... حتى ترى ما لا عيْن رأتْ، ولا أُذُنٌ سمعت!

(هذا الكتاب) يستلهم الماضي، ويناقش الحاضر، ويستشرِف المستقبل، عبر مطارحات فلسفية، ومسلَّمات منطقية!

(هذا الكتاب) ليس مسحاً شاملاً لأعلام الصعيد، وليس تأريخاً لهؤلاء النوابغ، الذين وقع عليهم الاختيار؛ إنما هي أخبار، ومرويات؛ تتضمن تحليلاً نفسياً لطبيعة العصر المضطرم بالصراعات المريرة، والحروب الدامية التي دارت رحاها في القرن العشرين!

(هذا الكتاب) يتحدث عن عباقرة مصر، ونوابغ أرض الكنانة؛ منهم مَن ينتهي نسبه عند الملوك العِظام: (مينا، وأحمس، ورعمسيس، وحتشبسوت، ونفرتاري) ومنهم مَن ينحدر من قبائل العرب العريقة؛ كبني هاشم، وبني أسد، وبني عدي، وبني تميم الذين إذا غضبوا عليكَ رأيتَ الناسَ كلهمُ غِضاب!

(هذا الكتاب) يحكي أخبار الرجال الذين صنعوا أحداث القرن العشرين بمواقفهم النادرة، وشَكَّلوا العقول بمؤلفاتهم الباهرة .. فسلامٌ الله عليهم أجمعين!

(هذا الكتاب) يروي مِن نبأ الصالحين كالشيخ الشرقاوي، والرضواني، والجعفري، والعدوي، وحسنين مخلوف، والباقوري، والمطعني. ويروي

طرائف أعلام القُرَّاء كطه الفشني، والمنشاوي، وعبد الباسط عبد الصمد. ويقص أخبار الأئمة والعلماء؛ كالنواوي، والمراغي، ومصطفى عبد الرازق، وعبد الرحمن تاج، ومحمد سيد طنطاوي، وأحمد الطيِّب. ويتغلغل في أعماق الأدباء كالمنفلوطي، وعلي يوسف، وطه حسين، والعقاد. ويقف على مواضع عبقرية الشعراء الكبار؛ كمحمد عبد المطلب، وحافظ إبراهيم، وخالد الجرنوسي، ومحمود حسن إسماعيل. ويُحلِّل شخصيات الساسة والكُتَّاب والمفكرين، مثل: مكرم عبيد، وعبد الرحمن عزام، وممتاز نصّار، وجلال كشك، وأحمد بهاء الدين، وعبد العزيز القوصي، والطاهر مكي، وهدى شعراوي، ونعمات فؤاد ... وآخرين من دونهم لا تعلمونهم نحنُ نعلمهم!

* * *

(هذا الكتاب) شَرعتُ في تأليفه بعدما قرأتُ عشرة آلاف كتاب أوْ يزيد، وبعدما أَلَّفتُ أسفاراً يانعة، وكُتُباً قيِّمة ... فسار بها مَنْ لا يَسيرُ مُشمِّراً، وغنَّى بها مَنْ لا يُغنِّي مُغرِّدا !

(هذا الكتاب) حدَّدتُ أهدافه، واخترتُ أعلامه، ورسمتُ لوحاته؛ وأنا أعيشُ لحظاتٍ وددتُ لوْ أنَّ «أهل الجنَّة» يعيشون لحظاتٍ مثلها، أوْ ما كان منها مُدانيا!

فوا اللهِ، ثمَّ واللهِ؛ ما كتبتُ إلاَّ وأنا هادئ البال، صافيَ الذهن، مطمئن القلب، مُترَف الخاطر .. فكانت الكلماتُ تتساقط عليَّ كأنها حبَّاتُ اللؤلؤ، وتتنزَّلُ المعاني كأنها عقودُ الجُمان، وتتدلَّى الأفكار كأنها حورٌ مقصوراتٌ في الخيام .... فبأيّ آلاء ربكما تكذِّبان؟!

محمد عبد الشافي القُوصي؛

E:aldohapress5@hotmail.com

ص.ب ١٦٢ المهندسين/ جيزة

مِن المصريين رجَال

عند صدور هذا الكتاب؛ سيتساءل (القُرَّاء) باختلاف مشاربهم: لماذا كتبتَ عن فلان ولمْ تكتب عن فلان؟ ولماذا نسيتَ فلان؟ وكيف تغفل عن فلان؟ وأين فلان.. ؟!

بلا شك؛ هذه أسئلة مشروعة .. وقد سألتها لنفسي قبل أنْ تُوجَّه إليَّ مِن هنا أوْ هناك!

فالصعايدة -على وجه الخصوص- لديهم وفاء كبير لآبائهم وأساتذتهم وأعلامهم؛ الذين حملوا لواء النهضة، وواجهوا الغزاة، وحاربوا مختلف أشكال التخريب والتغريب والتجريف التي استمرأها نَفَرٌ مِمن لا يعرفون للأوطان حرمة، ولا للتاريخ ذِمَّة!

لكن -مِن باب إبراء الذِّمة، ودرءاً للملامة- أؤكِّد للعامة والخاصة: أنني لم أقصد القيام بمسح شامل لأعلام الصعيد ونوابغه، كما لمْ أقصد الإلمام التام بكل ما يخص الشخصية التي وقع عليها الاختيار ... إنما أخذتُ بالقاعدة الذهبية القائلة: «ما لمْ يُدرَك كله؛ لا يُترك كله»!

لا جرمَ أنني عمدتُ إلى اختيار شخصيات مغايرة؛ لا تتشابه في فصول العبقرية، ولا في أبواب النبوغ، ولا في ألوان الابداع ... فلكل واحدٍ وجاهته في مجاله، وتميزه في تخصصه .. حتى وإنْ بدا اقتراب هذا من ذاك، لكنهما -في الحقيقة- اقتربا ليبتعِدا.

الحق أقول: إنني مُعجب بمختلف أشكال البطولة، ومُولَع بتتبُّع سِيَر النوابغ،

وشغوف بأخبار العباقرة، وكَلِفٌ بالمفاخرة بهم، والثناء عليهم، والمنافحة عن منجزاتهم؛ التي بذلوا أعمارهم من أجلها، وتحملوا الصِّعاب في سبيل تحقيقها .. وقد كان!

لذا؛ جاء الحديث مباشراً عن مواضع التألق، والنبوغ، والشموخ، والإباء، والتحدِّي، وليس سرداً للسير الذاتية، ومراحل العمر، والتسلسل الوظيفي كما يفعل بعض الكُتَّاب!

لقد أردنا الإشادة بالأزهريين؛ فتحدثنا عن شيخ الأزهر الذي استقال بعد أقل من خمسة أشهر؛ اعتراضاً على تدخل الملك فؤاد في إدارة شئون الأزهر! والشيخ الذي طالب بتغيير البروتوكول؛ كيْ يتقدَّم شيخ الأزهر على رئيس الوزراء! والشيخ الذي صاح في وجه رئيس الوزراء قائلاً: أمثلكَ يهدِّد شيخ الأزهر؟! وشيخ الأزهر الذي سافر إلى روما، وزار قبر المستشرق/ سانتلانا- ووضع عليه إكليلاً من الورد! وشيخ الأزهر الذي تحدَّى علي صبري -وزير الدولة لشئون الرئاسة آنذاك- ورفض أنْ يُنفِّذ القرار الجمهوري الصادر عنه، وشيخ الأزهر الذي عجز الإعلاميون المارقون والمرجفون والخوارج على أن يستفزُّوه! والإمام الذي اعترض على اقتراح السلطة بعدم وقوع «الطلاق» مشافهة. والمفتي الذي كانت له مصادمة وقطيعة مع الرئيس عبد الناصر، وهاجم القوانين الاشتراكية! والمفتي الذي لمْ يتوقف الجدال حول آرائه وفتاويه! والعالِم الأزهري الذي أخرص العلمانيين والماركسيين! والطالب الأزهري الذي قاد مظاهرات الأزهر حتى يعود شيخه الذي عزله الإنجليز بالتعاون مع القصر! والأزهري الذي قاد مظاهرات الطلبة في ثورة ١٩١٩م! والأزهري الفقير الذي نشر الاسلام في اليابان وأنشأ أكبر مسجد بطوكيو!

لقد أردنا الاحتفاء بالأولياء والعارفين؛ فتحدثنا عن القطب الصوفي الذي كان يزوره الزعيم «سعد زغلول» في أقاصي الصعيد؛ ليستشيره في بعض القضايا. والعارف بالله الذي تنبأ ببزوغ نجم الرئيس عبد الناصر، وأوصاه بأن يتَّقِ الله!

لقد أردنا تكريم سفراء القرآن الكريم؛ فتحدثنا عن القارئ الذي أدخل النَّغَم على التجويد، والقارئ الذي اشترط على الملِك أنْ تُغلَق المقاهي، وتتوقف عن تقديم المشروبات، وقت قراءته للقرآن الكريم! والقارئ الكبير الذي بلغ صوته مشارق الأرض ومغاربها.

لقد أردنا تقدير النوابغ والأفذاذ؛ فتحدثنا عن رائد المعرفة النفسية والتربوية في مصر والعالم العربي، و«أستاذ الأجيال» الذي تخرَّجَ على يديْه الأدباء والعلماء والشعراء والكُتَّاب وأرباب البيان وقادة الرأي العام. والأديب الذي كتب لأطفال العرب ٨٠٠ كتاباً وقصَّة، طُبع منها ملايين النسخ! والمُنشِد الذي امتدت شهرته إلى مختلف الدول الأوربية، ونوقشتْ حوله رسائل الماجستير والدكتوراه! والكفيف الذي انتقد الأزهر وهاجم مناهجه الجامدة، وطريقة التدريس العقيمة.

لقد أردنا تبجيل رموز الوطنية؛ فتحدثنا عن الرجل الذي تحدَّى الملِك، وصرخ في مجلس الأمة قائلاً: «إنَّ الأمة على استعداد لأنْ تسحق أكبر رأس يخون الدستور أوْ يعتدي عليه»! وعميد الوحدة الوطنية الذي كان يفوز بمنصب «نقيب المحامين» إلى أنْ أقصوه بالتزييف والتزوير!

لقد أردنا استدعاء الشعراء العظام؛ فتحدثنا عن أعظم شعراء الوطنية على الإطلاق، وتحدثنا عن الشاعر الذي هجا الخديوِ عباس حلمي، والشاعر الذي هاجم الإنجليز وأعوانهم؛ فاعتقلته سلطات الاحتلال أثناء ثورة ١٩١٩م. والشَّاعر الذي كان يستدعي الشِّعر ليلاً، فيهيم في الشوارع وهو في غيبوبة!

لقد أردنا الاعتراف بجهاد النساء الفضليات؛ فتحدثنا عن المرأة التي صرخت في وجه رئيس الوزراء/ أحمد ماهر – قائلة: أطلِق سراح الشباب الذين اعتقلتهم! والكاتبة التي اقتحمت الصِّعاب وخاضت المعارك الضارية دفاعاً عن مصر وحضارتها.

لقد أردنا التذكرة بأصحاب المواقف النادرة؛ فتحدثنا عن الطالب الذي ترك

الدراسة وتطوع للقتال ضد الصرب، وشارك الليبيين والجزائريين ضد الاستعمار الإيطالي والإنجليزي والفرنسي، ثـم عـاد إلى مصـر وأسَّـس «الجامعـة العربيـة»! وتحدثنا عن رئيس نادي القضاة الذي رفض مطلب الحكومة بانضمام القضـاة إلى الاتحاد الاشتراكي! ونقيب الصحفيين الـذي أصـدر انتقـد سياسـة عبـد الناصـر الحمقاء، وحمَّله مسئولية نكسة حزيران، وحرَّض على المظاهرات ضده! والكاتب الفذ الذي فنَّد أكاذيب العصر الناصري، وكشف أسرار «ثورة يوليو الأمريكية»!

صاحب المشيختيْن

كان الشيخ (حسونة النواوي) أشهر أساتذة الفقه بكلية دار العلوم، وفي مدرسة الحقوق، فقد قام بتدريس أمهات الكتب، منذ بدأ التدريس في مسجد محمد علي باشا بالقاهرة. ولعلَّ من أهم مؤلفاته: كتاب «سلّم المسترشدين في أحكام الفقه والدِّين» ويقع في جزأين، يجمع الأصول الشرعية مع الدقائق الفقهية.

لكن «الشيخ» ترك التدريس بعد أنْ صار وكيلاً للأزهر الشريف عام ١٨٤٩م، ثمَّ اختير شيخاً للأزهر الشريف في عام ١٨٥٠م خلَفاً للشيخ/ الإنبابي- بعد أن استقال الأخير، لكن في عام ١٨٩٩م أصدر الخديوِ قراراً بتنحيته بعد أن عارض ندب قاضييْن من مستشاري محكمة الاستئناف الأهلية ليقوما بمشاركة قضاة المحكمة الشرعية في الحكم!

لكنه اختير -مرة أخرى- شيخاً للأزهر عام ١٩٠٧م إلاَّ أنه استقال بعد ثلاث سنوات. وكان إذا دخل عليه أحد من الوزراء والساسة؛ يقول: لا سلطان عليَّ إلاَّ لله!

كما تولَّى منصب الإفتاء إلى جانب مشيخة الأزهر في الفترة ما بين عام ١٨٩٥- ١٨٩٩م، وأصدر خلال تلك الفترة حوالي ٢٨٧ فتوى، ويعدُّ أول من شغل منصب (مفتي الديار المصرية)!

* * *

في نهاية القرن التاسع عشر؛ صدرت بعض القوانين لتحسين أحوال خريجي الأزهر، وكان الفضل فيها للشيخ حسونة النواوي، حيث نُظِّمتْ بمقتضاها إدارته وأجهزته، وأُنشِئتْ مكتبة الأزهر التي حلَّتْ محل المكتبات المتفرقة. كما أُنشِئَ المجلس الأعلى لإدارة الأزهر برئاسة الشيخ النواوي، وكان المراد منه أن تكون إدارة الأزهر أكثر ديمقراطية مما كان من قبل. وفي عهد النواوي صدرت عدة قوانين وتشريعات أضفتْ على الأزهر الأهمية البالغة، والأثر العظيم الذي ظهرت آثاره على العالم الإسلامي.

ترك «حسونة النواوي» عدة مؤلفات، منها: «قانون تنظيم الأزهر» وله قصائد متفرقة، لكنها متواضعة فنية، فقيرة المضمون، ضحلة الخيال، ومتكلِّفة المعاني. يغلب عليها التقريرية، أنشدها في مناسبات معينة، مثل قصيدة (زيارة مَلَكية) التي حيَّا بها الخديوِ/ توفيق- قائلاً:

تشرَّفتِ المدارسُ واستضاءتْ ... بكوكبِ سعدِها والفجرُ لاحْ
وأنوارُ الخديوِ بها تسامتْ ... وأُظهِرتِ المسرَّةُ والفلاح
وهمَّتْ بالدعاءِ له دوامًا ... وحازتْ كلَّ فخرٍ وانشراحْ
وقد فَرِحتْ «بتوفيقٍ» وقالتْ ... بعدلِ محمَّدٍ نِلْنا النجاح

وله قصيدة بعنوان (عنايات الخديوِ) يقول فيها:

عناياتُ الخُدَيوِ بقطْرِ مصْرٍ ... تراها كلَّ وقتٍ في ازديادِ
بهِ غرَسَ المكارمَ والمزايا ... فأورثَتِ التمدُّن للعباد
ومدَّنه وأكسَبَه فخارًا ... لهُ يبقى إلى يوم التَّنادي
فلا زالتْ به الأيامُ تزهو ... وتُبسَطُ بالدعاءِ له الأيادي
وترجو أن يدومَ لها بَقاهُ ... مع الإسعاد والشرَفِ التِّلاد

وكما تفتقر شاعريته إلى العمق؛ تفتقر -أيضاً- إلى الجاذبية، كما قصيدة (يوم

فخار):

يـومٌ عـلى سـائرِ الأيـام مفتخِـرٌ ومعجـبٌ فرحًـا في حِلْيـةِ الأمـلِ
بمحفِـلٍ أشـرقتْ بـين الأنـامِ لـهُ نجومُ فضلٍ تفوقُ الشمسَ في الحملِ

الشـيخ/ النـواوي (١٨٣٩- ١٩٢٤م) مِمَّـنْ يُطلَـق علـيهم: (أصـحاب المشيختيْن) أيْ الذين تولَّوا مشيخة الأزهر مرتيْن، مثل: الشيخ المراغي، وغيره. وقد وِلِدَ الشيخ حسونة بن عبد الله النواوي الحنفي بقريـة «نـواي» بمدينـة ملـوي بمحافظة المنيا عام ١٨٣٩م، أتمَّ حفظ القرآن الكريم، ثمَّ التحق بالأزهر، وتلقـى الدروس على يد كبار مشايخه، مثـل: الشـيخ/ الإنبـابي، والشـيخ/ عبـد الـرحمن البحراوي، والشيخ/ علي خليل الأسيوطي، وغيرهم.

كان «الشيخ» عضوًا في المجلس العالي بالمحكمة الشرعية، وكان له دور كبير في وضع اللوائح والنظم التي رتبـت شـؤون الرواتـب، وتحديـد أوقـات الـدرس والإجازات والاختبارات. وكان مرتبه ٧٢٠ جنيهاً في السـنة، بالإضـافة إلى حصـة من الصابون والسكر والعسل وشموع الإضاءة وأخشاب الوقود!

* * *

هكذا كانت الدنيا بهدوئها وبراءتها في زمن الشيخ «حسـونة النـواوي» أيْ منـذ قرنٍ من الزمان؛ فقد كان الناسُ أُمَّةً واحدة؛ فلا يسار ولا يمين، ولا اشـتراكية ولا رأسمالية .. فالجميع كانوا مسلمين، ولا ثمَّـة حـواجز بـين الأوطـان، ولا أنظمـة مستبدة، ولا حكومات مستفِزّة .. بلْ كان بعض الناس كالأنبياء، والـبعض الآخـر كالملائكة، وكان الأغنياء خدَّام الفقراء، وكانت النسـاء شـقائق الرجـال، وكانـت الذئاب ترعى الغنم!

كأنَّ «إبليس» لمْ يكن قد هبط إلى الأرض بعد! وقيل: كان موجوداً بالفعل، لكنه غيَّر نشاطه، وانخرط في أعمال البر والمشاريع الخيرية، حتى كان يقال:رضي الله عنه!

إمام الدِّين والدنيا

أمَّا قبل: فإنني عندما أتحدثُ عن (المراغي، والغزالي) رحمهما الله فكأنما أتحدثُ عن (هودٍ، وصالح) عليهما السلام؛ فجميعهم أنفقوا أعمارهم في تربية الناس، وقيادتهم نحو هدايات السماء، وفي ذلك تحمّلوا أذى المعاندين والمغفّلين من الأعراب .. فما وهنوا وما استكانوا، ولمْ تأخذهم في الحقِّ لومة لائم.

مِن ذلك؛ أنه عندما قرر الملك فاروق الانفصال عن زوجته الأولى الملكة فريدة؛ توجه إلى الشيخ المراغي يطلب منه أن يصدر فتوى بتحريم زواج فريدة بعد طلاقها منه! فقال له المراغي: أمَّا الطلاق فلا أرضاه، وأمَّا التحريم فلا أملكه. ولمَّا أغلظ له فاروق القول؛ صاح الإمام مُزمجِراً: إنَّ المراغي لا يستطيع أن يحرِّم ما أحلَّ الله!

وفي عام ١٩٤٢م ذهب الإمام/ المراغي ومعه علماء الأزهر الشريف لتهنئة الملك بالعيد، ففوجئ الشيخُ بدخول الوزراء قبل الشيوخ، فقال لرئيس الديوان: إذنْ سآخذ العلماء وأرجِع. فردَّ رئيس الديوان: هذا هو البرتوكول المعمول به. فاحتجَّ المراغي، وقال: إذنْ سأرجع بالعلماء. لكن مع إصرار المراغي على التمسك برأيه، تمَّ تعديل البروتوكول في الحال؛ بأنْ يتقدم شيخ الأزهر على رئيس الوزراء!

* * *

ذات مرة؛ سأل الإمامُ/ محمد عبده- أحد الصحافيين: هل رأيتَ ما تنشره

جرائد خصومي من صور تمثِّل الأزهر بعد خروجي منه؟ قال: كلاًّ. فقال الإمـام: هم يصوِّرون كأنَّ الأزهر تفتحتْ أبوابه ونوافذه مِن بعدي، فانجابتْ عنه الظلماء، وملأتْ رحابه ملائكة السماء، إنْ كانوا يحسبون أنَّ استقالتي مـن الأزهـر مَحَـتْ كل أثرٍ لي فيه، فقـد أخطـأوا ... فقـد ألقيـتُ في الأزهـر قبسـاً، إنْ لمْ يشـتعِل الآن، فسيشتعل بعد عشرين أوْ ثلاثين عاما»!

علَّق الشيخ/ مصطفى عبد الرازق على هذه النبوءة -أثناء حضـوره حفلـة تكريم الإمام/ المراغي- قائلاً: لقد خيِّل إليَّ أنني أرى اليوم ذلـك القـبس الـذي ألقاه الشيخ/ محمد عبده- في الأزهر منذ ثلاثين عاماً، قد أخـذ يشـتعل اشـتعالاً، لينشر في العالم نوراً.

نعم؛ لوْ جاء «المراغي» في جو صافٍ، ووسط خالٍ من غبار الجهالة، وشوائب التخريف، لكانت سرعة قفزاته تفوق سرعة الضـوء! لكنـه بـدأ إصـلاحه والجـو مازال يشوبه كثير من عوائق الجمود والركود، والنفور من كـل جديـد مهمـا كـان صالحاً، فأثقلتْ تلك العوائق كاهله، وبطَّأتْ من قوة سيْره!

ولقد ذُكِر يوماً؛ أمام المراغي حال العرب والمسلمين، وما صاروا إليـه، وهـل يمكن أن يُجمع شملهم؟! فقال المراغي: مع كل هذا؛ فـإني لا أيـأس، فقـد يُلقِـي الإنسانُ في البحر عُوداً، فيؤلِّف جزيرةً مما يجتمع حوله من الأعواد، وأنـا سـألقي اليوم هذا العود، ولا يهمني بعدُ أن تجتمع الجزيرة في يومي أوْ في يوم غيري»!

علَّق الشيخ/ مصطفى عبد الرازق- على هذه الحكاية، قائلاً: فعلاً؛ لقـد ألقـى الإمام المراغي في اليم أعواداً وأشجاراً، وتمكن من وضع الأسس، وأرساها، ثـم دفع عجلة الإصلاح بقوة، وها هيَ ذي سائرة إلى الأمام، وإنْ أبطـأتْ قلـيلاً، فإنهـا لنْ تقف أبداً، وليس في استطاعة مخلوقٍ بعد اليوم أن يقف في طريقها إنْ شاء الله»!

في هذا الصدد؛ يقول شيخ الأزهر/ محمود شلتوت: «إنَّ الإمام المراغـي ما خرج بروحه وعلمه وعقله وتفكيره عن أن يكون تلميذ الأستاذ الإمام/ محمـد

عبده»!

وقال الدكتور/ محمد البهي: «كان المراغي –بلا جدال– مُصلِحاً دينياً، أهاج العقليات الجامدة الراكدة عليه، وكان مُصلِحاً سياسياً، أهاج العزائم الخائرة عليه، لكن هؤلاء وأولئك، لم ينكروه عالِماً فقيهاً، له مكان مرموق في مجال العلم، كما لم ينكروه عالِماً شجاعاً لمْ تخنه شجاعته في أحرج الظروف والأوقات»!

* * *

في الجزء الرابع من يومياته، كتب عباس العقاد، يقول: «إذا وُجِدَ بعد الشيخ/ محمد عبده– مَن استحق لقب «الأستاذ الإمام» فهو الشيخ/ المراغي أحسن الله إليه؛ كان من أعلام هذه المدرسة الحرة، وكانت له شجاعة الرأي فيما يخالف الرأي الشائع والعُرف المصطلح عليه، وكان مِن ذوي الحزم والأصالة في إدارة الجامع الأزهر؛ يوم اشتجرتْ حوله منازع السياسة، وتشعبتْ فيه دسائس القصر ومراميه.

وكان صفاً متقدماً بين دعاة التجديد والنهضة الدينية، كما وجدناه شديد المحافظة في بعض الآراء، ومنها رأي بعض المفسِّرين في مفردات القرآن التي يقولون إنها فارسية أوْ أعجمية، فإنه لم يكن يسيغ هذا الرأي، ويرى خلافاً له؛ بأنَّ ما تحدث به العرب فهو عربي، ولا عِبرة بوروده على ألسنة الأعاجم!

ومن المسائل التي كان فيها شديد المحافظة؛ مسألة البحث في اللغة العامية للوقوف على قواعدها، فإنه –رحمه الله– كان يرى في هذا البحث (تقعيداً) للعامية، وتمكيناً لها، وقد يؤدي ذلك إلى خلق لغة ذات قواعد وأصول إلى جانب اللغة الفصحى.

كان المراغي وقوراً، وكان يضاعِف وقاره، ولا يكتفي بما عنده منه، وله ميْل للفكاهة، قلما يتبسَّط فيه، سمعتُ منه أبيات «حافظ» الفكاهية، أنشدها للأستاذ

الإمام في مرضه ليسرِّي عنه، وأولها:

الحمد لله طاب الشيخُ مولانا   محمَّد عبده قد كان عيّانا !

وسمعتُ عنه قصة الحفَّاظ المنقطعين لإحسان رجل كريم من أهل السودان يواليهم بعطاياه، فألفاهم يدعون اللهَ أنْ يرزقه ليُحسِنَ إليهم! فقال لهم المراغي: ولِمَ لا تدعون اللهَ أن يرزقكم أنتم بدلاً من هذه (اللَّفة)؟! فقالوا: ما عوّدنا اللهَ ذلك، ونحن نسأله ما جرتْ به عادته!

وكان «حافظ إبراهيم» يروي عن الشيخ المراغي حبه للفكاهة، ويشبّهه في ذلك بالأستاذ الإمام. وأظن أنَّ الشيخ المراغي على تمكنه من العلوم الدينية؛ قد خُلِقَ للسياسة وتنظيم الإدارة، فلوْ حوّلته الظروف إليهما لما كان له فيهما من نظير»!

* * *

لقد حظيَ «المراغي» بشهرةٍ واسعة، وحب جارف، أوْ كما قال الأديب/ محمد كُرد علي: لقد اشتُهِرَ لأنه كان حريّاً بالشهرة، جمع إلى الفقه والأصول ما تُعْوِز العالِم معرفته، من أصناف العلم .. فلم يُقيِّد نفسه باعتبارات الأزهريين كثيراً، شأن بعض النوابغ، يشذُّون أحياناً عن مصطلح قومهم، ويكون الخير في هذا الشذوذ!

فالمراغي خُلِق عالِماً، امتاز بمرونته، وقد شعر بفساد طريقة المشايخ في تدريسهم، وشارك في الشكوى من الشروح، والحواشي، والهوامش .. وكان بقدر ما يُعْنَى بالأخذ عن شيوخه، يعتمد على درسه الخاص، وبقدر ما كان يدأب على تحصيل دروس الأزهر، يسمو به الشوق إلى الاطِّلاع على ما في علوم الغربيين، من متاعٍ للروح والعقل، وقد تعلَّم اللغة الإنجليزية- أيامَ كان في السودان قاضياً- وأصبح يفهم الكُتُب العلمية فيها، وقرأ ترجمة (مير) للقرآن باللغة الإنجليزية، وكان يُصَحِّح ما وقع من خطأ في الترجمة الإنجليزية!

وقال محمد كرد علي -أيضاً-: «لقد أجمع أنصار المراغي وخصومه على أنه كان من خير من تولى مشيخة الأزهر، لصفاتٍ كثيرة اجتمعت له، وقلَّ أن تجتمع لغيره؛ ذلك لأنه كان يعرف ما هنا وما هنالك، ويُعدُّ من العلماء العارفين بأزمانهم معرفةً ثاقبة.

ذات مرة؛ طُلِبَ إليه أن يترك رياسة الأزهر، ويُعطى ما شاء من الأفدنة والمال، فأبى! ومرة أخرى؛ طُلِبَ منه أن ينضم إلى حزب سياسي، ويكون له ولأولاده ما شاء من الكرامة، فأبى! وقال: إنَّ أولادي وإخوتي في نظري أقلّ من أن أبيع لهم كرامتي!

* * *

هذا؛ ويحكي الشيخ/ أبو الوفا المراغي- نموذجاً من عدل «الإمام» ونزاهته إلى الحد الذي كاد يودي بحياته. فقد لوَّحَ له -وهو رئيس للمحكمة الشرعية العليا- من بعض ذوي النفوذ، أن يحكم في قضية لصالح طرف معين، على أن تكون المكافأة على ذلك مبلغاً موفوراً، فأبى في أنفةٍ واشمئزاز، فعمل هؤلاء على ألاَّ يمكِّنوه من نظر القضية، فاستأجروا له من يقتله! وفي صبيحة اليوم المحدد لنظر القضية؛ تربص به مجرم مأجور، فقطع عليه الطريق، وقذفه بماء النار الكاوي، فلطف اللهُ به، وأصيب في مواضع من جسده، ظلَّ أثرها في رقبته دليلاً على العدل والنزاهة طول حياته!

يقول الشيخ/ عبد العزيز عيسى -الأمين العام لمجمع البحوث الإسلامية الأسبق-: «لنْ ينسى الأزهرُ أبداً شيخَه المراغي، وكيف ينسى الأزهرُ شيخاً، وضع على رأسه تاجاً وهّاجاً، أضاء ما بين المشرق والمغرب». ثمَّ يحكي -فضيلته- طرفاً من اهتمامات المراغي السياسية، فيقول: عند نشوب الحرب العالمية الثانية، تصادف أن خطب المراغي خطبة جمعة في حضرة رئيس الدولة والوزراء، وبعد الخطبة طلب من الحاضرين أن يرفعوا أكف الضراعة إلى الله أن

يكشف عن مصر العزيزة شر حربٍ، لا ناقة لنا فيها ولا جمل. وكانت الخطبة مذاعة ... فما جاء مساء اليوم؛ حتى سمعنا مذيع المحطة الألمانية يقول: إن الإنجليز آذوا المصريين بحربٍ لم يتسببوا فيها. وفي اليوم التالي ردت الإذاعة البريطانية، وقالت: إن شيخ الأزهر يقصد بالذين يؤذون المصريين أنهم هم الألمان. فردَّ عليهم الألمان .. وصارت معركة إذاعية عالمية! وصدرت أوامر من الحكومة الإنجليزية تطلب من مندوبها بالقاهرة، أن يتصل برئيس الحكومة سرِّي باشا، ليطلب من شيخ الأزهر أن يشرح ما يريد بالكلمة التي قالها، وعمن يقصده بضرب المصريين، هل هم الإنجليز أمْ الألمان؟ فقال الشيخ: ليس لي كلام غامض حتى يحتاج إلى شرح، وأنا قلتُ في كلامي: ابتُلِينا بحربٍ لا ناقة لنا فيها ولا جمل. فإذا كان دولة رئيس الحكومة المصرية أخذ من الإنجليز ميثاقاً مؤكداً بجلاء الجيش الإنجليزي عن مصر والسودان عقب انتهاء الحرب مباشرة في مدة كذا، فليتفضَّل وليطلعني عليه، وأنا أُعلِن على الملأ: أنَّ لنا في هذه الحرب ناقةً وجملا. وسكت الإنجليز وسكتنا، وكان ما كان».

في تلك الأثناء؛ طلب رئيس الحكومة «حسين سرِّي» من الإمام عدم الكلام في السياسة! فردَّ عليه المراغي قائلاً: أمثلكَ يهدد شيخ الأزهر؟! ولوْ شئتُ لصعدتُ منبر الحسيْن، فعرَّفتُ أمرك للناس، ولا تلبث أن ترى نفسك بعد لحظات على قارعة الطريق، لا حُكم ولا سلطان!

سلام على الشيخ «المراغي»

محمد مصطفى المراغي (١٨٨٠-١٩٤٥م) ابن الشيخ/ مصطفي عبد المنعم- الذي كان موضع ثقة المراغة كلها، حتى «الأقباط» كانوا يتركون لديه ودائعهم. عمل قاضياً بالسودان، وحرَّضهم ضد الإنجليز، كما جمع التوقيعات لتأييد سعد زغلول؛ فأُقِيلَ من منصبه، وكتبتْ «التايمز» -آنذاك-: أبعِدوا هذا الرجل؛ إنه أخطر على بلادنا وحياتنا من ويلات الحرب!

هذا؛ وقد تولى مشيخة الأزهر مرتين: الأولي عام١٩٢٨م لكنه استقال بعد أقل من خمسة أشهر؛ اعتراضاً على تدخل الملك فؤاد في إدارة شئون الأزهر، لكن الإمام عاد إلى الأزهر مرة أخرى تحت ضغط أصوات الجماهير، وتصاعد الاحتجاجات الطلابية بالأزهر المطالِبة بعودة الإمام/ المراغي، وحينذاك أطلق زعيم هذه الحركة؛ الطالب/ أحمد حسن الباقوري- عبارته الشهيرة: (إمَّا تحت راية المراغي، وإمّا إلى القرى، تاركين الأزهر للبوم والغربان)!

يعدّ «المراغي» أصغر من تولّى مشيخة الأزهر، على امتداد تاريخه الطويل، حيث كان عمره (٤٧ عاماً)! كان حنفيَّ المذهب، لكنه كان يأخذ من المذاهب الأخرى ما يُناسِب العصر والمصلحة، قائلاً: «ائتوني بما ينفع الناسَ، وأنا آتيكم بالدليل»!

وقال للجنةِ الأحوال الشخصية، عند البحث عن الهِبة، والوصيَّة، والوقف: «ضعوا من المواد، ما يبدو لكم أنه يوافق الزمانَ والمكان، وأنا لا يُعْوِزني بعد ذلك أن آتيكم بنصٍّ من المذاهب الإسلامية، يُطابِق ما وضعتم»!

ومما دلَّ على علوّ قَدمه في حرية البحث؛ فتواه في جواز ترجمة معاني القرآن. وكانت فتاواه في المُعضلات؛ ترمي إلى تقريب الناس من الشرْع، والتوفيق بين الدِّين والمدنية، ويبدو فيها نور العقل، وليس كما يفعل غلمان الوهابية، وأدعياء السلفية!

ظلَّ «الإمامُ» طوال حياته يدعو إلى توحيد المذاهب، قال في إحدى مذكراته: «يجب العمل على إزالة الفروق المذهبية، وتضييق شُقَّة الخِلاف بينها، فإنَّ الأمة في محنة مِن هذا التفريق، ومن العصبية لهذه الفِرَق .. ومعروفٌ لدى العلماء، أن الرجوع إلى أسباب الخلاف ودراستها دراسةً بعيدةً عن التعصب المذهبي، يهدي إلى الحق في أكثر الأوقات، وإنَّ بعض المذاهب والآراء قد أحدثتها السياسة في القرون الماضية لمناصرتها، وخلَّفتْ في أهلها تعصباً يساير التعصب السياسي، ثم

انقرضتْ تلك المذاهب السياسية، وبقيتْ تلك الآراء الدينية، لا ترتكز إلاَّ على ما يصوغه الخيال، وما افتراه أهلها، وهذه المذاهب فرَّقتْ الأمة، التي وحَّدها القرآن الكريم، وجعلتها شِيَعاً في الأصول والفروع»!

وقال المراغي بشأن دراسة التفسير والحديث النبوي: «يجب أن يُدْرَسَ القرآن دراسةً جيدةً، وأن تُدرَس السُّنَّةُ دراسةً جيدةً، وأن يُفهما على وِفق ما تتطلبه اللغة العربية، وعلى وِفق قواعد العلم الصحيحة، وأن يبتعد في تفسيرهما عن كل ما ظهر للعلم بطلانُه، وعن كل ما لا يتفق مع قواعد اللغة العربية»!

وكان يرى أنَّ «الشريعة جاءت لخير البشر، وما دسَّه فيها بعضُ المتأخرين بجهلهم، أو تساهلهم، يجب أن يُنَقَّى منها، كما يُنقَّى الزؤان من صوبة الحِنطة! وهناك أمور ينبغي أن يترفَّق فيها الفقهاءُ بالناس، وأن يُراعوا قواعد اليسر، التي هي أخصُّ صفات الإسلام، يُراعونها في العُمّال، والمرضى، ومن يخدم المرضى، ومن يُشابههم، فيُقَرِّبون الناس من الإسلام، ولا يُوقعونهم في الحرج»!

يقول محمد كُرد علي: كان الإمام المراغي يستميل بحديثه قلوب سامعيه، وتؤثر في نفوسهم نبراته اللطيفة .. تأدب بأدب الدنيا وأدب الدين، وإذا عاشرته تتحقق أنه بلغ الغاية في التهذيب، مضافاً إلى ما تحلَّتْ به نفسه من فضائل الإسلام. ولا تلبث إلاَّ أنْ تقول: إنَّ الشيخ يصلح لإمامة الدِّين، كما يصلح لإمامة الدنيا، أيْ أن يكون «شيخ الإسلام» يدعو إلى عقيدة وإيمان، وأن يكون «رئيس وزراء» يعاني من أحداث الزمان ما يعاني. ولا نكون مغالين إذا ادَّعينا أنه قلَّ في أمثاله مَن استجمعوا صفات العظمة الحقيقية. وله في باب الأريحية أشياء عُرِفتْ عنه تدل على صفاء روحه وفضل نجدته. كان يتصدق في السر، وهو ليس بغنيّ، ويأخذ العهد على مَن يعطيه أن يكتم ما وصل إليه منه. هذه الطبائع الاجتماعية للمراغي هي من صميم شخصيته. فلم يكن مثله يقنع بإلقاء دروس الوعظ التقليدية وكفى، وما كان بوسعه أن يقف عند حدود القاضي الذي يحبس نفسه على إصدار

الأحكام دون معايشة للواقع الاجتماعي للناس في كل مجالات الحياة، ودون تواصل مع مشاكلهم .. والرجل هو جماع الشخصية الإسلامية التي تحيا عصرها بأحكام دينها، وترسم إنسانية الإسلام في تصرفاتها وسلوكها. فإنْ شئتَ أن تنعته فهو شخصية المصلح الديني الإجتماعي».

* * *

عندما توفى الإمام/ المراغي- نعاه مستر «دوبلس» -رئيس مجلس الكنائس بانجلترا- فقال: «إنَّ فقده يعد خسارةً فادحةً يشعر بها على الأخص هؤلاء الذين كان لهم حظ الاتصال به، والوقوف على ما كان تنطوي عليه نفسه من المبادئ النبيلة: مبادئ الأُخوة، والحرية، والعدالة البشرية؛ التي هي روح الإسلام. هذا إلى جانب تسامحه ومساعيه للوفاق مع المسيحيين .. وإنِّي لأجترئ في غيبة رئيس أساقفة كانتربرري على تقديم تعزيتي بصفة رسمية وقلبية إلى العالم بأسره، وإلى الجامعة الأزهرية مركز الثقافة العظيم خاصة، وأرجو أن يظل العمل الذي قام به الفقيد متواصلاً يؤتي ثمره». كما رثاه الشاعر المجاهد/ عبد الله حمزة، فقال:

وَهَـىَ عـالَمَ الإسـلامِ خطـبٌ مـروَّعُ ... فـذابتْ قلـوبٌ، واسـتهلَّتْ مـدامعُ
بكتْ مصرُ من هول المصابِ ووقعِهِ ... وسودانِها، لا بلْ بكى الشرقُ أجمعُ!
هوى عالِمُ الإسلامُ والدين والتقى ... وكانت لـه الـدنيا جميعاً تَطلَّـعُ!

كما رثاه الفقيه الشيخ/ أحمد ضيف -شيخ المعهد الديني بأسوان- في قصيدته (الخطْب المروِّع) حيث ينعى الأمة في فقده، ويدعو له بالجنة، ويعدد مناقبه:

تجاوبَ في الأرجاء صوت مناديا ... فأسكتَ في الأفنان ما كان شاديا
وردَّد في الوادي نذيرٌ من البِلى ... يعيد من الأحزان ما كان خافيا
فهمهمَتِ الألفاظُ حتى تفجّرتْ ... ورُوِّعَتِ الأشعار حتى بكت ليا

غدا الأزهر المعمور مِن فرط حزنهِ يناجيكمُ هَلاّ سمعتم تناجيا
إلى جنَّة الفردوس يا مَن جعلتنا إذا ما ألمَّ الخطبُ أن لا نُباليا
وعلّمتنا الحقَّ الصُّراحَ مطهَّرًا ومهّدتَ للشبّان فينا معاليا
فإنْ كانتِ الأزهار تُهدَى إليكمُ فها هو شِعري ناطقٌ بوفائيا
وكنتَ كماء النيل يعذب ماؤه وكنتَ بناءً راسخ المجد عاليا
وكنتَ ضياءً في الحياة ملألئا فصرتَ ضياءً ساطعًا في فؤاديا
إذا قلتُ غاض الماء حزنًا وحسرةً وزُلزلتِ الدنيا فلستُ مُغاليا
ولْم تَخْبُ في القلب الكسير محبَّةٌ إذا صرتَ في دنيا المربين خابيا
ولوْ كنتَ تُفدى بالنفوس وبالدِّما لقدَّمتُ مزهوّاً إليك حياتيا

أمَّا بعد: فإنني لا أنسى؛ عندما كان يراني الشيخ/ جاد الحق- فيبتسم ابتسامةً عريضة، ويبادِر بمصافحتي قائلاً: «أهلاً.. أهلاً بأبناء الشيخ المراغي»!

كما أدركتُ لماذا كان الشيخ الغزالي؛ يطربُ ويبتهجُ ابتهاجاً؛ عندما يُذكَر المراغي!

وقد سألتُ الدكتور/ أحمد الطيِّب- مَنْ أعظم أساتذتك؟ فقال: الشيخ/ عبد الحليم محمود، قلتُ له: ومَن هو قدوتك مِن الشيوخ؟ فقال: الشيخ/ محمود شلتوت، قلتُ: وماذا أنت فاعل بالأزهر؟ قال: إنْ شاء الله؛ سأعيدُ له عهد الشيخ/ المراغي ... فقلتُ له: أحسنتَ، أحسنت؛ أحسنَ اللهُ إليكَ -يا ابن الكرام!

أولئك آبائي! فجئني بمثلهم إذا جمعتنا يا (جريرُ) المجامع!

شاعر النيل

عندما مات (شاعر النيل) رثاه أمير الشعراء «شوقي» بقصيدة، قال فيها:

قَدْ كُنتُ أوثِرُ أن تَقولَ رِثائي ... يا مُنصِفَ المَوتى مِنَ الأَحياءِ!
يا مانِحَ السودانِ شَرخَ شَبابِهِ ... وَوَلِيَّهُ في السِلمِ وَالهَيجاءِ
يا حافِظَ الفُصحى وَحارِسَ مَجدِها ... وَإِمامَ مَن نَجَلَت مِنَ البُلَغاءِ
ما زِلتَ تَهتِفُ بِالقَديمِ وَفَضلِهِ ... حَتّى حَمَيتَ أَمانَةَ القُدَماءِ
جَدَّدتَ أُسلوبَ (الوَليدِ) وَلَفظِهِ ... وَأَتَيتَ لِلدُنيا بِسِحرِ الطائِي
وَجَرَيتَ في طَلَبِ الجَديدِ إِلى المَدى ... حَتّى اِقتَرَنتَ بِ(صاحِبِ البُؤَساءِ)
خَلَّفتَ في الدُنيا بَياناً خالِداً ... وَتَرَكتَ أَجيالاً مِنَ الأَبناءِ
وَغَداً سَيَذكُرُكَ الزَمانُ وَلَم يَزَل ... لِلدَهرِ إِنصافٌ وَحُسنُ جَزاءِ

كان «حافظ إبراهيم» شخصية اجتماعية، محبوبة، وقد مدحه الأمير/ شكيب أرسلان، فقال:

وقبلي قد أولاكَ – سامي – شهادةً ... ومثلي بمحمودِ السجيَّةِ يقتدي
فأنتَ إمامُ النثرِ غيرُ مُدافَعٍ ... وأنتَ أميرُ الشِّعر مِن بعد (أحمدِ)!

ولد «حافظ إبراهيم» على شاطئ النيل بديروط الشريف، وعانى مرارة اليتم، فلجأ إلى خالِه بطنطا، وهناك التحق بالجامع الأحمدي، ثمَّ تقدم للمدرسة الحربية بالقاهرة وتخرج فيها ضابطاً، سافر بعدها إلى السودان، وهناك تآلف مع السودانيين، فأنهى الإنجليز خدمته، فعمل بالمحاماة، ثم بالصحافة، وحصل على رتبة البكوية (بك) تقديراً لشِعره. وكان أحد ظرفاء عصره، وندماء زمانه، وله طرائف لا تزال تروى. لكن شِعره لم يحمل عنه هذه الصفة، بلْ لعله استمدَّ

خصوصيته الفنية من مراثيه أكثر مما استمدها من غرض شِعري آخر!

كان «محمود سامي البارودي» المثل الأعلى لحافظ. لذا؛ كان يدعوه بـ«أمير القوافي»! ويرى نفسه تلميذه النجيب، فتطاول طموحه منذ أخذ في نظم الشّعر إلى مقام البارودي. وإنْ كانت هناك بواعث كثيرة قرَّبتْ بينهما؛ فحافظ اختار حياة الجندية كما اختارها البارودي مِن قبله، وحافظ كان مفطوراً كصاحبه على إيثار الجزالة والفحولة في العبارة.

مِن هنا؛ كان حافظ أقرب إلى «التراثية» من شوقي، بينما كان شوقي أقرب إلى «التجديدية» والتأثّر بالثقافات الأجنبية من حافظ. أوْ كما قال العقاد: «كان حافظ مفطوراً بطبعه على إيثار الجزالة والإعجاب بالصياغة والفحولة في العبارة».

نعم؛ كان مِن أشد الشعراء حرصاً على اختيار اللفظ وتذوق الجرس، وكان حريصاً على أن تكون ألفاظه فخمة تحرك المشاعر وتثير العواطف. وقد وجد في الأسلوب القرآني مثله الأعلى الذي يُغذّي هذا الطابع لديه، ولعلَّ هذا كان ثمرة من ثمار مجالسته الإمام محمد عبده، إذْ يقول: «فقد كنتُ ألصق الناس بالإمام، أغشى داره، وأرِد أنهاره، وألتقط ثماره ...».

وقد اشتُهِر حافظ بسخطه على الأوضاع الاجتماعية والسياسية في مصر، فكتب كثيراً من القصائد، يكشف عن مدى الفساد والانحلال الذي أصاب كيان الأمة، وأوهى عزيمتها .. فاستمع إليه من قصيدة في شؤون مصر السياسية، قالها في عهد وزارة إسماعيل صدقي باشا سنة ١٩٣٢ ، وتبلغ نحو مائتي بيت:

قَدْ مَرَّ عامٌ يا سُعادُ وعامُ ... وابنُ الكِنانةِ في حِماه يُضامُ

صَبُّوا البَلاءَ على العِبادِ فنِصْفُهُمْ ... يَجْبى البِلادَ ونِصفُهُمْ حُكّامُ

أَشكُو إلى (قَصْرِ الدُّبارَةِ) ما جنى ... (صِدْقِي الوَزِيُر) وما جَبَى (عَلامُ)

ويختتمها مخاطَباً إسماعيل صدقي باشا، قائلاً:

ودَعَا عليكَ اللهَ في مِحرابِهِ ... الشيخُ والقِسِّيسُ والحاخامُ

لا هُمَّ أَحْيِ ضَمِيرَهُ لِيَذُوقَها ... غُصَصًا وتَنْسِفَ نَفْسَهُ الآلامُ

كان «حافظ» معجباً بالإمام/ محمد عبده أشدّ الإعجاب، وكان حريصاً على متابعة محاضراته التي كان يعقدها بالأزهر عصر كل يوم، يلقي فيها دروساً في الفقه والتفسير والفلسفة والبلاغة والتاريخ ... فأدناه منه، واتخذتْ علاقتهما بذلك طابعاً خاصاً.

وعندما أُلْحِقَ بسلاح المدفعية بالسودان؛ تبرّم وضاق ذرعاً من سوء معاملة الإنجليز، ومن قسوة الحياة، فأرسل كتابيْن إلى الإمام يشكو فيهما سوء حاله، وأنه حلَّ حلول «الكليم» في التابوت، و«المغاضِب» في جوف الحوت بين الضيق. والشدة، والوحشة والوحدة. بلْ حلول الكافر في يوم الحساب بين ناريْن: نار القيظ، ونار الغيظ ... فاستنجد بالإمام لإرجاعه إلى مصر قبل أن تزهق روحه:

يا من تيَّمنتْ الفُتيا بطلعتهِ ... أدرِك فتاكَ فقد ضاقت به الحالُ!

ويكتب إليه رسالة يصف فيها -نثراً وشِعراً- ما يعانيه، ويستنجزه وعده بالسعي من أجل إعادته، فيقول: «أناديه نداء الأخيذة في عمورية شجاع الدولة العباسية، وأمدُّ صوتي بذكر إحسانه مد المؤذن صوته في أذانه؛ وأعتمد عليه في البعد والقرب، اعتماد الملاَّح على نجمة القطب:

وقال أصيحابي وقد هالني النوى ... وهالهم أمري: متى أنت قافل؟

فقلت: إذا شاء الإمامُ فأوبتي ... قريبٌ ورَبعي بالسعادة آهِلُ

وها أنا متماسك حتى تنحسر هذه الغمرة، وينطوي أجل تلك الفترة، وينظر لي سيدي نظرة ترفعني من ذات الصدع إلى ذات الرجع، وتردّني إلى وكري الذي فيه درجت، ردّ الشمس قطرة المزن إلى أصلها، ورد الأمانات إلى أهلها ... إلخ.

لمَّا عاد «حافظ» إلى مصر لزِم مجلس الإمام، وكان الإمامُ يعطف عليه ويمده بما يحتاج. وقد روى العقاد نقلاً عن حافظ إبراهيم نفسه؛ أن الإمام تسلّم من حافظ أكثر نسخ كتاب «البؤساء» بعد صدور الجزء الأول، ثم أسلم حافظ من

ثمنها ما يكفيه سنوات، لولا أن رزق السنوات -كما يقول العقاد- لا يتجاوز في يدي حافظ مدى الشهور! وظل عائشاً في كنف الإمام وبره خمس سنوات قلّما كان يفارق مجلسه فيها، فأفاد منه علماً وخُلُقاً وإدراكاً صحيحاً لشئون الحياة، كما أفاد من مجلسه التعرف إلى عظماء مصر وكبار رجالاتها وقادة الرأي فيها، أمثال: مصطفى كامل، ومحمد فريد، وسعد زغلول، وقاسم أمين، وفريد وجدي، وعبد الله النديم، والشيخ علي يوسف، وغيرهم من أقطاب السياسة والفكر والأدب.

كان يحلو لحافظ أن يُلقِّب نفسه (**فتى الإمام**) مستلهِماً هذا اللقب، من سورة الكهف (وإذْ قال موسى لفتاه لا أبرحُ حتى أبلغَ مجمع البحريْن أوْ أمضيَ حُقَباً). فهو يشبّه نفسه من الإمام بـ«يوشع بن نون» الذي رافق الكليم عليه السلام- يهتدي بهديه ويسترشد بعلمه. ونراه يكرر هذا اللقب مؤكداً تواضعه، ومعبِّراً عما يحس من فضل الإمام عليه. فإذا لم يكن من الإمام كيوشع من موسى، كان منه كموسى من الخضر عليهما السلام:

وَكُنتُ كَما كانَ اِبنُ عِمرانَ ناشِئاً ... وَكانَ كَمَن في سورَةِ الكَهفِ يوصَفُ
كَأَنَّ فُؤادي إِبرَةٌ قَد تَمَغطَسَت ... بِحُبِّكَ أَنّى حُرِّفَت عَنكَ تَعطِفُ
كَأَنَّ يَراعي في مَديحِكَ ساجِدٌ ... مَدامِعُهُ مِن خَشيَةِ اللَهِ تَذرِفُ!

أجل؛ كان متيّماً بالإمام وعلمه، ولا يكاد يفارقه؛ فهو معه أينما حلّ وأينما رحل، يتفيّأ ظلّه، وينهل من علمه، فيقول للإمام: إنَّ حبي لك شغلني عن الاستهلال بالغزل والنسيب، فدخلتُ إلى موضوع المديح بدون مقدمات:

بَلَغتُكَ لَمْ أنسب وَلَم أَتَغَزَّلِ ... وَلَمّا أَقِف بَينَ الهَوى وَالتَذَلُّلِ
وَلَمّا أَصِف كَأساً وَلَمْ أَبكِ مَنزِلاً ... وَلَمْ أَنتَحِل فَخراً وَلَم أَتَنَبَّلِ
فَلَم يُبقِ في قَلبي مَديحُكَ مَوضِعاً ... تَجولُ بِهِ ذِكرى حَبيبٍ وَمَنزِلِ

راح يمدح «الإمام» بعدما تولى أمر الإفتاء، ويشبهه بالفاروق عمر، وبالإمام عليّ رضي الله عنهما تقى وحكمةً وعدلاً وتواضعاً، ويصوِّر الرسولَ الأعظم، وقد ابتهج حين

تقلَّدَ الإمامُ منصب الإفتاء، فيقول:

رَأيتـكَ وَالأبصـارُ حولَـكَ خُشَّـعٌ ... فَقُلـتُ أَبـو حَفـصٍ بِبُردَيـكَ أَمْ عـلي؟
وخفَّضتُ مِن حُزني على مَجـدِ أمَّـةٍ ... تَـدارَكتَها وَالخَطـبُ لِلخَطـبِ يَعـتَلي
طَلَعتَ بِها بِاليُمنِ مِـن خَيـرِ مَطلَـعٍ ... وَكُنتَ لَها في الفَوزِ «قِدحَ اِبـنِ مُقبِـلِ»!
وَجَـرَّدتَ لِلفُتيـا حُسـامَ عَزيمَـةٍ ... بِحَدَّيـهِ آيـاتُ الكِتـابِ المُنَـزَّلِ
مَحَـوتَ بِـهِ في الـدينِ كُـلَّ ضَـلالَةٍ ... وَأَثبَـتَّ مـا أَثبَـتَّ غَيـرَ مُضَـلَّلِ
لَـئِن ظَفِـرَ الإفتـاءُ مِنـكَ بِفاضِـلٍ ... لَقَـد ظَفِـرَ الإِسـلامُ مِنـكَ بِأَفضَـلِ

....

إِنّـي لَأُبصِـرُ في أَثنـاءِ بُردَتِـهِ ... نـوراً بِـهِ تَهتَـدي لِلحَـقِّ ضُـلّالُ
حَلَلـتُ داراً بِهـا تُـتلى مَناقِبُـه ... ببابِهـا اِزدَحَمَـت لِلنـاسِ آمـالُ
رَأَيـتُ فيهـا بِسـاطاً جَـلَّ ناسِـجُه ... عَلَيـهِ فـاروقُ هَـذا الوَقـتِ يَختـالُ
تَبَسَّـمَ المُصـطَفى في قَبـرِهِ جَـذَلاً ... لَمّـا سَـمَوتَ إِلَيهـا وَهـيَ مِعطـالُ!

كان «حافظ» عالِماً بالدِّين الصحيح، كارهاً للبدع التي أُلصِقَتْ به .. فتوجه إلى الإمام بقصيدة رائعة، طالِباً منه أنْ يحذِّر الناسَ من البدع والمعتقدات الخاطئة، قائلاً:

إمامَ الهُدى إِنّـي أَرى القَـومَ أَبـدَعوا ... لَهُـم بِـدَعاً عَنهـا الشَـريعَةُ تَعـزِفُ
رَأَوا في قُبـورِ المَيِّتـينَ حَيـاتَهُم ... فَقـاموا إِلى تِلـكَ القُبـورِ وَطَوَّفـوا
فَأَشـرِقْ عَـلى تِلـكَ النُفـوسِ لَعَلَّهـا ... تَـرِقُّ إِذا أَشـرَقتَ فيهـا وَتَلطُـفُ
فَأَنـتَ بِهِـم كَالشَـمسِ بِـالبَحرِ إِنَّهـا ... تَـرُدُّ الأُجـاجَ المِلـحَ عَـذباً فَيُرشَـفُ
رَأَيتُكَ في الإِفتـاءِ لا تُغضِـبُ الحِجـا ... كَأَنَّـكَ في الإِفتـاءِ وَالعِلـمِ يوسُـفُ!

كان «شاعر النيل» من أعظم شعراء الوطنية على الإطلاق، يتجلّى ذلك في سائر أشعاره، فاستمع إليه، وهو يرثي الزعيم/ مصطفى كامل- إذْ يقول:

أيـا قبـرُ هـذا الضـيفُ آمـالُ أُمـةٍ ... فكبِّـر وهلِّـل والـقَ ضـيفكَ جاثيـا
أيـا قبـرُ لـوْ أنّـا فقـدناه وحـده ... لكان التأسِّي من جوى الحزنِ شـافيا

ولكـن فقـدنا كـل شـيءٍ بفقـدهِ وهيهـاتَ أنْ يـأتي بـه الـدهرُ ثانيـا
شـهيد العُـلا، لازال صـوتكَ بيننـا يـرنُّ كمـا قـد كـان بـالأمسِ داويـا
سنشـهدُ في التـاريخ أنـك لمْ تكـن فتىً مفـرداً بـلْ كنـتَ جيشـاً مُغازيـا

يقول النقاد: لوْ لمْ يكن لحافظ سوى قصيدته (العُمرية) لكفاه؛ فإنها كفيلة بأن تتوِّجه أميراً للشعر العربي بلا منازع، تلك القصيدة التي يقول فيها:

فمـنْ يبـاري (أبـا حفـصٍ) وسـيرته أوْ مـن يحـاول للفـاروق تشـبيها؟
كـذاك أخلاقـه كانـت ومـا عُهِـدتْ بعـد النبـوةِ أخـلاقٌ تحاكيهـا

لكن، تظل قصيدة (اللغة العربية تنعى حظَّها بين أهلها) من روائعه الخالدة، إذْ يقول فيها:

رجَعـتُ لنفسـي فاتّهمـتُ حَصـاتي ونـاديـتُ قـومي فاحتسـبتُ حيـاتي
رمَـوْني بعقـمٍ في الشـباب وليتنـي عقمـتُ فلـم أجـزع لقـول عُـداتي
وَلَـدْتُ ولمـا لم أجـدْ لعرائسـي رجـالاً وأكفـاءً وأدتُ بنـاتي
وسـعتُ كتـابَ اللهِ لفظًـا وغايـةً ومـا ضِـقتُ عـن آيٍ بـه وعِظـات
فكيف أضيقُ اليومَ عن وصفِ آلـةٍ وتنسـيقِ أسـماءٍ لمخترعـات
أنـا البحـرُ في أحشـائه الـدرُّ كـامنٌ فهل سألوا الغَـوّاصَ عـن صَـدَفاتي
فيا ويحكـم أبـلى وتبلَـى محاسـني ومـنكم وإن عـزَّ الـدواءُ أُسـاتي
فـلا تكِلـوني للزمـان فـإنني أخـاف علـيكم أن تحـينَ وفـاتي
أرى كـلَّ يـومٍ بالجرائـد مزلقًـا مـن القبـر يُـدنيني بغيـر أنـاة
أيهجرني قـومي -عفـا اللهُ عـنهمُ- إلى لغـةٍ لم تتّصـل بـرُواة!
فإمَّـا حيـاةٌ تبعـث المَيْـتَ في البِلى وتُنبـت في تلـك الرمـوسِ رفـاتي
وإمّـا ممـاتٌ لا قيامـةَ بعـده ممـاتٌ لعمـري لم يُقَـسْ بممـات!

رحم الله (حافظ الفصحى) وجمعه بأستاذه (الإمام) في جنات النَّعيم!

محامي العباقرة

في عـــــام ١٨٩٦م زار الإمامُ (محمَّـد عبـده) مدرسـة أسوان الابتدائية، وعرضـوا عليـه كراسـة إنشـاء العقّـاد؛ كأحسـن نموذج لكتابة تلميذ صغير، فأُعجِبَ به إعجاباً شديداً، وتنبأ له بأنْ سيكون كاتباً له شـأن عظـيم! فـاعتزَّ العقـاد بهـذا التقريظ الساحر من الإمام، ورسـم مسـتقبله عـلى هديه!

وقد تحققتْ النبوءة، وصار (العقَّاد) كاتب الشرق بلا منازع، بلْ هـو العبقـريّ الذي أشرقتْ الشمسُ عليه قبل شروقها، ولمْ تغِب عنه، ولنْ تغيب!

المفاجأة؛ أنه قد اكتُشِفَ –مؤخراً– أنَّه لم يحصل على شهادة الابتدائيـة؛ بسـبب مظاهرة قادها أمام المدرسة؛ فحرموه من الامتحانات .. ففرِح، ولم يُكمِل تعليمه!

العجيب؛ أنَّه استطاع أن يستوعب مسيرة البشرية الفكرية، ويطَّلِع على مختلف المعتقدات والفلسفات والآداب ويهضمها، ثم يتخذ منها موقفاً انتقاديـاً، فـرفض أغلبها، واتفق مع أقلها، وكَوَّنَ لنفسه رأيه الخـاص، أوْ كمـا قـال: لمْ أتـأثر بأحـدٍ، لأنني أردتُ أن أكون أنا نفسي!!

لا جَرَمَ أنَّ «العقَّاد» أعظم مَن أمسك بالقلم في القرن العشـرين، بـلْ كـان قلمه أقوى سلاح نافح عن الإسلام بالحجة والبرهان –كما يقول الشيخ/ محمـد الغزالي. وكان –أيضاً– أقوى سلاحٍ استعان به سعد زغلول لمناصـرته، فوصـفه – زعيم الأمة– بأنه (كاتب جبَّار المنطق)!

في محاضرة بجامعة الأزهر؛ سأل الطلبةُ أستاذهم الشيخ/ أحمد حسن الباقوري -وكان وقتئذٍ مديراً للجامعة- عن رأيه في كتابات العقاد الإسلامية وموقفه منها كأزهري؟ فأجاب: «الأستاذ العقاد مجاهد صادق بعيد النظر، غيور على الإسلام والمسلمين غيرةً عاملة، وليست ثرثارة جامدة كأكثر أنواع الغيرة التي نشهدها في دنيانا الآن ... والعقاد بتخرجه على ثقافة الأزهر، وإنْ لم يكن أزهرياً بتخرجه في الأزهر .. فقد كان -رحمه الله- بهذه الثقافة العربية الإسلامية الأصيلة إلى جانب ثقافته الغربية المتينة، خير لسان للعروبة والإسلام بما كتب من مقالات ومؤلفات، وأذاع من أحاديث تدفع عن العربية أوهام المبطلين وعن الإسلام شبهة المغرضين».

***

لقد كان «الأستاذ» شديد الاعتزاز برأيه، شديد الاعتزاز بمكانته الأدبية؛ فخالف سعد زغلول في السياسة، ودافع عن طه حسين في قضية (الشِّعر الجاهلي) سنة ١٩٢٦م. قائلاً: ليس دفاعاً عن الكتاب، إنما دفاعاً عن حرية الفكر. كما وقف ضد أحمد شوقي وهاجمه في عنف، برغم أن سعد زغلول رأسَ مهرجان مبايعة شوقي لإمارة الشِّعر عام ١٩٢٧م!

في سنة ١٩٣٥م اصطدم العقاد برئيس حزب الوفد مصطفى النحاس؛ لِمَا لمسه من انحرافه في مقاومة القصر والإنجليز، فقال يومئذ كلمته المشهورة: (**إنَّني كاتب الشرق بالحق الإلهي**)! رداً على كلمة النحاس له: (إنني زعيم الأمة)! وظلَّ يهاجم النحاس في مجلة «روزا اليوسف» حتى أغلقتها الحكومة!

هكذا ظلَّ العقاد يجمع بين جهاده السياسي، وعبقريته الأدبية المثمرة؛ فهاجم حكومة صدقي هجوماً عنيفاً. وهو الكاتب الذي رفض مقابلة عبد الناصر! وهو المفكر الوحيد الذي لمْ يكتب كلمةً واحدةً عن ثورة يوليو ١٩٥٢م! ولمَّا سُئِلَ في ذلك؛ قال: «أصحاب الشعارات كثيرون، ولمَّا تتحول هذه الشعارات الرنانة إلى

واقعٍ ملموس»!

في سنة ١٩٤٠م شنَّ «العقاد» حرباً شعواء على هتلر والنازية، ونشر كتابيْه «هتلر في الميزان» و«النازية والأديان»! وعندما تقدمتْ طلائع الجيش الألماني على حدود مصر سنة ١٩٤٢م، خشيَ عليه أصحابه؛ فنصحوه بالهجرة إلى السودان، وهناك أَلَّف «عبقرية عمر» التي فتحتْ شهيته نحو حياة العباقرة؛ فراح يجمع أخبارهم، ويقرأ سِيَرهم، ويكتب عنهم ما شاء له أن يكتب، أوْ على حد قوله: «عندما أكتب عن واحدٍ منهم فكأنني أكتب عن نفسي»!

هذا؛ وقد خاض «العقاد» معارك عنيفة، وصفها بقوله: «لي بحمد الله أصدقاء، ولي كذلك أعداء بحمد الله .. لقد حاربتُ الطغيان وحاربتُ الفوضى، لقد حاربتُ رءوس الأموال وحاربتُ مذاهب الهدم والبغضاء، لقد حاربتُ التبشير وحاربتُ التقليد الأعمى والدجل المريب باسم الدِّين، لقد حاربتُ الجمود والرجعية وحاربتُ الإنكار والجحود، لقد حاربتُ الأحزاب وحاربتُ الملوك، لقد حاربتُ هتلر ونابليون، وحاربتُ المستعمرين في صفوف الديمقراطيين، لقد حاربتُ أعداء الأدب المسمَّى بالقديم وحاربتُ أصدقاء الأدب المسمَّى بالجديد، لقد حاربتُ الصهيونية وحاربتُ النازية أكبر أعداء الصهيونية، لقد حاربتُ جميع هؤلاء فالتقى على محاربتي أناس من جميع هؤلاء .. صهيوني، إلى جانب نازي، إلى جانب فوضوي، إلى جانب رجعي، إلى جانب ملحد، إلى جانب حامل اللحية والعذبة باسم الدين، إلى جانب الماركسي من اليسار والمبشِّر من اليمين ... حمداً لله؛ لأنه أرسل عليَّ هذه السيوف المشرَعة من كل جانب، ولكنه أسبغ عليَّ الدروع التي تنكسر عليها تلك السيوف، فقال رَبُّ الجنود: أنتَ «قدّهم وقدود»!

لكن؛ لا ننسى أنَّ هذا(الكاتب الجبّار) لديه عاطفة جياشة نحو الإنسان والحيوان والطير! فرثى كلبه «بيجو» عند موته، كما تألَّمَ ألماً شديداً لموت «الكروان» الصادِح فوق الغصن المتمايل على نافذته، وتبلغ عاطفته نحو الأطفال

مبلغها، فكان يقتني صورهم، ويطرب حينما تروى له سهوات الأطفال الصغار، ويحفظ هذه النكات ويرويها لرواد صالونه، نلمس ذلك في قصيدته التي يداعب بها طفلة صغيرة، قائلاً:

ما كان أملح طفلةٍ	من غير شيء تخجلُ
ضاحكتها فتمايلتْ	وشعورها تتهدّلُ
ورجوتُ منها قُبلةً	فأبتْ كمن يتدلّلُ
وتعبتُ وهي تصدنّ	حيناً وحيناً تقبلُ

* * *　　　　* * *

فرفعتُ مرآةً لها	فتطلعت تتأملُ
قلتُ انظري في وجهها	أفأنتِ أمْ هي أجملُ
قالت وفيها غضبة	أنا بالملاحة أمثلُ!
ومضت تقول: إلى متى	تنسى الجميل وتجهلُ
وأقولُ أيكما إذنْ	أدعو بها فأقبّلُ
عطفتْ عليَّ وكل مح	بوبِ يغار فيسهلُ!

ما هي (العبقرية)؟ ومَنْ هو (العبقري)؟

العبقري عند «العقاد» هو إنسان يقيس الأشياء بمقياسه الخاص الذي يعلو على مقاييس العامة، ويأخذ نفسه به، وهو إنسان لمْ يُخلَق لخدمة نفسه أوْ أسرته أوْ عشيرته؛ بلْ خُلِق لخيرٍ إنساني عام، وأُوتِي من القوة ما يخدم به غيره!

أيْ أنَّ العبقري في رأي العقاد لا يدين بشيء كثير لبيئته أوْ وراثته بقدر ما يدين لعبقريته، فيقول –مثلاً– في ثنايا حديثه عن عمر بن الخطاب: «وكل رجل من هذا القبيل فمعرفته ليست بالأمر اليسير، لأنه نمط لا يتكرر فيسهل فهمه، بالقيّاس إلى أمثاله الكثيرين، وقد يكون الرجل العظيم نمطاً وحيداً في التاريخ كله، لا نظير له في تفصيل أخلاقه وصفاته».

والعبقرية عنده، تنمو على البذل والعطاء، ولا تتورم بالنهب أوْ السلب أوْ الجوْر على حقوق غيرها حتى تنفجر. بمعنى آخر: عظمة العبقري عند العقاد- هي التي تقول «نحن» ولا تقول «أنا» حتى لوْ سمعتَ منها «أنا» فلا يُفهَم من معناها إلاَّ «نحن».

حين يكتب العقاد عبقرياته لا يكتفي بالعرض الفوضوي أوْ المنظَّم تنظيماً آلياً أوْ شبه آلي، بلْ يُنسِّق الملامح البارزة في كل صورة، وينفخ فيها من روحه وروح هذا العبقري الذي يكتب عنه، فيُحييها في نفوس قرائه حتى يعاطفوا عبقريته، فيجدوا في نفوسهم آثار فضلٍ كفضلها، ويردِّدوا كلماتٍ وجملاً منها، ومن ثمَّ يشعر القارئ بالغبطة، لأنه يرى أنه قد ارتفع فوق نفسه، وحلّق في أفقٍ أعلى مما اعتاد أن يحلِّق فيه، بلْ يمتلئ من العبقرية بأكثر مما أدّاه العقاد إليه، ويلقَّن عن آياتها أكثر مما لقنه، ويضرب بجناحه في أفق أعلى مما أراد له أن يحلِّق! ذلك أن «الأستاذ» في عبقرياته لا يقصر خطابه على عقل قارئه، بلْ يحرك كل حياته، ويستجيش كل ما تشتمل عليه من عطفٍ وشعورٍ وخيالٍ وبداهةٍ وتأملٍ وتفكير ... هذا الجانب هو الذي يحركه العقاد في نفوس قراء عبقرياته، فيشيعوا معه إلى جانب «العبقرية التي يكتب عنها بالقدر الذي يمضي بهم إليه، وكثيراً ما يذهبون في التشيُّع للعبقري إلى أبعد ما كان يريد العقاد! ولعلَّ السر الكامن وراء ذلك؛ هو أسلوب (الأستاذ) ذاته وقدرته في التعبير عن أفكاره!! فما من عبقرية من عبقرياته إلاَّ وهي قصيدة شِعرية ينقصها الوزن والقافية، ولا ينقصها صدق الشعور ولا جمال التعبير، بلْ لا ينقصها التنغيم النفسي الذي يكاد أن يدفع الإنسان إلى التغنِّي بها والرقص على وقع أنغامها في النفس!

كما أنَّ «العقاد» لا يكتب حياة عبقري أوْ يصور صورته إلاَّ وهو داخل معه في إهابه، متلبِّس به «متشكِّلٌ بشكله» وهو يحيا معه حياته بكل ما تشتمل عليه من قوة وضعف، فيقف على أسراره من داخل نفسه هو، لا من مجرد ما يُنسَب إليه من

أخبار وأعمال وأقوال .. لذلك ترى شخصية «العقاد» أمامك في كل عبقرية مع شخصية صاحبها يتحركان معاً.

ولا يتحفَّظ «العقاد» في الثناء على «العبقري» خوفاً من الاتهام بالمبالغة طالما وجد ما يستحق منه ثناءه، وعلى الرغم من ثناء العقاد وإعجابه؛ إلاَّ أن هذا كله لا يعطِّل مَلَكة النقد عنده أوْ يضعفها، بلْ نراها ناشطة ومتوهِّجة بملء قواها، فملَكَة النقد عنده من أقوى ملكاته وأبرزها، وروح النقد ظاهرة جياشة في كل ما يُصدِر من كتابات ... وبهذا المنهج جملة وتفصيلاً كتب -الأستاذ- عبقرياته التي ارتفعت إلى أعلى مستوى أدبي وفني في تاريخ العربية!

مفتاح شخصية العقَّاد

كان «العقاد» في تعامله مع «العباقرة» يُجهِد عقله إلى آخر مدى، بحثاً عن «مفتاح» للعبقريّ؛ يفض به مغاليقه، وينفذ به إلى أبعاده النفسية وأدق أسرار عصره .. فوجد مفتاح عبقرية الصديق يكمن في «الإعجاب بالبطولة»، وأدرك أنَّ «طبيعة الجندية» مفتاح عبقرية عمر، في حين رأى أن «آداب الفروسية» هي مفتاح عبقرية الإمام، وهكذا ..

فما هو مفتاح شخصية «محامي العباقرة»؟!

تباينت الآراء في هذا الصدد، فمن جانبي أعتقد أن مفتاح شخصيته يكمن في **«التحدِّي»!**

هذا؛ وقد بدتْ معالِم العبقرية في شخصيته منذ شبابه الباكر، فاستمع إلى ما يقوله في كتابه (أنا): «من (السوابق) التي أغتبِطُ بها وأحمدُ الله عليها؛ أنني كنتُ أول موظف مصري استقال من وظيفة حكومية بمحض اختياره، يوم كانت الاستقالة من الوظيفة والانتحار في طبقة واحدة من الغرابة وخطل الرأي عند الأكثرين، بلْ ربما كانت حوادث الاستقالة أندر من حوادث الانتحار، وليس في الوظيفة

الحكومية لذاتها معابة على أحد، ولكنها إذا كانت باب المستقبل الوحيد أمام الشباب المتعلِّم فهذه هي المعابة على المجتمع بأسره ..»!

من شمائل العبقرية التي توشح بها العقاد -كما يقول الدكتور/ شوقي ضيف: «كان معروفاً بعفَّة نفسه وكرم طويته، وأخلاقه المطبوعة بطابع الفروسية، التي تحلى بأنبل معانيها من الشجاعة في القول والجرأة والصراحة، وهي معان استحالت في يده إلى أسلحة يضرب بها خصومه ذات اليمين وذات الشمال، لكنه لا يدخل في خصومة إلاَّ إذا استفزه أحد خصومه، غير أنه كان إذا دخل في خصومة لا ينكص على عقبيه أبداً، بلْ يظل صائلاً جائلاً يدعو هل من مبارز؟! وهذا النضال المتصل دعّمه اعتداده بكرامته إلى أقصى حد، مما جعله يقف رافع الرأس حمي الأنف عزيز النفس ليناقش النحاس والقصر وأعوانه على قدم المساواة، بلْ إنه يحاسبهم حساباً عسيراً، شاعراً في أعماقه بأنَّ مواهبه الأدبية والفكرية ترفعه فوقهم درجات، بلْ لا بأس أحياناً من أن ينزل على ظهورهم بسياطه»!

***

هذا؛ وتتجلى (عبقرية العقاد) في شموخه عندما وقف خطيباً في البرلمان المصري، وأنحى باللائمة على أعداء الأُمة وأعداء الدستور، وجهر بعبارته الشهيرة: «**إنَّ الأمة على استعدادٍ لأنْ تسحق أكبر رأس يخون الدستور أوْ يعتدي عليه**»!

وقد قُدِّم (الكاتب العملاق) إلى المحاكمة، ليعاقَب بتسعة شهور في سجن مصر العمومي، بتهمة العيْب في أكبر رأس في البلاد، فلمَّا خرج من السجن، ألقى قصيدته الشهيرة، مؤكداً فيها بقاءه على العهد، وتأييده لقضايا الحرية، وخصامه لأعداء الشعب .. إذْ يقول:

وكنتُ جنينَ السجنِ تسعة أشهرٍ فها أنذا في ساحة الخلد أُولدُ

ففي كل يومٍ يُولَد المرءُ ذو الحِجى — وفي كـل يـومٍ ذو الجهالـة يُلحَـدُ
وما أفقدتْ لي ظلمة السجن عزمةً — فما كـل ليـلٍ حـين يغشـاك مرقـدُ
وما غيّبتني ظلمة السجن عن سنىً — مـن الـرأي يتلـو فرقـداً منـه فرقـدُ
عُداتي وصحبي لا اختلاف عليهمُ — سـيعهدني كـلٌّ كمـا كـان يعهـدُ!

لقد اتسع المدى لإنتاج العقاد: فكتب عن الثقافة والفلسفة في شتى عصورها، وعن نظريات الحكم والاقتصاد وعلم النفس، والتراجم والتاريخ، وكتب في التفكير الديني وأصول العبادات، بلْ كتب عن الأدب والثقافة ما يربو على المائة كتاب، ولم تقف به الجرأة والمقدرة عن الكتابة بعمق وإسهاب في أيّ موضوع يخطر على باله أوْ يُقترَح عليه ... إنه لم يكد يفرغ من الكتابة عن «إبراهيم أبو الأنبياء» فإذا به يكتب عن «شكسبير»، وبعدما كتب عن فيلسوف الشرق «ابن سينا» اتجه ببصره غرباً فكتب عن «ابن رشد»! وعن فلسفة الضحك ألَّف كتاب (جحا)! وعن فلسفة الشر ألَّفَ كتاب (إبليس)!

لله در العقاد! الذي كتب عن «عمر بن أبي ربيعة» و«جميل بثينة»، في ذات الوقت الذي كتب فيه أبلغ ما كتب عن «فاطمة الزهراء» و«الصدِّيقة بنت الصدِّيق»!

وكما كتب عن صديقته «سارة»، كتب عن «معاوية» و«عمرو بن العاص»!

ذلكم «العقاد» الذي لمْ يرَ الناس كاتباً يفري فَريّه؛ إذْ ذاع صيته، واشتهرت مقالاته ومؤلفاته، وتخطتْ آراؤه اليابس والماء، وجنى ثمرة نبوغه وهو على قيد الحياة، حتى خلع عليه الناس من الألقاب والصفات ما هو أهل له، فوصفوه بالعملاق، والكاتب الموسوعي، ومحامي العباقرة، وغيرها من الصفات والألقاب التي صارت اسماً من أسمائه، ولقباً من ألقابه!

هذا؛ وقد رسم له الشاعر السوداني/ بابكر أحمد موسى- صورة مصغَّرة، في قصيدته «العقاد الشاعر» قال فيها:

ومَن كانتِ الدنيا العريضة سِفره | وناهيك بالدنيا العريضة من سِفر!
جلوتَ لنا منها الذي كان مُبهمًا | كما قد جلا ذاك الدجا مطلعَ الفجر!
أليس عجيبًا أن تُجسِّد روحَها | على صفحة القِرطاس سطرًا إلى سطر؟
يرونكَ هلْ يدرون ما أنتَ بينهم | رويدك حتى يستفيقوا على أمر!
وكيف يرون النورَ أعشى عقولهم؟ | وكيف يرون الدرَّ في صدف الدرّ؟
فما الشرقُ يدري ذلك العقل بينه | ولا مصرُ تدري ويحَ مصركَ من مصر!

كانت للعقَّاد فلسفة حياتية عجيبة غاية العجب؛ مبثوثة من خلال مقالاته ومؤلفاته؛ من ذلك أنه سُئِلَ عن الموت؛ فقال: «إذا فاجأني الموتُ في وقتٍ من الأوقات، فإنِّي أصافحه ولا أخشاه، بقدر ما أخاف المرض، فالمرض أليم مذلّ لا يُحتمَل، لكن الموت ينهي كل شيء! وقد تمثلتُ في هذا بأبيات من الشِّعر، قلتُ فيها:

ستغربُ شمسُ هذا العُمرِ يوماً | ويغمض ناظري ليل الحمامِ
فهل يسري إلى قبري خيالٌ | من الدنيا بأبناء الأنامِ؟
خلعتُ اسمِي على الدنيا ورسمي | فما أبكي رحيلي أوْ مُقامِ!

عندما مات (عملاق الشرق) رثاه الدكتور/ طه حسين- فقال: «أمثالك تموتُ أجسامهم، لأنَّ الموت حق على الأحياء، ولكن ذِكرهم لا يموت، لأنهم فرضوا أنفسهم على الزمان وعلى الناس فرضاً .. وسيُوراى شخصك الكريم في أطباق الثرى، ولكن القبر الذي سيحتوي شخصك لن يستأثر بك، فلك في قلوب الذين يحبونك، والذين ينتفعون بأدبك وعِلمك ذِكرٌ لن يموت، ولكنهم لن يستأثروا أيضاً بذكرك، وإنما ستشاركهم فيه الأجيال التي تبقى بقاء الدهر»!

كما رثاه مئات الكُتَّاب والعلماء والشعراء من مختلف الأقطار، منهم الشاعر الليبي/ إبراهيم رحومة محمد الصاري، فقال:

يا مَن تغيبُ وأنت حيٌّ خالدٌ | في العالمين بعلمِه وكماله
«العبقريّاتُ» التي ألّفتها | هي بعض جزءٍ من مدى أعماله!

شـهدتْ لـه بالعبقريـة والحِجـا ... وبأنّـهُ القُدْسـيّ في أفضـاله
لم يعـرفِ الإسـلامُ مثلَـك باحثًـا ... ومنقِّبًـا ومفكِّـرًا في حالـه
لـو كنـتَ تُفـدَى بالزمـان وآلـه ... نفـديكَ بـالآلافِ مـن أجيالِـه
عجبًـا لقبـرٍ ضـمَّ بحـرًا زاخـرًا ... يحـوي مـن الـدُّرِّ الكـريمِ غَوالِـه
يا مـن بحثْـتَ عـن الحياة وكُنْهِهـا ... هـلاَّ بحثْـتَ عـن الفنـا ومآلِـه؟
ماذا رأيتَ؟ وكيـف كنـتَ ملاقيًـا؟ ... للمـوت في عِرفانِـه وجلالـه
صِـفْهُ لنـا فلقـد عهـدتكَ عارفًـا ... للمـوتِ والأحيـاءِ مـن أقوالـه!

كما رثاه الشاعر/ أبو بكر مخيون- فقال:

لبّـى النِّـداءَ الفـارسُ العمـلاقُ ... وهْـو المجلِّـي إذْ يكـونُ سـباقُ
أقلامُـه يبكـي عليـه مِـدادُها ... مـا جـفَّ منـه ومـا جـرى ويُـراق
تسـعون تأليفًـا عجيـبٌ أمرُهـا ... في كـلِّ فـنٍّ إنَّهـا تِريـاق!
بلغـت كتابتُـك السّـماءَ عَنانهـا ... كتـبٌ لهـا في المونقـات لِحـاق
عَبّاسُ كنتَ لـدى الحيـاة مناضـلاً ... لـك مـن جحافلهـا هـدًى وخَـلاق
ورفعتَ صوتَك في السياسـة عاليًـا ... في حـبِّ مصـرَ، لهـا الفتـى عَشّـاق
فاذهبْ عليـك سـلامُ ربِّـك دائمًـا ... يرضـى عليـك الواحـدُ الخـلاّق!

لقد تنبأ «العقّاد» بدنوّ أجله، فرثى نفسه قبل أن يرثيه أحد! لكنه لمْ يجعل من الرحيل فجيعةً ولا مأساة، ولم يُقِم مناحةً كسائر البشر، بلْ اعتبر «الموت» كأساً شهية، وصوّر «النعش» كأنه مهد الطفولة! إذْ يقول:

إذا شَـيَّعُوني يـوم تُقْضَـى مَنِيَّتِـي ... وقـالوا أراحَ الله هـذا المُعَـذَّبا
فـلا تحملـوني صـامتين إلى الثـرى ... فـإنِّي أخـاف اللَّحْـدَ أنْ يتهيَّبـا
وغنّـوا فـإنَّ المـوتَ كـأسٌ شـهية ... ومـازال يحلـو أنْ يُغَنَّـى ويُشْـرَبا
وما النعش إلاَّ المهد مهد بني الورى ... فـلا تُحْزِنُـوا فيـه الوليـدَ المُغَيَّبـا
ولا تـذكروني بالبكـاء، وإنمـا ... أعيدوا على سـمعي القصيدَ فأطربـا

شاعر البادية

عندما نشر الشَّاعر (محمد عبد المطلب) قصيدته (فظائع الإنجليز في قمع الثورة) أحدثتْ صدىً واسعاً، وعمَّت بعدها مظاهرات عارمة، لاسيما أنه ألقاها عندما حاول الإنجليز قمع ثورة ١٩١٩ – يقول في مطلعها:

يا مصرُ ما بالُ الأسى لكِ حالا	لوْ أنَّ مفجوعاً يردّ سؤالا
يا ناشري علَم السلام، ألمْ تروا	للسلم في أرجاء مصر مجالا
ما العدل؟ ما حرية الأمم التي	سارت رسائلكم بها أرسالا؟
ما عهد «ولسن» أين ولسن هلْ درى	أنّا بمصر نكابدُ الأهوالا؟
أمِنَ العدالةِ عنده أنْ يبتلى	شعبٌ يريد بأرضه استقلالا؟
سفراء «ولسن» هلْ لكم أنْ تبلغوا	عن مصر صوتاً بالشكاة تعالى؟

ولمَّا قامت ثورة ١٩١٩ أمدّها بشِعره وأدبه وجهاده، وخلَّد حوادثها بقصائده. وكان حُجّة في الأدب واللغة يُرجَع إليه، وتغلب على شِعره الروح الوطنية المتدفقة، وله ديوان ضخم في «الوطنيات». قال في قصيدته (وثبة مصر) التي ألقاها سنة ١٩٢٠م.

تكلَّم وادي النيل فليسمع الدهرُ	وأملي على الأيامِ فليكتب الشِّعرُ
....	....
لئن كان ماضينا فخاراً فإنما	بحاضرنا تعلو المحامد والفخرُ
وقفنا لريْب الدهر حتى تغللتْ	مضاربه وانشقَّ عن ليله الفجرُ

حرام علينا أن نعيش أذلةً ... وذو الذلّ أولى ما يكون به القبرُ!

كان «محمد عبد المطلب» يجنح في شِعره إلى تناول الموضوعات الجادة ويعالجها بطريقته الخاصة وأسلوبه الخاص .. ولعلَّ هذا الذي دفعه إلى نظم مطولته (العلوية) الخاصة بمآثر ومناقب الإمام/ علي بن أبي طالب «عليه السلام».

وقيل: إنَّ الذي دفعه إلى نظم مطولته هذه، ما رآه من تراجع الحضارة الإسلامية، وما أصاب المسلمين من نكسات وهزائم في مطلع القرن العشرين.

بينما يرى «العقاد» أنَّ عبد المطلب لمْ ينظم هذه القصيدة؛ إلاَّ تحدِّياً لـ«عُمرية» حافظ التي نُظِمتْ وأُنشِدتْ قبل العلوية بقرابة عام، ونالت من الشهرة ما نالت!

ولعلَّ حرص «الشَّاعر» على إثبات وجوده الذاتي؛ جعله يلتمس لقصيدته وجوهاً وعناصر تحقق لها التفوق على «العُمرية» وقد اهتدى إلى طلبته في الاستهلال والطول .. فاستهلَّ مطولته بوصف الطائرة ليلتقي بالإمام (عليّ) فوق السحاب:

فهبْ لي ذات أجنحةٍ لعلّي ... بها ألقى على السُحْب الإماما
إمامُ بني الهدى وهو ابن تسعٍ ... وأول مُسلمٍ صلَّى وصاما

كان «عبد المطلب» أطول نفساً من حافظ، فالعلوية تزيد على العُمَرية بمائة وعشرين بيتاً، وأطول من «بكرية» عبد الحليم المصري بستة وتسعين بيتاً. فالحرص على إثبات «الوجود الذاتي» والتفوق الشِّعري كان باعثاً من أهم البواعث النفسية وراء نظم العلوية ... فهل نجح «عبد المطلب» في تحقيق ما تمناه؟ الجواب يتطلب وقفة موضوعية وفنية مع هذه المطولة.

لقد بلغت العلوية (٣٠٧ بيتاً) من «البحر الوافر»، وقسَّمها إلى عشرة أقسام رئيسة، عدا المقدمة التي جاءت في ستة عشر بيتاً، وأعطى كل قسم عنواناً يدلّ على

مرحلة من مراحل حياة الإمام أوْ موقف من مواقفه، على النحو التالي:

(عليٌّ في صباه وإسلامه ٢٥ بيتاً، استخلافه ليلة الهجرة ١١ بيتاً، عليّ بالمدينة ٢٨، غزوة أُحُد ٢٠ بيتاً، يوم الخندق ٢٨ بيتاً، يوم خيبر ٨ أبيات، قتل مرحب اليهودي ١٩ بيتاً، زعامته في المواطن ٥ أبيات، عليٌّ في السلم ٢٥ بيتاً، قلبه ٥ أبيات، نفسه ٥ أبيات، وجهه ٣ أبيات، جوده ٦ أبيات، قيامه الليل ٦ أبيات. عليٌّ في كِبره ١٢٢ بيتاً، مقتل عثمان ١٧ بيتاً، اختلاف المسلمين في الخلافة بيتان، الطائفة التي بايعت عليّاً ٣ أبيات، أهل الجمل ٤ أبيات، أهل الشام ٦٩ بيتاً).

بعد المقدمة؛ تحدث «الشاعر» عن سبق عليّ إلى الإسلام على الرغم من أنَّ قريشاً قد ظلت على عماية الضلال، أمَّا (عليّ) الذي تربى في بيت النبوة، فقد مضى بالسلامة كالسيف شجاعاً دون خوفٍ أوْ وجل:

صغير السنِّ يخطرُ في إباءٍ — فلا ضيماً يخافُ ولا ملاما
وما زالت به الأيام ترقى — على درج النُّهى عاماً فعاما
وقد جُمِع الحجا والدينُ فيه — خلائق تجمع الخير اقتثاما
فما أوفى على العشرين حتى — شهدنا من عظائمه عِظاما

ثم يوجز «الشاعر» القول في موقف من مواقف العظمة العلوية؛ ليلة نام في فِراش النبيّ ﷺ ليوهِم المتآمرين أن النائم رسول الله، ولكن الله أعمى عيونهم عنه؛ فتمكن رسول الله من مغادرة البيت مهاجراً إلى المدينة، أمّا (عليٌّ) فقد:

أقام بها ليقضيها حقوقاً — على طه بها كانت لِزاما

وفي المدينة يبدأ عهد جديد -عهد الدولة الإسلامية- وفي ثمانية وعشرين بيتاً يتحدث «الشاعر» عن بطولة (علي) في بدر، ثمَّ أسهب في الحديث عن قصة زواج (علي) من السيدة فاطمة -عليها السلام، وربما كان هذا المشهد هو أكثر المشاهد كلها شاعرية وشفافية وبراءة خيال:

بـــأمر الله زفُّوهـــا إليـــه — عشـــية راح يخطبهـــا وســاما
كـــأنّي بالملائـــك إذْ تـــدلّتْ — بصـحن البيـت تـزدحم ازدحامـا
فلـوْ كُشِـفَ الحجـابُ رأيـت فيـه — جنـــود الله تنـــتظم انتظامـــا
أطـــافوا بـــالحظيرةِ في جـــلالِ — صـــفوفاً حـــول فاطمـــةٍ قيامـــا
تفـــيض عـــلى منصـــتها وقـــاراً — وتكســـو حُســـن طلعتهـــا وســـاما
فـــلا يُحـــزِنْ خديجـــة أنْ تولّـــتْ — ولْم تبلـــغ بجلوتهـــا مرامـــا
تولاهـــا الـــذي ولّـــى أباهـــا — رســـالته وزوجهـــا الإمامـــا

لعلَّ من أجمل المشاهد وأبرعها وصـفاً نهـوض (عـليّ) لقتـال «عمـرو بـن وُد العامري» بالرغم من فارق القوة والخبرة القتالية، ممـا دفـع النبـيّ ﷺ إلى تحـذير (عليّ) من مبارزة هذا الفارس الصنديد:

فقـــال وإنْ يكـــن عمْـــراً فـــدعني — رســـولَ اللهِ ألجمـــهُ الحُســـاما
تقلّـــد ذا الفقـــار وقـــام يرغـــو — رغـــاء الفحـــلِ يعتلـــك اللُّغامـــا
يحـــدِّثُ نفســـه ولهـــا أجـــيجٌ — ببـــأس اللهِ يضـــطرمُ اضـــطراما
وما عمـرو؟ ومـن أنـا؟ مـا فنـائي — إذا لْم أرْوِ منـــه صـــدىً وهامـــا
فلـــمْ يـــكُ غيـــر أنْ فـــاق ابـــنُ ودٍّ — وخـــاض الســـيفُ في دمـــهِ وعامـــا
وعـــاد إلى النبـــيّ يفـــيضُ بأســـاً — ويزخـــرُ في حميتـــه جمامـــا
وراح الكُفْـــرُ يرجـــفُ جانبـــاهُ — وأمســـى غَضْـــبُ عزتـــهِ كهامـــا

على ذات النهج، يعرض الشاعر بطولة (عليّ) في فتح خيبر، وكيـف اسـتطاع أن يصرع الزعيم اليهودي «مرحب بن منسية» الذي نزل القتال والغرور يمـلأ نفسـه، فهو المعروف ببطولته، والمشهور بين الناس بالحنكة في القتال .. ولكن عليّا:

عـــلاهُ بضـــربةٍ لـــوْ أنّ رضـــوى — تلقاهـــا لعـــاد بهـــا هيامـــا
فلـــمْ يعصـــمه مـــن حَـــيْنٍ رخـــام — ولم يجـــد الحديـــد لـــه عصـــاما

ولِدَ الشاعر/ محمد عبد المطلب سنة ١٨٧٠ بمدينة (جرجا) لأسرة ينتهي نسبها عند قبيلة (جهينة) الحجازية، وكان شديد الاعتزاز بنسبه، حتى لقَّبوه بـ(شاعر البادية) وأنشد في هذا الصدد أشعاراً كثيرة، كقوله:

لنا المعالي تراثٌ لا يقاسمنا ... فيها أخو سؤدد إلاَّ بتقليد
دنتْ لأشياخنا مِن قبلنا وأتتْ ... تُومي إلينا بتسليم المقاليد
والدهر شاهد عدلٍ أنَّ لي نسباً ... قد حلَّ منه محل العقد في الجِيدِ
يظلُّ يسمو به قدراً كما شرفتْ ... بالعلم خُلَّةُ تشريف ابن محمود
العالِمُ الورِعُ ابن العالِم الورِع ... المعروف في النفر البيض الصناديد
القاطعُ الليلِ والظلماءُ شاهدةٌ ... ما بين حاليْنِ تسبيح وتحميد
وناصر الدِّينِ في قولٍ وفي عملٍ ... إذا التوتْ عنه أرسانُ المذاويد!

درس «شاعر البادية» بالأزهر، ثم انتقل إلى دار العلوم. وأنشد قصائده التي نالت إعجاب الجماهير؛ يجمع شِعره بين الجزالة وروعة الأسلوب، حتى أصبح من فطاحل الشعراء في القرن العشرين!

وقد كان لوفاة «محمد عبد المطلب» صدىً واسعاً بين الأدباء والمثقفين على وجه الخصوص، فرثاه الشَّاعر/ عبد الرحيم العدوي في قصيدة (فتى البيداء) قال فيها:

ثكلت نجدٌ فتى بيدائها ... وبكى نعمانُ وضّاحَ الجبين
وتمشَّى في تميمٍ نعيه ... كتمشّي الداءِ في جوف الوتين
أيُّ رزءٍ حَلَّ مغنى هاشمٍ ... أي رزءٍ حلَّ في الوادي الأمين
لست أنسى موقفًا ضاحي السنا ... كان منكم للغواة الملحدين
نَمْ هنيئًا بين روضٍ وجنًى ... بين خِلانٍ وولدان وعِين
كان منهاجك أرقى منهجٍ ... سوف نُلقيه دروسًا للبنين
فليكنْ ذلك سلوى كلّ من ... يحتذي في السير نهج المتقين!

ملاذ العارفين

كان الشيخ (أبو الوفا الشرقاوي) موضع ثقة الناس، ومحط رحالهم، ومرجعيتهم الدينية. لذا؛ أحبوه، والتفُّوا حوله، وقصدوه من كل فج عميق، وأطلقوا عليه كثيراً من الألقاب، مثل: ملاذ العارفين، وتاج المرشدين، وأبو المعارف، وأبو الإسعاد، وغيرها.

كانت للشيخ/ الشرقاوي علاقات وطيدة مع مختلف رجالات الأحزاب السياسية، لاسيما الزعيم/ سعد زغلول وقادة الوفد إبان ثورة ١٩١٩م، وله رسائل إخوانية مع كبراء السياسيين في عصره، كما لعب دوراً كبيراً في حركة التقريب بين المذاهب.

رُزِقَ «الشرقاوي» بقدرةٍ عجيبةٍ في الوعظ والخطابة، كما كانت له مقدرة فائقة على الكتابة والتعبير، من مؤلفاته كتاب «مصباح الأرواح في سلوك طريق الفَتّاح» وهو يدور حول آداب الطرق الصوفية، وكتاب «الصارم اللماع فيمن جعل مجلس الذكر لطلب المتاع». كما كان يكتب الشِّعر، وله قصائد كثيرة في مختلف الأغراض، الوطنية والسياسية، لكن أكثر شِعره يدور حول الزهد والتصوف، كما في قصيدته (لمعة الأسرار) التي استهلها قائلاً:

أرِقتَ يا صبُّ من فرْط الجوَى ليلاً ... ولستَ تصبو، إلى نُعمٍ ولا ليلَى
ولا أرَقْتَ على الأطلال دارسَةً ... وَبْلَ الشئون ولا أسقيتَها طلاّ
ولا شجتْكَ على الأغصان ساجعةٌ ... يُجيبُها سحَراً محزونةٌ ثكلى
ولا علقتَ بما تسبي محاسنَه ... سواك كلاّ ولا أتبعتَه مَي

لله نفسُك عرشُ المجد من قدمٍ ... يجرُّ فوق ذرى عليائِه ذَيْلا
سمت بها همّةٌ في المكرمات فلن ... ترى لحبِّك في هذا الورى أهْلا
فما لها اليوم يطويها وينشرها ... من حَرٍّ وجْدِك ما أبقى وما أبلى
وما لمهجتك الحرَّى تذوبُ أسًى ... وما لأحشاك في نار الجوى تصْلى
أفنيتَ روحك طوعاً في الغرام وقد ... أضحى فؤادُك من أشواقِه يبلى
فالحبُّ لا يرحم العشاقَ لاعجُه ... وليس يرقب في أهل الهوى إلاًّ
بَرَتْكَ لوعتُه حتى خفيتَ ضنًى ... وكم تجرَّعتَ في لذّاته مهْلا
فكيف تخفيه والآثار شاهدةٌ ... وكيف تخفي المنايا أنفسَ القتلى
تبدو شواهدُ بلواه وما فتئتْ ... آياتُ محوِك في ألواحه تُتْلى
فليت شِعري بمن يا صبُّ هِمْتَ ولم ... تجعل لروحك من حب السِّوَى شُغلا

....

يا صاحِ هذا الذي في حبِّه فنيتْ ... روحي وفيه نَعمْ تستعذبُ القتلا
أُخفي غرامي به صونًا لرفعتِه ... فلستُ للقُربِ من عليائه أهلا
يطيب لي فيه تعذيبي ولي ولعٌ ... بكأسِ حتْفي فما أهنا وما أحلى
أجلُّه أن يرى مِثْلي به كلِفًا ... وقد تحمَّلتُ من إصْبر الوَنَى حملا
ومذهبي أنه يسمو ويعظم إنْ ... يبدي لسانيَ في أوصافِه قولا
وكيف يُوصف والأكوانُ قاطبةً ... في ظلِّ أعتابه تستمطرُ الفضلا!

هذا، وقد نجح الدكتور/ محمد فؤاد شاكر- بجمع شِعره (المطبوع والمخطوط) في كتاب بعنوان: «أبو الوفاء الشرقاوي: حياته وآثاره». وقد لُوحِظَ أن قصائد «الشرقاوي» كثيراً ما تبدأ بالغزل الصوفي، أوْ الحِكَم، وقد يدخل مباشرة في موضوع القصيدة؛ الذي هو ابتهال وتوسل ومديح للرسول ﷺ، وهناك قصائد تتعدد فيها الأغراض الشعرية، وبخاصة حين يعمد إلى الإطالة. يقول في قصيدة (دعوتكم):

دعـوتكمُ يـا قـومُ للخيـرِ والهُـدى ... وأنــذرتكم محــذورةَ العثــراتِ
وأصفيتُكم وُدِّي وأخلصتُ نُصحَكُم ... وأدَّيْـتُ مـا أملـتْ علـيَّ تقـاتي
فـإنْ أنـتمُ يـا قـومُ لانـتْ قلـوبكمْ ... غـدوتُم بمنجـاةٍ عـن الحسـرات
وهـل ينـزغُ الشـيطانُ بينـي وبينـكم ... بسـوءٍ فيرمـي جمعَنـا بشَـتات
أفيقـوا إذا كنـتم نيامـاً أوِ افتحـوا ... عيـونَ عقـولٍ فـيكمُ رَمِـدات
تـرَوْن عهـوداً أوثـقَ الله عقـدَها ... ووضّـاحَ نـورٍ قاتـلِ الشُّـبهات
فـإنْ لم تُجيبـوا داعـيَ الحـق فـاذكروا ... إذا مـا أبيـتمُ خـاليَ المَـثُلات!

لقد أوتي «الشرقاوي» حظاً وافراً من الحكمة، التي تجلَّتْ في كثيراً من أشعاره، كقوله في قصيدة (ألاَ إنَّ حزم الرأي):

ألاَ إنَّ حـزْمَ الـرأيِ في الأمـر يُشـكَرُ ... وشَـوْبَ صـفاء الجِـدِّ بـالهزلِ منكـرُ
وإنَّ فعـالَ المـرء عـار وحسـرةٌ ... إذا لم يقوِّمْهـا الهـدى والتبصُّـر
وكـم مـن أيـادٍ لا تـزالُ عرَفتُهـا ... علـى منهجٍ للحـقِّ والفضـلُ يُـذكر
سـأرعى لـه عهـداً وأرقـب ذمـة ... وأنفـي الأذى عـن جانبيـه وأنصـر

....

ومـا كـان نُصْـحي القـومَ إلاَّ لأنَّنـي ... أخـافُ مقـامَ الله واللهُ أكبـر
علمـتُ بـأنِّي دون أدنـاهمُ هـدىً ... ولكننـي خِـلٌّ نصـوحٌ مُـذكِّر
ومـا كنـتُ ممـن يسـتجيب إلى هـوًى ... ولا أنـا مِطْـواعٌ إذا الـنفس تـأمر!

من هو أبو الوفا الشرقاوي؟

إنه العارف بالله/ أحمد أبو الوفاء بن أحمد بن شرقاوي بن مساعد الصدِّيقي الحسيني المالكي الخلوتي (١٢٩٧- ١٣٨١ه ١٨٧٩- ١٩٦١م) ولِدَ بقرية «أولاد حمزة» بنجع حمادي.

ومن حسن حظه؛ أنه تلقى العلوم العربية والشرعية على أيدي كبار علماء

عصره، ممن كانوا يفِدون على ساحة والده، شيخ الطريقة الخلوتية الصوفية، كما تلقى علوم التصوف عن والده، وورث أمر الطريقة، كما وَرِثَ عنه المال والثراء. وقد ألّفَ مفتي الديار المصرية الأسبق الشيخ/ حسنين محمد مخلوف- كتاباً عنهما، بعنوان (صفحات ناصعة من تاريخ الإمامين عَلَمَيْ الإسلام: أحمد بن شرقاوي، وأبو الوفا الشرقاوي).

نكتفي بهذا، ومن أراد معرفة المزيد عن هذا القطب الصوفي العظيم؛ فليذهب إلى تلامذته ومريديه ... فهم يعرفون عنه ما لا يعرفه أمثالنا من البسطاء والمساكين!

صاحب العبرات

(المنفلوطي) كان له نشاط سياسي بارز منذ أن كان طالبًا في الأزهر، فقد هجا (الخديو عباس حلمي) بقصيدته الشهيرة (**قدومٌ .. ولكن لا أقولُ سعيد**) التي نشرتها جريدة الصاعقة (٤ نوفمبر ١٨٩٧م) فقُدِّمَ المنفلوطي للمحاكمة، وحُكِمَ عليه بالسجن عامًا وغرامة قدرها عشرون جنيهًا، ثم خُفِّفَ الحكم إلى ستة أشهر مع الغرامة، وقد قضى العقوبة وأدى الغرامة، ومع هذا ظلَّ يعاني اضطهاد السلطة له، ولمْ يصدر العفو عنه إلاَّ بوساطة من الإمام/ محمد عبده (١٩٠١م). وقد تُرجِمتْ هذه القصيدة إلى الإنجليزية، ونشرتْ في صحيفة التايمز البريطانية.

وقد أوردنا القصيدة كاملة في كتابنا (شعراء في مواجه الطغيان) إذْ يقول فيها:

قدومٌ ولكن لا أقولُ سعيدُ ... ومُلكٌ وإنْ طالَ المدى سيبيدُ

بعدتَ وثغر الناس بالبشرِ باسِمٌ ... وعدتَ وحُزنٌ في الفؤادِ شديدُ

تُذكّرنا رؤياك أيام أُنزِلَت ... علينا خطوبٌ من جُدودِكَ سُودُ

كأني بقصر الملكِ أصبح بائداً ... من الظلمِ والظلمُ المبينُ مُبيدُ

أعباس ترجو أن تكون خليفةً ... كما ودَّ آباءٌ ورامَ جُدودُ

فيا ليتَ دنيانا تزولُ وليتنا ... نكون ببطن الأرض حين تسودُ

أعباسُ لا تحزن على الملك إنه ... تقضى فهذا الحزن ليس يفيد

متى ما أرى الأعلامَ يخفق ظلُّها ... على أرضِ مصرٍ إنّني لسعيدُ

وبعيداً عن الشِّعر السياسي، تتجلى شاعرية المنفلوطي في مختلف الأغراض

الشعرية، فيقول في قصيدته: (وا رحمتاه لمهجتي):

يا أختَ غُصن البانة الميّاسِ	تختال عُجبًا في رياض الآسِ
وكثيرةَ الفتكات في ألحاظها	وشديدة الحجّاب والحرّاس
إنْ تحفظي ودّي فلستُ مضيِّعًا	أوْ تذكري عهدي فلستُ بناسي
أيام أغصان الوصال نواضرٌ	غنّاء في روض من الإيناس
وجْنات حسنكِ روضتي ورياض خدْ	دِك جنتي ورحيق ثغرك كاسي
....	....
وا رحمتاه لمهجتي من غادةٍ	لَمْ تبقِ غيرَ تردد الأنفاس
لمْ آلُ جهدًا في اختلاس فؤادها	حتى أطاعت بعد طول مراس
وعلامَ تبدي تيهها هل شاهدتْ	يوم الوصول شمائلَ العبّاس؟!
ملك يسير السعد حول ركابه	فكأنه من جملة الحرّاس!
وإذا دجتْ ظُلَم الخطوب أنارها	برويّة تحكي ذكاء إياس
وسياسةٍ وفراسةٍ وكياسةٍ	عظُمتْ على الحكماء والسوّاس!

في اليوم الذي تعرض فيه الزعيم/ سعد زغلول لمحاولة اغتيال فاشلة؛ مات «مصطفى لطفي المنفلوطي»! فغطّى الحادث الجلل على نبأ وفاة المنفلوطي، وكان ذلك في سنة ١٩٢٣م فرثاه أحمد شوقي، قائلاً:

اخترتَ يوم الهوْل يوم وداع	ونعاك في عصف الرياح الناعي
هتف النعاة ضحى فأغلق دونهم	جرح الرئيس منافذ الأسماع
مَن مات في فزْع القيامة لم يجد	تشييع أوْ حفاوةَ ساعي
ما ضرَّ لوْ صبرت ركابك ساعةً	كيف الوقوف وقد أهاب الداعي
خلِّ الجنائز عنك لا تحفل بها	ليس الغرور لميت بمتاع
سِر في لواء العبقرية وانتظِم	شتى المواكب فيه والأتباع
واصعد سماء الذِّكر من أسبابها	واظهر بفضلٍ كالنهار مذاع

فجع البيان وأهله بمصوِّرٍ　　لبقٍ بوشي الممتعات صناع
لم يجحد الفصحى ولم يهجم على　　أسلوبها، أوْ يزرِ بالأوضاع
لكن جرى والعصر في مضمارها　　شوطا، فأحرز غاية الإبداع
حر البيان قديمه وجديده　　كالشمس جدة رفعة وشعاع

كان «المنفلوطي» أديباً متعدد المواهب، ومتنوع الثقافات؛ فهو الذي وضع قواعد القصة الحديثة، وجسّد خصائصها على كافة المستويات، وأكسب الفن القصصي شرعية أدبية كان في أشد الحاجة إليها. فقد كان كثير من المثقفين – في بداية القرن العشرين – ينظرون إلى القصة والقصّاص نظرة فيها قدر من الازدراء والرفض. لكنه كتب القصة الجديدة بأسلوب تراثي، ورؤية محافظة، وصنع للقصة العربية – وهو كاتب هاوٍ – ما عجز عنه أيّ كاتب متخصص.

لذلك؛ يقول عنه عباس العقاد: «إنه أحد الذين أدخلوا المعنى والقصد في الإنشاء العربي، بعد أن ذهب منه كل معنى وضلَّ به الكاتبون عن كل قصد .. وكانت الكتابة قبل جيله قوالب محفوظة تنقل في كل رسالة .. وكانت أغراض الكتابة كخُطب المنابر تعاد سنة بعد سنةٍ بنصها ولهجة إلقائها .. وقد اطلعتُ على مجموعة وافية مما كتب المنفلوطي للفن وما كتب بغير كلفة، فكان لكتابته على كلا النمطيْن المتباعديْن طابع الرائد المجاهد في أمثال هذه الرسالة: رسالة التقريب بين حفاوة الإنشاء، ورخصة الخطاب واطراح الكلفة».

وقال عنه العقاد أيضاً: «كانت الوصية الأولى لطالب «الإنشاء» عند أساتذة اللغة العربية بإجماع الآراء: اقرأ كتب (المنفلوطي) واكتب على منواله».

* * *

لقد وقع خِلاف بين «المنفلوطي» و«الرافعي»، وقد كانت لهذا الخِلاف جذور بعيدة ... لكن العجيب في (معركة المنفلوطي والرافعي) أنها لمْ تظهر في مساجلات مكشوفة على صفحات الجرائد، لكنها عاشت في أطراف الكلمات ومن وراء

العبارات المبهمة، ومن بين السطور، كل منهما يلذع الآخر بالكلمة الجارحة .. ويمضي! وقد بدأ المعركة الرافعي مُستتِراً في مقالته الشهيرة «طبقات الشعراء» التي نشرتها مجلة «الثريا» سنة ١٩٠٥ وقد وضع الرافعي نفسه في الطبقة الأولى، بينما وضع المنفلوطي في الطبقة الثالثة، وقال عنه: «قصائد هذا الشَّاعر كشفتْ عن عين سارقة لا بارقة، وليس له معنى ينفرد به ولا هو ممن تشفع لهم الكثرة»!

في تلك الأثناء؛ أفردتْ صحيفة «الظاهر» صفحاتها يومَيْن متتاليَيْن لمقال المنفلوطي في الرد على صاحب مقال «الثريا» وكان مقاله عنيفاً، فقد هاجم الكاتب بشدة، ووصفه بصاحب «الحقد الناري الذي أحرقه فتصاعد منه هذا الدخان الأسود الكثيف».

وقال: «إنَّ هذا المجهول لمَّا ضاق أمره وقصرتْ به خطاه عن مجاراة أدباء العصر، حاول أن يضع نفسه في صف الفحول، وأجرى هذه الموازنة الحمقاء، ووضع نفسه في الطبقة الأولى، وأنه لا يوجد أديب واحد يرى له هذه المنزلة التي أنزل فيها نفسه ..». وقال: «إنه لا يعرف بين الشعراء شاعراً واحداً ينفث على الشّعراء مواهبهم ويلهبهم بذمهم سواه، ذلك إلى ركاكة أسلوبه وغموض بيانه الذي أعرفه له في كل ما وقفتُ عليه من نظمه ونثره ..».

ودهش من أنَّ هذا الكاتب هو من لا يعرف له العامة اسماً ولا يحفظ له الخاصة بيتاً؛ يتطاول إلى شوقي الشاعر الفحل، أوْ الجلوس بجانب «حافظ» صاحب المعاني المعجزات.

وقال: إنها نفثة من نفثات الحقد، ووصفه بأنه فاسد الذوق! طلب المعنى فأعياه، واستهان باللفظ فانتقم لنفسه منه، وعزّ عليه السكوت (فما تكاد تراه صامتا) فهزئ بمضحك التشبيه وبارد التصوير، وشبَّه السماء بالكنيسة، والنجوم بالراهبات، والبدر بالأسقف تارة والمصحف أخرى». وكان هذا هو الرد الخفي للمنفلوطي، فكان موقّعاً بتوقيع رمزي حتى كشف عنه ١٩١٠ عندما أعاد نشر

المقال في الطبعة الأولى لكتابه «النظرات»!

* * *

تلقى «المنفلوطي» تعليمه المبكر في كتَّاب الإمام/ جلال الدين السيوطي، وأتمَّ حفظ القرآن الكريم في الحادية عشرة من عمره، ثمَّ التحق بالأزهر، ومكث فيه عشر سنوات يدرس علوم الدين واللغة، وانكبَّ على مطالعة كتب الأدب باختيار ذاتي يستعيض به عن عدم حماسته للعلوم الأزهرية. اتصل بالإمام محمد عبده، وسعد زغلول، وعلي يوسف (صاحب المؤيد) فكان لهم أثر واضح في تكوينه الثقافي. وقد عُرِضَ عليه العمل في سكرتارية السراي (القصر الملكي) ومنحه لقب (بك) شريطة تغيير زيه (الإسلامي) لكنه لمْ يوافق!

عاد إلى مسقط رأسه بعد وفاة محمد عبده، فكان يعقد الندوات الأدبية في منزله بمنفلوط يوميًا من الثامنة والنصف صباحًا حتى الثانية عشرة ظهرًا، ومن الخامسة حتى ساعة متأخرة من الليل، كما ظلَّ يراسل الشيخ علي يوسف في تحرير (المؤيد).

ولازالت أسرة المنفلوطي تحيي ذِكراه إلى يومنا هذا، ففي ذكراه كتب الشاعر القبطي/ رياض سوريال- قصيدة، قال فيها:

العلم والشرف الرفيع تجمَّعا ... في خير مَن وهَبَ البيان فأبدعا

هذا الذي يشدو الزمان بفضله ... فإلى التراحم والمحبة قد دعا

تتعطر الدنيا بذكر خصاله ... وترى به زهر الفضيلة أينعا

هذا الذي هزَّ البرِيَّة صيتُه ... قد حاز في الأدب المكان الأرفعا

تتحدث الدنيا بسحر بيانه ... وتراه نابغة الزمان المبدعا

للمنفلوطي عدد من المؤلفات المميزة، منها: «النظرات» وهي مجموعة مقالاته، و«مختارات المنفلوطي»، و«العبرات» وهي عبارة عن مجموعة قصص. وله عدد من الروايات المترجمة عن الفرنسية، منها: «ماجدولين»، و«في سبيل

التاج»، و«الشاعر» و«الفضيلة». وغيرها!

هذا؛ وقد احتوى ديوان المنفلوطي على ٣٠ قصيدة، تضمنت ٦٥٠ بيتًا، نهج فيها نهج العروض الخليلي، والقافية الموحدة، ولكنه اصطنع لنفسه أسلوبًا فنيًا متحررًا من المحسنات، بات علامة مميزة لصاحبه. وقد تعاطف مع قضايا مجتمعه، ومالت قصائده إلى معالجة المشكلات الأخلاقية، وقضايا تخلف الأمة العربية والإسلامية، داعيًا إلى الإصلاح.

إنَّ الحقبة التاريخية التي عاش فيها المنفلوطي (١٨٧٦ – ١٩٢٤م) ظهر فيها الشِّعر الوطني، أوْ شِعر المقاومة والدعوة إلى الحرية، فانبرى الشعراء في مقاومة الاحتلال الإنجليزي واستبداد الخديوية، ونظم الشُّعراء في مهاجمة الاستعمار واللورد كرومر، ونظم المنفلوطي كثيراً من القصائد الوطنية في تلك الحقبة، من ذلك قصيدته الطويلة (تحرير مصر) التي نُشِرتْ بتوقيع «عدو الاحتلال» وكانت أولى قصائده السياسية، ووزعتْ بوصفها منشورًا سريًا، ثم نُشِرتْ في صحيفة المشير (٣٠ من يوليو ١٨٩٧م) يقول فيها:

ألاَ رايةٌ للعدل في مصرَ تَخفقُ ... لعلَّ مساعي دولةِ الظلم تُخفِقُ
ألاَ صدمةٌ للجَور توقف سيره ... فيجبر ذاك الكسر والفتق يُرتَق
أتَوْنا لتأييد الأمير فأصبح ال ... أمير بلا أمر فكيف نصدّق؟!!
أيؤمل إصلاحٌ لنا وأميرنا ... بغُلِّ نفوذ الاحتلال موثَّق
إذا رام أمرًا هم يريدون غيرَه ... يقرّ بما راموه قَسْرًا وينطق
ذُهِلنا فما ندري أوالي أمورنا ... «بلندنَ» أمْ في مصر كيف نفرّق؟!
أيُرضيك يا مولايَ أنك كلّما ... تروم اتساعًا في نفوذك ضيقوا
فوالله إنْ لم تدرك الأمر واسعًا ... لأُرغمتَ عن إدراكه وهو ضيّق
ويا وزراءَ الصّفر والبيض يقظةً ... لما بكمُ من أشنع العار يُلصَق
فما كان أغناكم عن المنصب الذي ... كساكم ثيابَ الذل والله يرزق!

صاحب (المؤيد)

يقول جورجي زيدان عن الشيخ (علي يوسف): «إنه كان مثالاً واضحاً في الاجتهاد والثبات، لأنه نشأ عصامياً، وارتقى بجده وثباته من فقيرٍ أزهري إلى كبيرٍ من كبار الأمة، فتقرب من الخديوِ؛ فأصبح وجيهاً كبيراً يزوره الوزراء والأمراء، ويتملقه طُلاّب الوساطة»!

وقال عنه أحمد شفيق باشا في مذكراته: «بقيتْ الصداقة بين الخديوِ عباس وعلي يوسف تنمو على الأيام، حتى أصبح الشيخ جليس الأمير ومستشاره وحافظ أسراره».

وقال سليم سركيس –رفيق علي يوسف في المؤيد-: «لا يعرف حرفاً واحداً من لغة أجنبية، ومع ذلك فإنَّ من يقرأ مقالاته لا يصدِّق أنه هو الذي كتبها، لأنها لا تختلف شيئاً عما يكتبه لطفي السيد ويعقوب صروف، وهما قد برعا في اللغات. وللشيخ علي يوسف مزية مدهشة عرفتها في كل هذه السنوات؛ هي أنه أقدر كاتب على الاقتباس، وله ذاكرة ليس هناك أقوى منها في استيعاب ما يعرض لها. ويدهشني منه مقدرته النادرة على الكتابة في أيّ موضوع خطير مهما كانت الظروف المحيطة به».

وقال عنه العقَّاد: «الصحفيون كثيرون، ولكننا إذا نادينا أسماءهم من الذاكرة، لمْ يكن منهم مَن هو أسرع تلبية للنداء العاجل من اسم «علي يوسف» صاحب المؤيد، إنَّه كان يصنع صناعته الصحفية ليتعلمها الناس منه، ولمْ يكن يتعلم على أساتذتها في الشرق والغرب.

وإذا أردنا أن نجمع لهذه الشخصية النادرة مفتاحها في كلمة واحدة، فهي كلمة (**العصامية**) حيث تصل العصامية أحياناً إلى حدود المغامرة. وهذه القيمة؛ قيمة العصامي الذي بلغ في المكانة الاجتماعية مبلغ ذوي الرأي، هيَ هي التي جعلت لكتابته السياسية صبغة كصبغة اللغة الدبلوماسية بين وزراء الخارجية والسفراء، وهيَ هي التي جعلته يعتزل الصحافة بعد أن أُسنِدتْ إليه وظيفة (**سيد السادات**) أوْ شيخ الطريقة!

وقال العقَّاد أيضاً: «في فترة من تاريخ ثقافتنا، وفى أيام لا تجاوز أيام الحرب الأولى، كان السائل يسأل: مَن أكتب الكُتَّاب في لغتنا العربية؟ فيسمع الجواب من الكثرة الغالبة بين قراء تلك الفترة: إنهما اثنان: الشيخ علي يوسف، والشيخ مصطفى لطفي المنفلوطي»!

عندما توفى (**صاحب المؤيد**) رثاه شاعر النيل، فقال:

أقـامَ فينـا عصـامياً فعلَّمنـا — معنى الثباتِ ومعنى الجِدِّ والدأبِ
وراح عنـا ولْم تبلـغ عزائمنـا — مدى منهاها، ولْم تقرب من الأَرَبِ!

كما رثاه الشاعر/ البيلي علي البشبيشي- بقصيدة شجية، بعنوان (شيخ الصحافة) قال فيها:

وفّى الجهادَ وسار للجنّاتِ — رَبُّ المؤيد سيِّدُ الساداتِ
فاستنزلي يا مصرُ آخرَ دمعةٍ — حرّى عليه وصعِّدي الزفرات
جمع الأفاضل والأماجد حوله — فأمدَّهم بأطايب الثَّمرات
قد كان مدرسةَ الكنانة للألى — خرجوا عليه فعقَّبوا العقبات!
مات الذي يا مصرُ قد كانت له — فيك الأيادي تُنبتُ الجنّات
شيخُ الصَّحافة والسياسة في الذرى — ومخفّفُ الأنّات والويلات
هل ناء بالدنيا أم الدنيا به — ناءت فراح لداره الجنّات؟!

ينتمي الشيخ «علي يوسف» إلى عائلة (المؤيد) بجرجا، وهي إحدى العائلات العريقة، نشأ متديِّناً كريماً، موصوفاً بالمروءة، مسارعاً في الخيرات ... وقد حصل «الشيخ» على رتبة البكوية، ثمَّ الباشوية. وله ديوان (نسمة السحر) الذي حوى نظمه ونثره معاً. وكانت أغلب قصائده في المدح الذي اختص به الخديو توفيق وبعض وجهاء عصره. أحياناً يميل إلى المبالغة في وصف ممدوحيه، كما كتب في الشوق إلى مزارات الأولياء والصالحين. وله أشعار في الغزل؛ الذي يجيء تقليدًا لنماذج شعرية كما في قصيدة (مَنْ مجيري؟)

مَن مجيري من غزالٍ قد نوى ... قتْلَتي في حبِّه من غير ذنبِ؟
حاربتْ قلبي ظُبا ألحاظه ... واستثارت في الحشا نيران حرب
بَشِّروها أن حبّي ساكنٌ ... في حشا قلبي، وقلبي محض حبّي
دبِّري خوفًا عليه أمرَه ... وافعلي ما تشتهي؛ فاللّه حسبي!
راقبي مولاكِ يومي واعلمي ... إنّني لا بدَّ أن أشكو لربّي

أوْ كما في قصيدة (طول البعد):

يأبى مشوقُك طولَ بعدك والزان بذا قضى ... والله يعلم أنه لا شيءَ يمنعُ ما قضا
ولقد تعوّدني الزمانُ بعادةٍ لن تُرتضى ... فلكم أراه مُعاذري فيمن أحبُّ بلا اقتضا
ولأنت تعلم أنه مذ سيفُ هجْرك قد أضا ... لمْ أقضِ ليلة هاجعٍ إلاَّ على جمر الغضا

على الرغم من الجاه والحسب، والنسب الرفيع الذي كان يحظى به الشيخ/ علي يوسف؛ إلاَّ أنه كان كثير الشكوى، استمع إليه في قصيدة (زماني وأهله):

زمانيَ للحرِّ العميد عنيدُ ... وسهمُ رماةِ الزور فيه سديدُ
سعى أهله في الزور والإفك والخنا ... وكلٌّ عن البهتان ليس يحيد
فإنْ تبغِ فيه الحقَّ لمْ ترَ شاهدًا ... وإنْ تبغِ غيرَ الحقِّ قام شهودا!

عميد الوحدة الوطنية

إنـه السياسـي القبطـي، والمناضـل الوفـدي؛ الـذي لمْ تشـهد الحيـاة المصـرية داعيـةً للتعـايش بـين أتبـاع الأديـان مثلـه أبداً؛ فقد صـار مضـرب الأمثـال في السـماحة والمـودة بـين المسـلمين والأقباط، حتى ظنَّه الجميع مُسلِماً من فرط دفاعه عن الإسلام، وكثرة استشهاده بآيـات القـرآن الكـريم، والحـديث الشـريف؛ في سـائر خُطَبـه ومرافعاته!

إنه «المحامي البليغ» الذي كان يُهنِّئ المسلمين والمسيحيين معـاً بالأعياد الدينية، فيقول: «فما من عيدٍ للمسلمين أوْ للمسيحيين من المصريين إلاَّ وتُفتح له الدور، مع المُعَيِّدين، لا عن مجاملةٍ، بلْ عن مؤاخاةٍ ومجاورةٍ ومزاملة، وأمَّا من ناحية الدِّين، أفتجمعنا في الوطن محبة الأقاليم، ولا تجمعنا في الله الرحمن الرحيم؟ أ. نكون إخوةً في الوطن، وفي إنسانية هذا العالم الأصغر، ولا نكـون إخـوةً في الله، والله أكبر..؟»!

بلْ استمع إلى كلمته التي ألقاها عام ١٩٤٣م، بمناسبة الذكرى الألفية للجـامع الأزهر، قال: «لعلَّ أصدق ما يُهَنَّأ به الأزهر الشريف في عيـده الألفـي؛ أنَّ رسـالته التي صمدتْ للزمان ألفَ سنةٍ، إنْ هي إلاَّ رسـالة حـقٍ لـن يطويهـا، بـل سيُنَمِّيها تعاقُبُ آلافٍ أخرى من السنين، وإذا كان لي- كمصـري لـه عقيدتـه الوطنيـة- أنْ أفخر بالأزهر الشريف معهداً مصرياً؛ فإنَّ لي كرجلٍ له عقيدته الروحية أن أُشيدَ بـه معهداً دينياً، ذلك لأنَّ الله -الذي شاء للناس أن يختلفوا على الأديان- لـنْ يسـمح

لهم بالاختلاف على الدِّين. ولقد أدَّى الأزهرُ رسالةً للدين والدنيا معاً، مُدرِكاً قبل غيره أنَّ العلم البشري لن يُكْتَبَ له البقاءُ، إلاَّ إذا اقترنتْ فيه المادة الخامدة بالروح الخالدة»!

* * *

كان بيته أشبه ما يكون بواحدٍ من مقار «حزب الوفد» الذي يؤمه الأعضاءُ ليلاً ونهاراً .. وكان مدرسةً لتعليم الوطنية، ومسرحاً للنضال والكفاح ضد الاحتلال البريطاني. كما أنه ليس أمراً يسيراً العثورُ في التاريخ الحديث للأقباط على شخصية تعكس الدور الوطني في الحياة السياسية المصرية أفضل منه؛ لِمَا تميز به من قدرة وتأثير.

في سنة ١٩٣٩م؛ دعا إلى ضرورة تكوين كيانٍ يضم نسيج العرب، وكأنه كان يتنبَّأ بمولد الجامعة العربية! فقال: «المصريون عرب .. والوحدة العربية من أعظم الأركان، التي يجب أن تقوم عليها النهضة الحديثة، في الشرق العربي .. إنها حقيقة قائمة وموجودة، ولكنها في حاجة إلى تنظيم لتصير أوطاننا جامعة وطنية واحدة»!

وقال عن تزامل العروبة والإسلام في تشكيل هوية الشرق، بكل أبنائه ودياناته: «نحن مسلمون وطناً، ونصارى دِيناً، اللهمَّ اجعلنا نحن نصارى لك، وللوطن مسلمين»!

عقب الإفراج عنه من السجن عام ١٩٤٤م؛ عُيِّن وزيراً للمالية: «فألقى خطبةً رائعةً في قاعة الوزارة، بأسلوبٍ فيه ابتهالٌ مُخلِصٌ لله، تحدَّث فيه عن الوحدة الوطنية، بين المسلمين والأقباط، وأعاد تأكيدها. وكان الإمام/ المراغي-شيخ الأزهر آنذاك- موجوداً هناك، فعلَّق على ما اتَّسم به الخطاب من بلاغةٍ، بأنه: حديثٌ شبيه بكلامِ المتصوِّفة»!

لعلَّ أبلغ دليل على تغلغل الثقافة الإسلامية في فؤاده؛ أنه ذهب للدراسة بالأزهر الشريف بمحض إرادته، وهو صغير السن؛ فنال قِسطاً كبيراً، من العلوم

الإسلامية، وكان من أثر هذه التنشئة الأزهرية أن حفظ القرآن الكريم، وبسبب ذلك أتقن اللغةَ العربية، فكان من بُلغائها.

إنه (مكرم عبيد) الذي وصفه الدكتور/ محجوب ثابت، فقال: إنه خطيب يؤثِّر بالعاطفة كالموسيقى، وهو صديق مُخلص، وعدو جبَّار، وإنه مَلاكٌ في صداقته، شيطانٌ في خصومته»!

وفي مقدمة كتاب (المكرميات) وصفه الأستاذ/ عباس العقَّاد، قائلاً: «إنه مزيجُ اهتماماتٍ متنوعة، ونشاطاتٍ مختلفة، مع موهبةٍ في الأدب والسياسة».

* * *

لقد برزت -أثناء ثورة ١٩١٩م وما بعدها- شخصية الثائر الوطني «مكرم عبيد» الذي تمتَّع بشخصية عظيمة بين المسلمين والأقباط على السواء، ولمْ يُتَّهَم قط بالعمل على أساس مصالح الأقلية التي انبثق منها، بلْ كان على العكس يقتبس من القرآن في أحاديثه ومرافعاته القانونية، حتى قيل: إنَّ مكرم عبيد، وواصف غالي، من أكثر السياسيين الأقباط نجاحاً، ويميلان في سلوكهما السياسي إلى التصرف بحماس يفوق حماس زملائهم المسلمين!

لعلَّ من فطنة الزعيم/ سعد باشا زغلول، وكياسته؛ إعجابه بعبقرية الشاب القبطي «مكرم عبيد» لإخلاصه وكفاءته النادرة، وما يمكن أن يُنتَظر من توظيف قدراته وملكاته في خدمة الوطن؛ لذلك قرَّبه إليه، حتى أسماه «ابن سعد»؛ إذْ لمْ يكن له ولد! فجعله مبعوثاً خاصاً له أثناء المفاوضات في لندن؛ فأبلى بلاءً حسناً، واستطاع التأثير في الرأي العام البريطاني، والكتابة في الصحافة هناك عن عدالة القضية المصرية، وضرورة تحقيق الاستقلال!

يمكن القول: إنَّ ثورة ١٩١٩م تمثِّل بداية العصر الذهبي لمشاركة الأقباط في الحياة السياسية تحت رايات الوحدة الوطنية، حيث برز فيها دور (مكرم عبيد)

الوطني، الذي من الممكن أن يتكرر إذا ما أمكن توفير مناخ ديمقراطي مناسب للذي شهدته مصر في ثورة ١٩١٩م!

الملاحظ أنه بعد حدوث الانشقاقات في حزب الوفد أيام سعد زغلول؛ فإنَّ ما فقده الحزب بخروج الثلاثي الوطني (عدلي، ولطفي السيد، ومحمد محمود) فقد كسبه الوفد في الأعضاء الجدد، وعلى رأسهم المحامي الشاب «مكرم عبيد» الذي صعد نجمه، فأصبح سكرتير الحزب، وهو المنصب الذي شغله طوال عقدين من الزمان تقريباً.

في كتاب «الأقباط في السياسة المصرية» يقول الدكتور/ مصطفى الفقي: إنَّ مكرم عبيد هو الوحيد من بين السياسيين الأقباط الذي عبر حاجز الأقلية، ليصبح شخصية عامة متمتعاً بشعبية واسعة بين المسلمين قبل الأقباط، كما كان أول قبطي يتولى مسئولية رئيسية في حزب الأغلبية، فقد نجح في أن يصنع جسوراً قوية مع الرأي العام المصري لسنوات طويلة. وعلى الرغم من أنه لم يصبح رئيساً لوزراء مصر، فإنَّ إسهامه في السياسة المصرية الرسمية أعظم من إسهام كثيرين تولوا مسئولية ذلك المنصب!

ويقول عنه أيضاً: طوال تاريخ مكرم عبيد؛ فإنه لم يحد عن جوهر مواقفه الوطنية، ولا عن الخط الوطني السياسي الذي كان يلتزمه أثناء توليه أمانة حزب الوفد، فلقد شارك السعديين والأحرار في وزارة ١٩٤٤م، ولكنه ما لبث في عام ١٩٤٦م أن خرج من الوزارة ومن الوفد الرسمي الذي كان قد شُكّل لمفاوضة الإنجليز، رافضاً ما رضيَ به آخرون من مساومات تتعلق بالجلاء والدفاع المشترك. كما يُذْكَر لمكرم عبيد أنه كان من أكثر قيادات الوفد تفهماً للوضع العربي لمصر منذ الثلاثينيات. كما أنه كان يبز آخرين في إدراك أهمية المكوِّن الإسلامي في الوطنية المصرية!

* * *

استطاع «مكرم عبيد» بمواهبه الخطابية والبيانية والفقهية أن يظفر بمركز الصدارة، وأن يحتل مكان الطليعة في مهنة المحاماة، وأن يفوز مرةً تلو الأخرى بمنصب (نقيب المحامين) حتى لم يتيسّر إقصاؤه عن كرسي النقيب إلاَّ بإجراءات التزييف والتزوير!

والواقع أن خبرته كمحامٍ ساعدته كثيراً كسياسي، لأنَّ المحاماة كمهنة كانت امتداداً لنشاطه السياسي ... فقد كان محامياً ناجحاً بكل المقاييس، ومازالت أصداء مرافعاته حاضرةً في تاريخ المحاماة بمصر. وقد كان يعتمد في دفاعه على التحليل المنطقي لدوافع الجريمة، ويتصور نفسه في موضع المتهم أمام المحكمة!

مِن هنا؛ قام مكرم عبيد بالدفاع عن «عباس العقَّاد» الذي كان متهماً بالعيْب في الذات الملكية، من فوق منبر البرلمان، فكان مما قاله في المحكمة: «إنَّ العقاد الكاتب، والعقاد النائب في البرلمان ليس مُداناً بالعيْب في ذات صاحب الجلالة، وإنه قد تلقَّى معاملةً سيئة أضرَّت بصحتِهِ دون أن يُستجاب لشكواه! ثمَّ واصل مرافعته في المحكمة، فقارن بين الموقف الذي يواجهه العقاد، وما واجهه رسول الله ﷺ من عَنَت قومه واستبدادهم!

لا جَرَمَ أنَّ دفاع مكرم عبيد في محاكمة العقاد؛ كان من أروع وأشهر المرافعات في تاريخ المحاكم المصرية!

مَنْ هو «مكرم عبيد»؟

إنه حفيد المعلِّم/ جرجس الجوهري -الكاتب الأول في ديوان علي بك الكبير- وقد عملتْ أسرته بالمقاولات والإنشاءات الهندسية، فأنشأتْ خط السكة الحديد بين نجع حمادي والأقصر، وعند إتمام هذا المشروع؛ قلَّد الوالي والده «الوسام المجيد» وأنعم عليه بلقب «الباكوية»!

وُلِد «مكرم عبيد» في أكتوبر ١٨٨٩م بقرية (نقادة) التي كانت تابعة –آنذاك– لمركز قوص!

ثم سافر إلى (لندن) سنة ١٩٠٥م وهو في السادسة عشرة من عمره، فكان واحداً من أبرز الطلاَّب الذين درسوا في (النيو كولِدج) بأكسفورد، حتى قال عنه عميدها: «إنَّ الكلية لمْ تعرف من قبل طالباً أصغر في العمر من «وليم مكرم عبيد». كما امتدح العميد تقدمه الرائع في اللغة الإنجليزية، فداعبه قائلاً: إنه سوف يسلك نفس الطريق الذي سلكه وليم شكسبير، ويتبع نفس خطواته!

كان من عادة «مكرم عبيد باشا» ألاَّ يذهب إلى عمله حتى يستمتع بصوت القارئ الكبير/ عبد الباسط عبد الصمد. ويتفاءل بقراءته؛ لدرجة أنه حضر له أمسية دينية، فكتب في اليوم التالي مقالة بجريدة الفتح، بعنوان «صاحب الحنجرة الذهبية»! وإذا عاد إلى منزله دون ان تقضى مشاويره؛ يبرر ذلك قائلاً: يبدو أنَّ الشيخ/ عبد الباسط– نسيَ أنْ يدعُ اللهَ لنا في هذا اليوم!

عندما تُوُفِّيَ مكرم عبيد في ٥ يونيو ١٩٦١م، ألقى أنور السادات –الذي كان وقتها رئيساً لمجلس النواب– خطاباً في تأبينه بالكاتدرائية المرقسية بالعبَّاسية، فأشاد بنضاله الوطني، من أجل الاستقلال، وقال: «إنَّ أبطال ١٩٥٢م يطمحون أن يمضوا على طريق النضال، الذي بدأه أبطال ١٩١٩م، وضحُّوا من أجله»!

هذه صفحة من كتاب، وفصل من فصول حياة المناضل الوطني/ مكرم عبيد– حتى لا نعجب عندما نقرأ ما نشرته جريدة الأهرام أثناء ثورة ١٩١٩م بأنه «تمَّ إطلاق اسم زعيم قبطي على مولودٍ مسلم، وكان ذلك من أكثر مظاهر الامتزاج الاجتماعي في مصر، «فقد رُزِق حضرة كامل أفندي عثمان، من أعيان أبو قرقاص المُسلمين بالمنيا، مولوداً ذَكراً أسماه «مكرم عبيد» تقديراً لجهود المناضل الوطني/ مكرم عبيد، وتمكيناً لأواصر الإخاء الوطني»!

فسلامٌ على الأوفياء والصادقين!

الأعمى الذي رأى كل شيء

في كتابه «مستقبل الثقافة في مصر» يقول طه حسين: «الرجل الذليل المَهين؛ لا يستطيع أن ينتج إلاَّ ذُلاًّ وهوانا، والرجل الذي نشأ على الخضوع والاستعباد لا يمكن أنْ ينتج حرية واستقلالاً .. وإذا كان هناك شر يجب أن نحمي منه أجيال الشباب، فهو هذا العِلم الكاذب؛ الذي يكتفي بظواهر الأشياء، ولا يتعمد حقائقها، فلننظر كيف نردُّ عن أجيال الشباب هذا الشر. وليس إلى ذلك من سبيلٍ فيما أرى إلاَّ أن نقيم ثقافة الشباب على أساس متين. فالدعامة الصحيحة للحرية الصحيحة؛ إنما هي التعليم؛ الذي يُشعِر الفردَ بواجبه وحقه، وبواجبات نُظرائه وحقوقهم. والذي يشيع في نفس الفرد هذا الشعور المدني الشريف، شعور التضامن الاجتماعي، فإذا تعلم أفراد الشعب؛ عرفوا ما لهم من حقوق في حياتهم الداخلية، فلمْ يسمحوا لِدولةٍ مهما تكن أن تظلم مصر أوْ أن تستذلّها. مِن هنا يجب تعليم الشعب كل الشعب، ويجب تعليم الشعب كل التعليم»!

أعتقد أنَّ هذه الكلمات بمثابة «مفتاح شخصية» طه حسين! فهو يكره الذلّ والهوان، ويرفض الخضوع والاستعباد، ولا يكتفي بظواهر الأشياء، إنما يبحث عما وراءها، وينشد الحرية والاستقلال، ويدعو إلى التعليم، وبلوغ غاياته القصوى!

لذلك، عندما مات؛ رثاه الشاعر/ نزار قباني بقصيدة مؤثِّرة، قال فيها:

آه يـا سـيدي الـذي جعـل الليـلَ نهـــاراً، والأرضَ كالمهرجـــانِ!
ارمِ نظّارتيْـــكَ كـــيْ أتملَّـــى كيــف تــبلى شــواطئ المرجــان!
ارمِ نظّارتيْـكَ، مـا أنـتَ أعمـى إنمـــا نحـــن جوقـــة العميـــان!

وقد نجح الأديب اللبناني/ مارون عبود- في رسم صورة تحليلية لطه حسين، فقال ضمن ما قال: «لقد شبع الأستاذُ الكبير والأديبُ العظيم من الثناء حتى انبشم، وارتوى وما يزال ظمآن؛ لأنَّ الأدباء لا يرتوون من الثناء ولوْ عبّوه من نهر الفرات .. وإذا فاته المدح، فلا بأس بالقدح، المهم أنْ يُذكَر! وإلاَّ فأيّ داعٍ لقولهِ حين سئل: أأنتَ قلتَ إنَّ زعامة الأدب انتقلت إلى بيروت؟ قال: لا، بلْ قلتُ توشك أنْ تنتقل. وهكذا نراه في جميع مواقفه لا ينسجم مع نفسه، كالجندب تقبض عليه، فيفر تاركاً لك فخذه! وسمعته في مواقف كثيرة يقول: أردتُ أن أغيظ المصريين .. وأردتُ أن أغيظ الشباب. وقد رأيناه يثور على «إمارة» شوقي، ورضيَ عن «عمادته» هو!

طه حسين (١٨٨٩- ١٩٧٣م) تعرض في حياته لكثيرٍ من الحملات التي لمْ يخلُ بعضها من تحامل وعنف، لكنه ظلَّ صامداً أمامها، ينهى نفسه عن اتخاذ موقف الدفاع، مؤثِراً الصمت البليغ! فمثلاً، كان زكي مبارك يعتقد أنَّ طه حسين هو عدوه الأول؛ لأنه يقف في وجه تعيينه بالجامعة! فقال عنه في مقدمة ديوانه (ألحان الخلود): لقد ظنَّ طه حسين أنه انتزع اللقمة من فم أطفالي، فليعلم حضرته أنَّ أطفالي لوْ جاعوا؛ لشويتُ طه حسين وأطعمتهم من لحمه، إنْ جاز أنْ أُقدِّم لأطفالي لحوم الكلاب! ولكنهم لنْ يجوعوا مادامت أرزاقهم بيد الله».

بين «طه حسين» و«المازني» وقعتْ معارك كثيرة، وسخريات لاذعة؛ منذ هاجم المازني غريمه طه حسين، ووصفه بما وصف به شعراء الجاهلية، وقال فيه: إنَّ الشك في وجود شخصية طه حسين سيكون يوماً أشبه بشك طه حسين في شخصية امرئ القيس وعنترة، وذلك حين يقال: (الشيخ طه حسين، والأستاذ طه

حسين، والدكتور طه حسين)! وحين ترى صورته (بالعمامة، والطربوش، والقبعة) وإنَّ الناس سوف يقولون: إنَّ هناك شخصيات ثلاث تحمل اسماً واحداً، ومن هنا يسري الشك في الأسماء جميعاً!

أيضاً؛ حينما رفض طه حسين تجديد عقد «زكي مبارك»، وفَصَلَه من الجامعة، هاجم (المازني) طه حسين بشدة، وقال: لوْ كنتُ أقول الشِّعر في هذه الأيام لرثيتُ طه حسين، فإنه يُخيَّلُ إليّ أنه قد مات «طه» الذي عرفته وأحببته وأكبرته، وجاء غيره الذي أُنكِره!

ويقول «توفيق الحكيم» عن معركته مع طه حسين بعد انتهائها: إنَّ الخصومة بيني وبين طه حسين كانت خصومة أدبية صرف، ولكن الدكتور طه أراد أن يُقحِم فيها عنصر السياسة ليُظهِرني في صورة (يهوذا) ويظهر نفسه في صورة المسيح!

كان «طه حسين» ثائراً، لمْ تهدأ ثورته يوماً واحداً في حياته، ففي شبابه انتقد الأزهر وشيوخه بعنف، وهاجم مناهجه التعليمية الجامدة، وطريقة التدريس العقيمة؛ التي ران عليها الصدأ. وخاض معارك عديدة مع أدباء عصره؛ فهاجم حافظ وشوقي، كما هاجم الرافعي والمنفلوطي، وأعلن الحرب بضراوة على أحمد أمين، وغيرهم!

من أشهر المعارك التي خاضها «العميد»؛ معركة (الوحدة العربية) مع عبد الوهاب عزام، ومحب الدين الخطيب. ومعركة (العروبة والمصرية) ضد ساطع الحصري. ومعركة (كتابة السيرة بين التاريخ والأسطورة) بينه وبين الدكتور هيكل. ومعارك (الأسلوب والمضمون) الذي خاضها مع مصطفى الرافعي، وسلامة موسى، وشكيب أرسلان، وخليل السكاكيني، ومحمد كُرد علي. وغيرها من المعارك الفكرية!

لقد كان يعشق الشهرة والدويّ الإعلامي، وتحريك المياه الراكدة؛ فكل كتاب

كان يصدره؛ يشعل الحياة الثقافية، ويثير جدلاً لا يتوقف حتى بعد مماته؛ مثل كتاب «الشِّعر الجاهلي»، وكتاب «مستقبل الثقافة في مصر»، و«الفتنة الكبرى»، و«عليّ وبنوه» وغيرها من الكتب التي قادته إلى المحاكم!

***

أمّا عن علاقته بعباس العقّاد؛ فقد كانت بينهما «حرباً باردة» أوْ «خفيّة»، فلمْ تشتعل بينهما خصومات عنيفة كالتي كانت بين أترابهما، بلْ إنَّ كتب الأدب تخبرنا أنه جَرَتْ بينهما مجاملات كثيرة، منها: أن «طه حسين» أهدى قصته (دعاء الكروان) إلى العقاد صاحب ديوان (هدية الكروان)! كما أن «العقاد» خالف رأي حزبه «الوفد»، ودافع عن طه حسين أثناء محنته التي أعقبت صدور كتابه (الشعر الجاهلي)!

يبدو أنَّ «طه حسين» كان يخشى قلم العقاد، فلم يعرض له إلاَّ لماماً، وعلى حذرٍ شديد! حتى عندما انضمَّ طه حسين إلى حزب الوفد، كان يخشى غضب العقاد وسخطه؛ لذلك أسرع وأعلن مبايعة العقاد أميراً للشِّعر!

ذات مرة؛ كتب طه حسين، يقول: «لقد هاجمتُ العقاد في غير موطن من مواطن الخصومة؛ خاصمته في السياسة، وخاصمته في الأدب، وخاصمته في السياسة والأدب معاً، ولكن هذه الخصومة لمْ تغض من مقدار العقاد في نفسي .. وما أظنُّ أن بين أتراب العقاد ومعاصريه من يُقدّره مثل ما أُقدّره أنا وأُكبِره، وليس يعنيني أن يكون رأي العقاد فيّ كرأيي فيه، وإنما الذي يعنيني أنْ أقول الحق وإنْ كرهه الكارهون، وإنْ كرهه العقاد نفسه. والذين عاصروا خصومات العقاد يذكرون من غير شك أني أثنيتُ على أدبه في جريدة السياسة، حيث كانت الخصومة بين «الوفد» و«الدستوريين» كأعنف ما تكون الخصومات، وقد كانت الحرب سِجالاً بيني وبينه، ولمْ يمنعه ذلك من أن يقوم قيام الرجل الكريم في مجلس النواب يدافع عني حين كان الوفديون جميعاً عليّ حرباً، ولا أعرف أن الخصومة

بين العقاد وبيني قد انقطعت، فمادام كلانا يكتب فالخصومة بيننا ممكنـة، ولكننـا قوم نعرف كيف نختصِم دون أن تفسد الخصومة رأي واحد منا في صاحبه».

هذا؛ ونلمس علاقة المودة والصفاء بين طه حسين والعقاد، فبمجـرد أن سـمع طه بموت العقاد؛ أسرع بكتابة مقالة في جريدة الجمهورية بتاريخ ١٣/ ٣/ ١٩٦٤م قال فيها «ما أشدّ ما كان بينك وبيني من خصام في السياسة أحياناً، وفي الأدب أحياناً، وما أحلى ما كان بينك وبيني على ذلك من مودة وإخاء .. أنـت أيهـا الأخ الكريم، والصديق الحميم، والزميل العزيز، ملأتَ الدنيا حقاً وشغلتَ الناس حقاً، وستشغلهم بعد وفاتك أكثر مما شغلتهم في حياتك ..».

كان طه حسين طموحاً إلى أبعد مدى، فلمْ يكتـفِ (الكفيـف، الفقيـر) بتعليمـه بكُتَّاب القرية؛ فتوجَّه إلى القاهرة؛ ليلتحـق بـالأزهر، ولمْ يكتـفِ بهـذا؛ بـلْ التحـق بالجامعة الأهلية (القاهرة) ومنها سافر إلى فرنسا لينال الدكتوراه من «السوربون»! وتعلّم الفرنسية وأتقنها، وهناك تزوج بأجمل جميلات باريس! وقـد عبَّـر عـن هـذه المعاني الشاعر السوداني/ حسـن زيـادة- في قصـيدته عـن «طـه حسـين» بعنـوان (رهين المحبسين العبقري) تشبيهاً بأبي العلاء المعري، يقول:

لَعَمْـرُكَ مـا «كَطـه» اليـوم فـردُ	ملـمٌّ بالقـديم ومـا يجـدُّ
فتًـى مـذ شـبَّ أولـع بالمعـالي	وبـالأدب الرصـين ولا يحـدّ
تَفـتَّح وهْـو طفـلٌ عـن نبـوغٍ	تقـاعس عنـه أقـرانٌ ونِـدّ
ولمْ تقعـد بـه عـن نَيْـل قَصْـدٍ	مقـاديرٌ تعـوقٍ ولا تهـدّ
ترسَّـم في المعـالي خطْـوَ نـدٍّ	كـلا الاثنـين في التـاريخ فـرد
«رهـينُ المحبسـيْن» لـه مثـالٌ	وعـزَّ نظيـره في الـدهر عـدّ
أتـى للأزهـر الميمـون صُـبْحًا	ولمْ يـكُ مـن مجـيءِ الطفـل بـدّ
وناضـل في عمـاد واتّـزانٍ	أسـاتذةً هـمُ للعلـم جنـد

فحيَّر بعضهم وأغاظ بعضاً	وشأن الرأيّ تأييدٌ وحقد
فشجَّعه الذي للخير يرجو	وعاداه الذي للبغض عهد
وشعر الجاهليّة قال جهرًا	بأنَّ كثيرَه قولٌ مُردّ
وإنَّ قليله حقٌ صراحٌ	به يعتزُّ ذو الرأي الأسدٌّ
مضى جهرًا «لباريسٍ» طليقًا	بقلبٍ ملؤه أدبٌ ورشد
فعادَ وملءُ بُرديْهِ بيانٌ	تَسامى فهو شلاّلٌ ورعدُ
ويخلد صوته أبدًا عميقاً	ويبقى بحثه والعلمُ وِرْدا!

لقد كتب «العميد» في شتى صنوف المعرفة، في الأدب، والإسلاميات، والتاريخ، والتراجم، والقصص والروايات، بلْ أراد أن يكون شاعراً .. فكان شِعره تعبيراً عن ذاته وإثبات جدارته بقول الشِّعر، وكان أغلب شِعره نقداً لاذعاً إلى حد الهجاء لبعض الشخصيات! لكنه لمْ يكن مُبرِّزاً في هذا الميدان، بلْ يمكن القول: إنه أراد أن يكون شاعراً، فقصرت حيلته؛ فكتب نماذج باهتة، خالية من العاطفة، وعديمة الخيال، بلْ عديمة الطعم والرائحة! أوردنا نماذج منها في كتابنا (شعراء الأزهر)!

رحم الله «طه حسين» الذي عاش بصيراً مستعوِضاً –بفقد البصر– نور البصيرة، مستلهماً من معنى الحياة تدفق النشاط وتنوع العطاء، وتجدد البقاء، بطبيعة متحدية متمردة، ودوافع متمردة متعانقة، كانت طوال حياته شهيقه وزفيره!!

رائد شعراء العروبة

ما لقينيَ أحـدٌ مـن أبنـاء (المنيا) إلاَّ وسـألني: لمـاذا لا تكتب عن خالد الجرنوسي؟!

فهو شاعرهم الأكبر، وأديبهم الأشهر، بلْ ومفخرتهم الوطنية!

وقـد أدركـتُ مكانـة هـذا الأديـب الكبير، والمناضل الوطني؛ بعدما قـرأتُ مـا كتبـه عنـه «عبـاس العقـاد» في كتابـه «شـعراء مصـر وبيئاتهم»! وقد كنتُ أحسُّ أنَّ هناك دَيْناً ثقيلاً، لابدَّ أنْ أقضيه، ولمْ أسترِح إلاَّ بعدما كتبتُ عنه فصلاً ممتِعاً في كتاب «شعراء الأزهر»!

فمن هو خالد الجرنوسي؟!

نترك «الشَّاعر» يعرِّفنا بنفسه، إذْ يقول:

أنـا الـوفيُّ لأحبـابي وإنْ غـدروا	تمشــي إسـاءتهم في نـور إحسـاني!
يجنــي عــليَّ الغــادرون، وربمــا	لانــتْ جوانــب عِــزَّتي للجــاني!
أنــا مــن يــردُّ عــلى الـوفيّ وفــاءه	حُلــلاً مجــددةً مــن الوجــدانِ!

هذه الأبيات ترجمة صادقة لأخلاق هذا الشَّاعر الأزهـري، والفـارس النبيـل؛ الذي لازال أبناء «المنيا» يتغنَّونَ بأشْعاره العذبـة، ويتدارسـون سـيرته الجميلـة؛ فكان يُؤثِر الآخرين على نفسه، بلْ يضر نفسه لينفعهم! ولمْ تفارقـه صـفة الوفـاء، في سائر أشعاره، كما لمْ تفارقه الشاعرية العذبـة ذات الاسترسـال القصصـي البـديع، فاستمع إليه في قصيدة (راعيةُ الزهور) إذْ يقول:

تسقي أزاهيرَها الصُّغرى وتنساني — وقد نثرتُ عليها زَهْرَ وِجداني
لا أجزيَنَّكِ عن حالٍ رضيتُ بها — كفرًا بكفرٍ، وحرمانًا بحرمان
أنا الوفيُّ لأحبابي وإن ظلموا — تمشي إساءتُهم في نور إحساني
بيني وبينك ميثاقٌ ولي ثقةٌ — ألاَّ يزاحمَ روحي عاشقٌ ثان
وَفَّيت للزهر يُسقى في يديك حَيًا — وما سقيت الظَّما في روحِ ظمآن
يا ليتني زَهَرٌ نامٍ بِروضَتِه — تسقيه كلَّ صباح منك عينان

خالد الجرنوسي (١٨٩٨- ١٩٦١م) قضى عمره كله بحثاً عن المعرفة، وجرياً وراء الثقافة، ودفاعاً عن الهوية الوطنية، فكتب في كل شيء، ولعلَّ من أجمل أشعاره؛ قصيدة (لغة الضاد) التي تغنَّى فيها بلغة القرآن وجمالياتها، وقد نشرناها كاملة في كتابنا (عبقرية اللغة العربية) يقول فيها:

الضادُ كانت للمفاخرِ حَلْبَةً — تتزاحم الأبطال في ساحاتها
من كل قوَّال .. كأن بيانه — صبحٌ تقومُ إليه .. في صلواتها
تنسابُ في آي الكتاب .. كأنما — نور اليقين يشع من قسماتها
صورٌ من التبيان في زاهي الحُلَى — كالجورِ ضاء الماس في لبَّاتها
والسحر في شِعرٍ .. كأن رنينه — قَرْعُ الكئوس على خطى صبواتها
يُلقِي عصاه الفرد من أقطابها — فاسألْ حُواتَ السحرِ عن حيَّاتها

هذا؛ وتتجلَّى موهبة «الجرنوسي» الإبداعية عندما يسكن إلى الروح، ويخلد إلى الغرام، ويتأمل في العواطف والمشاعر الإنسانية؛ كما في قصيدة (الغزال النافر) التي يقول فيها:

أخاف من اللِّحاظ على فؤادي — ولستُ أخاف من سيفٍ ونارِ!
قليلُ الحوْلِ عن «نُعمَى»، ونُعمَى — غزالٌ قد أصرَّ على النِّفار
أهيم بها كما هام الحَيارى — وقد ضلُّوا إلى شمس النهار

يطول عليَّ يا نعمى سُهادي وأنسى فيكِ حَوْلي واقتداري
وأحيا منك في ظلمات ليلٍ وأنتِ النجم في ذكرايَ سار
كساكِ الله حسنًا ما كساهُ لبدرٍ في عُلاه ولا دراري
وقد ظهرَ الذي عاهدتُ نعمَى على كتمانِه فمتى أداري؟
ولو شاءت لنا عيشًا هنيّاً لقالت لي: تعالَ إلى جواري
أقولُ لصاحبي إنْ متُّ شوقًا إلى نُعمَى فلا تأخذْ بثاري!
وخُطَّ على نَواحي القبر بيتًا يلوحُ من القبور لكل قاري
«هنا قلبٌ قضتْ نُعمَى عليه وقادَتْه إلى هذا القرار»!

لقد كانت قصائد «الجرنوسي» من البلاغة بمكان، فكان تأثيرها قوياً وفعَّالاً .. لدرجة أن زعيم الأمة/ سعد باشا زغلول- قال عنه بعدما سمع إحدى قصائده الثورية في محفلٍ كبير: (إنَّ هذا الشاعر قد عَضَّ في الكتف)!

أجل؛ لقد وقف «الجرنوسي» بجوار ثورة ١٩١٩م وناصرها بأشعارِه وخطبه، وقاد المظاهرات مع الشباب الثائر. كما أهدى ديوانه الأول؛ المملوء بالقصائد الوطنية، والذي صدر عام ١٩٢٤م لسعد زغلول، قائلاً في مناجاته:

يا أبا الشعبِ .. وحسبيَ شرفاً أنَّ روحي تتلقى مددكْ
بعثتني في الليالي شاعراً دامعَ العينِ .. أُناجي جَلَدَكْ

هذا؛ وقد هاجم «الجرنوسي» الإنجليز وأعوانهم، وصبَّ عليهم جام غضبه، وحِمَم قصائده؛ فاعتقلته سلطات الاحتلال أثناء ثورة ١٩١٩م لمناوأته لهم، وتحريض الشعب ضدهم، فقال هازئاً بسجّانيه:

ضيّقوا منفذ الحياةِ وهاتوا كلَّ ما تحسبونه .. أهوالا
ليتَ شِعري أألفُ بابٍ علينا قد وضعتم وراءها الأقفالا؟

.. نحن لوْ تُجعَلُ البيوتُ سجوناً ... لـن ينـال الهـوانُ منـا .. منـالا

ولِدَ «خالد الجرنوسي» بمركز بني مزار، والتحق بالأزهر أثناء الحرب العالمية الأولى، كما درس في كلية الآداب بجامعة القاهرة وتخرج فيها. وكان عضواً بجماعة أدباء العروبة –التي أسسها الوزير الشاعر/ إبراهيم الدسوقي أباظة باشا. وقد نال ديوانه (اليواقيت) جائزة المجمع اللغوي بالقاهرة عام ١٩٥٢. كما صدر له عدد من الدواوين، منها: «ديوان خالد»، و«قلوب تغني»، و«على طريق النور»، و«ملحمة خالد بن الوليد»، وله مسرحية شعرية بعنوان «نُعمَى».

ينتمي شِعره إلى ثقافته وتجربته وطبيعة مرحلته، وغلبتْ السياسة على قصائده المبكرة، وهيمنت النظرة الإسلامية على توجهاته المتأخرة، وجمع بين القصيدة والملحمة، من ذلك ما قاله في قصيدة (وحي بحيرة قارون):

يـا جنـةَ الله في أطـرافِ صـحراءِ ... مَـن ذا أقامـك بـين الظـلِّ والمـاءِ

أقمـتِ في الجانـب الغربـي مُفْـردةً ... كشـامةٍ حلـوةٍ في وجـه حسـناء

باتـتْ تضـيءُ لغادينـا ورائِحِنـا ... كشـعلةٍ نـوَّرتْ مـن حـاتمِ الطـائي

طِرنـا إليهـا حمامـاتٍ مغـرِّدةٍ ... إنَّ الخصـائلَ مغنـى كـلِّ وَرقـاء

لمَّـا طغـى –قبـلُ– قـارونٌ وأبطـره ... هـذا النعـيمُ طـواه بطـنُ جوفـاء

أيـنَ الكنـوزُ التـي نـاءت مفاتِحها ... بعصـبةٍ مـن كـرامِ الخيـل غـرّاء

أتـى بَغِيّـاً فأغراهـا وحرَّضـها ... عـلى الكلـيم لترميـه بنكـراء

وجـاء موسـى بهـذا المكـرِ دبَّـره ... وقولـةُ الـزور مـا بـين الأخـلاّء

فردَّهـا اللهُ –فيمـا شـاء– شـاهدةً ... تُجـلُّ موسـى عـن استِهواءِ فحشـاء

وصاح موسى فكانت دعوةً صعِدتْ ... إلى السـماوات في أسـدافِ ظلمـاء

أجابهـا الله فانشـقَّتْ لظالمـه ... أرضٌ طوتْـهُ عـلى هُـونٍ وبأسـاء

وصـار مـن نـازع الـرحمنَ رحمتَـهُ ... كصـخرةٍ في بطـون الأرض خرسـاء

....

كــذلك المُلــكُ إنْ فرعــونُ شـيَّده أتـى مـن الخُلْـدِ مَوْسـومًا بِسِـيماء
ثم احتواكِ ضحى الإسـلام وانبعثـتْ فيـك العروبـةُ مـن ريـفٍ وصـحراء

أثناء المد القومي في مطلع الخمسينيات، وبعد ثورة يوليـو ١٩٥٢م عـلى وجـه التحديد، كتب «خالد الجرنوسي» قصيدته الطويلة (ثورة العملاق) التي استهلها قائلاً:

غــداةَ الغــدر فرَّقنــا فعــدنا كلُّنــا عربــا
ضــربنا الغــدرَ فانقلبــا وأتبــع رأسَــه الــذنبا
وغادرنــاه مُنســخبا وأتبعنــاه منســحبا
يجــرّ جروحَــه تَعَبــا ويحمــلُ عــاره تَعِبــا
لنــا قوميّــةٌ ضــمنتْ لنــا التبريــزَ والغَلَبــا
صــلاحُ الــدين ركَّزهــا تُظِــلّ النــاسَ والحِقَبــا
بنــي أعمامنــا وطــنٌ كبيــرٌ ضــمّنا شُــعَبا
رأيــتُ هلالَــه وثبــا فضــمَّ صــليبَه وحبــا
وهــاك تراثَنــا الماضــي رفعنــا فوقــه القُبَبــا
جمعنــا الــدينَ والــدنيا وضــمّت «مكــةٌ» «حلبــا»
وغنّــى «النيــلُ» «للعاصــي» فرجَّــع شــدوَه طربــا
أناشــيدًا مــن الماضــي نظمــنَ الحــبَّ والحَببَــا
شــداها الــدَّهْرُ فرْحانًــا فصــاح المجــدُ: وا طربــا

رحم الله «فتى بني مزار» الشاعر الفذ، والأديب البارع، والمجاهد الوطني؛ الذي لا ريب فيه!

صاحبة العصمة

قالت أمينة السعيد عن السيدة/ هدى شعراوي: «كانت سيدة عظيمة، لن تشهد مصر مثيلاً لها، فقد كانت تملك كل المقومات التي تجعلها قائدة؛ فهي ثرية ثراءً كبيراً، مما جعلها تُنفِق على أعمال الخير والكفاح في سبيل المرأة، وفتح المدارس وتعميرها».

بالفعل؛ فمنذ صباها، عشقت النضال والمزاحمة، والمشاركة في العمل السياسي، وتفرغت للعمل العام، وأسَّستْ وشكَّلت وترأَسَّتْ «الإتحاد النسائي المصري» عام ١٩٢٦م. وكانت مقررة للجنة الوفد المركزية للسيدات، كما انتُخِبت عضواً في مؤتمر الاتحاد النسائي الدولي، كما عُرِفتْ بنشاطها السياسي المناهض للاستعمار، ذلك النشاط الذي كان يتمثل في عقد المؤتمرات، وقيادة المظاهرات، وتنظيمها في الميادين العامة، والتجمعات. وقد زارت عددًا من البلاد الأوروبية، والولايات المتحدة.

هذا؛ وقد مثَّلتْ هدى شعراوي النساء المصريات في عدة مؤتمرات تتناول حقوق المرأة حول العالم في روما وباريس وأمستردام وبرلين والولايات المتحدة، وغيرها.

كما طالبت الحكومة في أكثر من مناسبة بمنع تعدد الزوجات لغير الضرورة، ومنع فوضى الطلاق، وإلغاء قضايا الطاعة، ومد أجل الحضانة للولد حتى يبلغ وللبنت حتى تتزوج، ونجحت هدى شعراوي عام ١٩٢٣ في إقناع رئيس الوزرء وقتها «إبراهيم باشا يحيى» بإصدار قانون يحدِّد سن زواج الفتيات ب ١٦ عاماً على الأقل.

رائدة العمل الاجتماعي

تعدُّ السيدة «هدى» أول امرأة مصرية تبنَّتْ العمل الاجتماعي، وشاركت فيه بكل ما أُوتيتْ من قوة؛ فقد استأجرت منزلاً، وحوَّلته إلى مدرسة متنقلة لتعليم النساء مبادئ الصحة والتمريض وبعض الصناعات اليدوية، ومحاربة البدع والخرافات، ومعالجة المرضى منهن ومن أطفالهن مجانًا، حتى إذا أتمت مهمتها في ذلك الحي، انتقلت إلى حي آخر.

كما أنشات مصنعاً لعمل الخزف وجميع أنواع الصيني، وجعلته خاصاً لتعليم المئات من أبناء الفقراء والأيتام، كما أصدرت جريدة باللغة الفرنسية «المصرية» للدفاع عن حقوق المراة المصرية.

أيضاً؛ لها الكثير من المواقف الوطنية، منها: أنه عندما اعتقل رئيس الوزراء/ أحمد ماهر - نخبة من الشباب الوطني؛ ذهبت إليه، وصرخت في وجهه قائلة: أطلِق سراح هؤلاء الشباب!

لقد كانت -يرحمها الله- من أبرز نساء القرن العشرين دفاعاً عن قضايا المرأة وحقوقها، وترى أن سعادة الأسرة مردُّها سعادة المرأة، ومن أقوالها في ذلك: «سعادة الأسرة مرتبطة بسعادة المرأة بما لها من سلطان على الرجل في كل أطوار حياته؛ فهي مربيته طفلاً، وعونه زوجاً، وممرضته في مرضه، ومدبِّرة البيت وقوام نظامه»!

الطريف أنها كانت على خِلاف (سياسي) مع زوجها، فناصرت ثورة ١٩١٩م وسعد زغلول، وقد امتدَّ هذا الاختلاف إلى حياتها الزوجية، مما أتاح لها إعطاء العمل «النسوي» والوطني العام ما تريد من الاهتمام!!

خلافها مع سعد زغلول

وقع خلاف بين هدى شعراوي -رئيسة لجنة الوفد المركزية للسيدات حينذاك- وبين الزعيم سعد زغلول، على خلفية رفضها لبعض مواقف حكومة

توفيق نسيم باشا في السودان التابعة لمصر آنذاك، وهي الحكومة التي أثنى عليها سعد زغلول في حفل لم تُدعَ إليه هدى شعراوي، لكن اسمها ورد ضمن الحاضرات في الأخبار التي نشرتها الصحف.

فأصدرتْ بياناً تنتقد فيه سعد زغلول قائلة: «يعلم الوفد أني مخالفة لنظريته في سياسة نسيم باشا التي كانت هادمة لحقوق البلاد، ولذلك لم يدعنِ لتلك الحفلة، مكتفيًا بذكر اسمي بين أسماء الحاضرات، ولمّا كنتُ أخشى إذا لزمتُ الصمت أن يستنتج الشعب المصري الكريم من صمتي موافقتي على نظرية معالي الرئيس والوفد في أعمال نسيم باشا وتمجيدها لحفلته التي احتجَّتْ عليها لجنتنا في حينه، فإني مع احترامي لمعالي الرئيس أرى من واجبي في الظروف الحرجة التي تجتازها البلاد أنْ أجاهر برأيي ورأي اللجنة، مجددةً احتجاجنا على أعمال نسيم باشا وما نتج عنها من تفريط في حقوق البلاد».

ذات مرة؛ التقتْ هدى هانم بسعد زغلول على الباخرة العائدة به من منفاه في جبل طارق، وتحدثا عن الوضع في مصر وخلافهما، ووصفته خلال رواية أحداث اللقاء بـ«المغرور»:

«وصرنا في وفاق وائتناس، وسعد باشا في تواضع غريب حتى اقتربنا من الإسكندرية .. وقد قلت في نفسي: لقد عادت له عظمته .. وما كان ذلك التواضع الغريب الذي لاحظته إلا لظنه أنه فقد شيئًا من ثقة الأمة بتحبيذه لموقف نسيم باشا الذي أغضبها».

تقول: بعد ذلك دار الحديث في موضوعات أخرى، وراح يهنئني على توفيقي في الوصول إلى رفع البرقع وكيفية عمل الحجاب الشرعي الذي أرتديه، وقال: إنه قد سرَّ عندما رأى صورتي بهذا الزيّ الجديد في منفاه، ثم طلب من السيدة حرمه أن تقلدني، فوعدت بذلك.

بعد فترة؛ تصاعدت الخلافات بين سعد زغلول وهدى شعراوي على خلفية عدة مواقف سياسية لم تتفق معه فيها، وهاجمتها الصحف الموالية للوفد، وأصدرت «هدى» أكثر من بيان يرفض سياسات سعد زغلول، إلا أنها أرسلت له رسالة تطلب مقابلته لتناقشه في الاتحاد مع خصومه السياسيين بعد حل البرلمان المنتخب عام ١٩٢٥، غير أن المقابلة -العاصفة كما تصفها- لم تصل للمراد، وانتهت بتعميق الخلاف بينهما، قائلة:

وقمتُ متأهبة للخروج، فأوصلني حتى السلم، وهناك قال: «لماذا لا تشتغلين معي؟ قلت: «لا، أنا مع الحق»، فقال محتدًا: «وهل أنا الباطل؟» فقلت: «لا أعلم»، قال: «غداً ترين ما يحلُّ بكِ!». فقلت: «أنا لا أخشى شيئاً لأنني واثقة بأنني لا أعمل لأيّ غرض إلاَّ لخدمة بلادي، وإنَّ يدك يا سعد لن تصل إليَّ، ولو فرضنا أنك ستحرِّض عليَّ صبيان الوفد ليرموا منزلي بالحجارة أوْ ليقتلني أحدهم، فهذا كل ما أتمناه، وهو أقل تضحية في سبيل خدمة بلادي».

لكن هدى هانم نعتْ سعد عند وفاته، ووصفته بالزعيم الوطني: «مات الزعيم سعد زغلول وأنا موجودة في رحلتي بالخارج، ولم يتح لي بالتالي أن أشارك في وداع هذا الزعيم، وإذا كانت هناك مواقف قد حدثتْ بيني وبينه، فإن هذا لا ينتقص من قدره كأحد رجال مصر الأوفياء.

ومن يرغب في معرفة الكثير عن حياة هذه المرأة المجاهدة؛ فليقرأ هدى مذكراتها المكونة من ٤٤ فصلًا، ففيها الكثير من العِبر والدروس الوطنية المشرِّفة.

موقفها من قضية الميراث

في عام ١٩٢٨م؛ ألقى سلامة موسى محاضرة بجمعية الشبان المسيحية، كان موضوعها «حقوق المرأة المسلمة» وزعم أن المرأة ظلمها الإسلام، ومن مظاهر ظلمه لها: أنه جعل نصيبها من الميراث نصف نصيب أخيها. ثم أرسل برقية إلى السيدة/ هدى شعراوي -باعتبارها زعيمة الإتحاد النسائي- وحرَّضها على أن

تتقدم للحكومة المصرية بمطلب مساواة الأخت بأخيها في الميراث.

ثمَّ نشرت الصحف المصرية نص هذه البرقية الموجهة إلى هدى هانم. فقامت السيدة هدى شعراوي بالرد على مزاعم سلامة موسى، ونُشِر ردها في كثير من الصحف المصرية، ومنها مجلة الفتح بتاريخ ٣/ ١/ ١٩٢٩م، وكان مما قالته في ردِّها:

«دعاني الأستاذ/ سلامة موسى في كتابٍ أرسله إليَّ أنْ أطلب من وزارة الحقانية «العدل» سَنّ قانوناً يساوي بين المرأة والرجل في حق الميراث، وأرفق خطابه بملخَّص محاضرة ألقاها بدار جمعية الشبان المسيحية عن نهضة المرأة في مصر، ونشرته جريدة المقطم يوم ٢٤/ ١٢/ ١٩٢٨م، ثمَّ أردفتْ تقول:

«يهمني أن أبلِّغ حضرة الأستاذ ومَن حضروا خطبته أني في خدمتي لهذه النهضة؛ أؤدي واجباً معهوداً إليَّ من جمعية الاتحاد النسائي التي شرفتني برئاستها، ولمَّا كان نصيب المرأة من الميراث ليس من المسائل الداخلة في برامجها؛ فليس لي أن أتدخل في الموضوع لا بإقرار الحالة الحاضرة ولا بتعديلها، وإنْ كان ولابدَّ من إبداء رأيي في هذا الموضوع؛ فأقول بصفتي الشخصية: إني لستُ من الموافقين على رأي سلامة موسى فيما يتعلق بتعديل نصيب المرأة في الميراث، ولا أظن أن النهضة النسوية في هذه البلاد لتأثرها بالحركة النسوية بأوربا؛ يجب أن تتبعها في كل مظهر من مظاهرها؛ ذلك لأنَّ لكل بلد تشريعه وتقليده، وليس كل ما يصلح في بعضها يصلح في البلد الآخر.

على أننا لم نلاحظ تذمراً من المرأة أوْ شكوى من عدم مساواتها بالرجل في الميراث، والظاهر أنَّ اقتناعها بما قسم لها من نصيبها ناشئ من أن الشريعة الإسلامية عوضتها مقابل ذلك بتكليف الزوج بالإنفاق عليها وعلى أولادها، كما منحتها الشريعة حق التصرف في أموالها.

أمَّا القول بأن التساوي في الميراث من دواعي إحجام كثير من الشبان عن الزواج كما ادَّعى سلامة موسى في الشرق، فغير وجيه؛ لأننا نشاهد في أوربا انتشار

هذا الداء في عصرنا الحالي انتشاراً أشد خطورة منه في الشرق بالرغم من أن المرأة الأوربية ترث بمقدار ما يرث الرجل، فضلاً عن أنها ملزمة بدفع المهر، ومكلفة بالتخلي عن إدارة أموالها لزوجها.

ولوْ سلَّمنا بنظرية الأستاذ/ سلامة موسى وجاريناه في طلب تشريع جديد؛ فهل لا يخشى أن يؤدي إلى إسقاط الواجبات الملقاة على عاتق الزوج نحو زوجته وأولاده بإلزام الزوجة بالاشتراك في المصاريف، وفي ذلك ما فيه من حرمان يعود بالشقاء والبؤس على الزوجات الفقيرات اللاتي لم ينلنَ ميراثاً من ذويهن؟ وهذه الطبقة تشمل أغلبية الزوجات، ولا يخفى ما هنَّ عليه من جهل بخلاف مثيلاتهن في الفقر في أوربا، لأن التعليم هناك يشمل كل الطبقات.

إنْ كنا نرى الغربية أكثر حظاً، لأنها تظهر لنا أنها حائزة لقسط كبير من الحرية المدنية المساوية للرجل، بيد أنها أقل حظاً من أختها الشرقية في الحرية الاقتصادية، فبينما الشرقية غير المتساوية بالرجل في الميراث تتمتع بكافة أنواع الاستقلال في إدارة أعمالها وأموالها، نجد الغربية المساوية لأخيها في الميراث محرومة من هذه النعم، إذْ لا يمكنها أن تُنفِق أيّ مبلغ من مالها ولا أن تتعاقد مع الغير ولا أن تحترف حرفة دون تصديق زوجها وموافقته، لذلك تراها ثائرة في جميع بلدان أوربا على تلك القيود التي تحول بينها وبين الحرية الحقيقية والاستقلال اللذيْن تتمتع بهما المرأة الشرقية منذ عصور طويلة.

إنَّ أهم ما يشغلني اليوم هو الوصول بالمرأة إلى المركز اللائق بها، وليس السعي في تغيير القوانين أوْ قلب الشريعة: فالحمد لله أننا لم نجد في هذه القوانين ولا تلك الشريعة من الأحكام ما يحملنا على التذمر والشكوى».

صالون هدى هانم

كان لهدى هانم صالون ثقافي تقيمه في بيتها لمناقشة قضايا التحديث في مصر بداية من حقوق المرأة، إلى قضية الاستقلال الوطني، كما أسهمت بدور مشرف

في تأسيس الجامعة الأهلية، وكان لها مواقفها المساندة لقضية فلسطين.

هذا؛ وقد نالت حظها من التكريم والتبجيل وهي على قيد الحياة، فحصلت على عدد من الأوسمة والقلادات من مختلف بلاد العالم، واعتبِرتْ رائدة للحركة النسوية في الوطن العربي. كما لُقِّبتْ ب(صاحبة العصمة هدى هانم)! وقد أطلق اسمها على مدارس عديدة في مصر، وفي عواصم عربية أخرى، وفي الكويت روضة أطفال تحمل اسمها، وميدان ينسب إلى المدرسة.

كان لوفاة السيدة «هدى شعراوي» صدىً واسعاً في كافة أنحاء مصر؛ يظهر ذلك من خلال المقالات والقصائد التي رثتها، وعددتْ مآثرها، من ذلك قصيدة شاعر المنيا/ عبد العزيز الصباغ- بعنوان (في ذمة الله يا هدى) يقول فيها:

الشّرقُ مِن هول المصيبة جازعٌ ... هيهات أن يجدي عليها بكاء
فدحته من وقع المنون خسارةٌ ... كبرى تهون لخطبها الأرزاء
والناسُ بين مصدِّقٍ ومكذِّبٍ ... يثني تحسُّرَهم عليها رجاء
باتت «هدى» رهنًا لقبر ضيّقٍ ... وقضى على الآمال فيها قضاء
قد كانت الدنيا سناءً مشرقًا ... واليومَ تضرب بينها الظلماء
الناسُ من ذكرى حديثك في جوىً ... يُصمي النفوس وما يفيد عزاء
كانت دواعي السّحر في نبراتها ... وعليهَا من فيض الهدى أنداء
في غفلة الآمال غُودر بدرها ... فازور من بين النفوس صفاء
آثارها الغرّ العظام مواثلٌ ... لم يُبلها الإصباح والإمساء
يغنيك يا شِعري لقاء جهودها ... إنَّ الزمان قصيدةٌ عصماء
يبلى الزمان وما تزال جديدةً ... ينساب منها في الحياء ضياء

مَن هِيَ هدى شعراوي؟

السيدة/ هدى محمد سلطان أحمد(١٨٧٩- ١٩٤٧م) من أعيان محافظة

المنيا، عندما تزوجت ابن عمها/ علي باشا شعراوي؛ نُسِبتْ إليه. وقد نشأت في بيت علم وأدب وجاه، فوالدها محمد باشا سلطان -رئيس أول مجلس نيابي في مصر، توفي عنها وهي في الخامسة من عمرها، فتعهدتها والدتها -التركية الأصل- بالعناية والرعاية. حفظت القرآن الكريم وهي ما تزال في التاسعة من عمرها، كما تلقت العلوم الفرنسية والتركية، إلى جانب دراستها للموسيقا والرسم، وبعد أن حصلت قسطًا وافرًا من العلوم والفنون، عكفت على قراءة الكتب المختلفة، فخرجت بحصيلة واسعة. لها العديد من المقالات، والخطب، والرسائل التي نشرتها صحف عصرها (١٩٢٥ – ١٩٤٠م). ولها بعض الأشعار في الرثاء، والشكوى وعتاب الزمن، وهي تميل إلى الحكمة والاعتبار، يكشف ما أتيح من شِعرها عن حس لغوي سليم، وقدرة على انتقاء الألفاظ وإدارتها. تتسم لغتها بالتدفق واليسر، وخيالها بالجدة والطرافة. ففي قصيدة لها بعنوان (تجلد) تقول فيها:

يا دهرُ مهلاً إنَّ قلبي ليس صخرًا أوْ حَجَرْ ... أرجمته بمصائبٍ لولا التجلد لانفطر

فرقتَ عني أحبتي وكحلتَ عيني بالسّهر ... لوْ كان دمعي مسعفي لليوم سابقتُ المطر!

في سنة ١٩٤٧م كتبتْ قصيدة رثاء لها، بعنوان (هدى شعراوي ترثي نفسها) تقول فيها:

اليوم لا تبكوني ... إنِّي قضيت ديوني

لمْ يبق للعيش شأنٌ ... عندي ولا للمنون

حُررت من كل أسرٍ ... ومن سهاد جفوني

نزلتُ دارَ بقاءٍ ... فيها تلاشت شجوني

فيها أواجه ربي ... جوار مَن سبقوني

فاليوم داريَ قبري ... ونعم دار السكون!

به تصانُ رفاتي ... من حادثات القرون!

قيثارة السماء

ذات مرة؛ كان الشيخ/ طه الفشني- يُنشِد التواشيح في إحدى المناسبات الدينية بـ«ديروط» وعندما وصل إلى مقطع (استقرَّ به المقامُ) فأقسمَ عمدة القرية بالطلاق على أن يردِّد الشيخ «هذا المقطع» حتى الصباح! وبالفعل ظلَّ -الشيخ طه- يردِّده بعدة مزامير حتى مطلع الفجر!

عندما كان «طه الفشني» في الثانية والأربعين من عمره، كان يسكن في الحارة التي يقطنها الشيخ/ علي محمود، والشيخ/ محمد سلامة. وقد سُئلَ الفشني عن أعظم الأصوات بالنسبة إليه، فقال: الشيخ/ محمد الصيفي، والشيخ/ محمد رفعت. وقد وصف رفعت بأنه: فلتة لنْ يجود بمثلها الزمان! كما كان -رحمه الله- من عشاق صوت الشيخ/ مصطفى إسماعيل!

يُوصف «طه الفشني» بالتلميذ النجيب للشيخ «علي محمود» فقد اتصل به وهو في قمة مجده، وكان أحد أفراد بطانته، فأنشد التواشيح، ثمَّ لم يلبث أن بهره صوت الشيخ علي محمود وطريقته الفذة في الأداء. وفي عام ١٩٣٩م قدّم الشيخ علي محمود تلميذه «طه الفشني» للجمهور -لأول مرة- فحلَّ محله في ليلة خالدة، فاستقبله الناس بالتقدير، فقد كان الشيخ طه أقدر الناس على استيعاب طريقة أستاذه! وفي عام ١٩٤٢م أصبح للشيخ/ طه فرقة يرأسها، فلمع نجمه سريعاً، وأذاعت له محطة القاهرة، ومحطات الإذاعات الخارجية. ولمْ يكتفِ بالتواشيح، فقد ظل يقرأ القرآن حتى صار من مشاهيره الكبار، فارتفع أجره إلى عشرة جنيهات

في الإذاعة، وثلاثون جنيهاً في الليلة الواحدة، وعندما مات الشيخ/ علي محمود؛ قفز أجر الشيخ/ طه إلى مائة جنيه في الليلة!

* * *

طه الفشني(١٩٠٠- ١٩٧١م) صاحب مدرسة فريدة في تجويد القرآن، فقد كان أول من أدخل النغم على التجويد مع المحافظة على الأحكام، ولا تزال تسجيلاته شاهدة على نبوغه، وعلمِهِ بأصول التلاوة. فذاع صيته، ولمع نجمه في سماء التجويد والإنشاد الديني والتواشيح، بلْ إنَّ الأُذُنَ لا تُخطئ صوته من بين آلاف الأصوات، وقد تمَّ اختياره رئيساً لـ«رابطة قراء القرآن الكريم» بعد وفاة الشيخ عبد الفتاح الشعشاعي!

كانت مسيرة «الفشني» مملوءة بالطرائف، والغرائب، والأعاجيب؛ فلنْ ينسى الذين عاصروه قصة انحباس صوته، التي شغلت محبيه عدة أسابيع متواصلة دونما سببٍ معلوم إلى الآن! تروى السيدة/ خيرية البكري- تلك القصة، فتقول: لقد شاهدتُ إحدى الكرامات فقد كنتُ ذاهبة لأداء فريضة الحج، وكنا نستقل الباخرة، وقد لفت نظرنا وجود شيخ جليل بيننا، تعلو وجهه علامات الأسى والحزن، وهو يجلس على الباخرة صامتا، ويحيط به جمع من أقاربه، وهو يتأمَّل في صمت عجيب. ولمَّا سألنا عنه، قيل لنا: إنه القارئ الشيخ/ طه الفشني! وأنه فقد صوته تماماً منذ أسابيع، ولم يفلح الأطباء في علاجه .. فتألَّمنا كثيراً لِمَا أصاب الشيخ الجليل. وفي (يوم عرفة) وبينما نستعد لصلاة العصر، وفجأة شقَّ الفضاء صوت جميل، يؤذن للصلاة .. صوتٌ ليس غريباً عنا، فكان هذا الصوت هو صوت الحاج/ طه الفشني! فقد رُدَّ عليه صوته ببركة اليوم العظيم، وببركة المشاعر المقدَّسة .. فبكينا جميعاً تأثراً وفرحاً؛ بشفاء شيخنا وقارئنا الكبير!

* * *

في صيف عام ١٩٣٧م؛ كان الشيخ طه- يحيي إحدى الليالي الرمضانية بميدان

الإمام الحسين بالقاهرة، فاستمع إليه سعيد لطفي «مدير الإذاعة آنذاك» فعرض عليه أن يلتحق بالعمل في الإذاعة، واجتاز كافة الاختبارات بنجاح، وأصبح قارئاً للإذاعة، ومنشداً للتواشيح الدينية على مدى ثلث قرن! فقد كان عليماً بالمقامات والأنغام، وانتهت إليه رئاسة فن الإنشاد في زمنه فلم يكن يعلوه فيه أحد، وهو أشهر أعلام هذا الفن بعد الشيخ علي محمود. ومن أشهر التواشيح المأثورة عنه: «ميلاد طه»، «يا أيها المختار»!

كان عشّاق الشيخ يسهرون حتى الفجر؛ ليستمعوا إليه وهو يؤدى الابتهالات والأذان في المسجد الحسيني، وكانوا يحرصون -أيضاً- على سماعه وهو ينشد التواشيح في الليلة اليتيمة بمولد السيدة زينب، خلفاً للشيخ على محمود، فاستطاع الشيخ طه؛ أن يحفر اسمه بين أعلام فن التواشيح، الذي ضمَّ كثيرين من العباقرة، أبرزهم: الشيخ علي محمود، ومحمود صبح، والشيخ زكريا أحمد، والشيخ إسماعيل سكر، والشيخ نصر الدين طوبار، والشيخ سيد النقشبندي، وغيرهم!

هذا؛ وقد أمضى «طه الفشني» قرابة عشر سنوات كاملة؛ يرتل القرآن الكريم بقصريْ: عابدين بالقاهرة، ورأس التين بالإسكندرية، بمرافقة صاحب الصوت الشجِّيّ «مصطفى إسماعيل»! وعندما بدأ التلفزيون إرساله بمصر؛ كان «الفشني» من أوائل قرَّاء القرآن الكريم، الذين افتتحوا إرساله، يوم ٢٦ أكتوبر ١٩٦٣م بتلاوة بعض الآيات الكريمة من سورة مريم، ولمْ ينقطع حتى وفاته في العاشر من ديسمبر عام ١٩٧١م! تاركاً خلفه كنوزاً من التسجيلات القرآنية، والتراتيل والإنشاد الديني، وقد كرمته الدولة عام ١٩٨١م فمنحتْ اسمه وسام الجمهورية في مناسبة تكريم حفظة القرآن الكريم!

* * *

ولد الشيخ طه الفشني بمدينة (الفشن) ببني سويف عام ١٩٠٠م في أسرة متديِّنة، التحق بكتاب القرية، وتميز بين أقرانه بالصوت الجميل، ثمَّ التحق

بمدرسة المعلمين بالمنيا، وحصل على الدبلوم، ثم رحل إلى القاهرة قاصداً مدرسة دار العلوم العليا، ولكن الأحداث السياسية التي كانت تمر بها مصر واندلاع ثورة ١٩١٩ حالتا دون التحاقه بدار العلوم، فتوجه إلى الأزهر الشريف، وما لبثَ أنْ أصبح مشهورا بقدرته على أداء التواشيح الدينية في مختلف المناسبات، وقد بدأ الشيخ طه الفشني حياته العملية مطرباً، وكان في وسعه أن يستمر في الغناء، لولا النزعة والتربية الدينية التي اكتسبها من دراسته الأزهرية، وكان لسكنه في حي الحسيْن أثر كبير في تردده على حلقات الإنشاد الديني، إلى أن نبغ وأصبح المؤذن الأول لمسجد الحسيْن، واشتهر بقراءته لسورة الكهف يوم الجمعة، كما كان يرتِّل القرآن الكريم في مسجد السيدة سكينة، وكذا إجادته تلاوة وتجويد قصار السور، بلْ أصبح أحد أعلام القرَّاء والمنشدين في القرن العشرين، بلْ يحسب للشيخ الفشني جهوده الرائدة للحفاظ على فن التواشيح، وسائر فنون الإنشاد الديني من خلال تدريب المواهب الصاعدة من بطانة المنشدين!

رضيَ الله عن «طه الفشني» وشيوخه الكرام، والذين جاءوا مِن بعدهم بإحسان!

نقيب الفلاسفة

قبل أن يتجاوز الشيخ/ مصطفى عبد الرازق- العشرين من عمره؛ تنبأ الأستاذُ الإمام/ محمَّد عبده- ببزوغ نجمه! فقال له في إحدى الرسائل: «ما سُرِرتُ بشيٍ سروري أنكَ شعرتَ في حداثتكَ بما لمْ يشعر به الكبار من قومك، فللهِ أنتَ، ولله أبوك! ولوْ أُذِنَ لوالدٍ أن يقابل وجه ولده بالمدح لسقتُ إليك الثناء ما يملأ عليك الفضاء، ولكنني أكتفي بالإخلاص في الدعاء أنْ يُمتِّعني اللهُ في نهايتك بما تفرسته في بدايتك»!

وقد صدقتْ تلك النبوءة؛ وأصبح ابن عبد الرازق شيخاً للأزهر الشريف عام١٩٤٥م، خلفاً للإمام الأكبر/ محمد مصطفى المراغي!

الشيخ/ مصطفى عبد الرازق (١٨٨٥- ١٩٤٧م) كان تلميذاً نجيباً لأستاذه الإمام/ محمد عبده- وشغوفاً به، فأنشد قصيدة؛ مرحباً بعد عودته من أوربا عام ١٩٠٣م- استهلها قائلاً:

أقبِلْ عليك تحيةٌ وسلامُ ... يا ساهراً، والمسلمون نيامُ
كالبدر أنَّى سار يشرق نوره ... والحقُّ أنَّى علا فهو إمامُ
لازلتَ غيظاً للضلالِ وأهله ... والحِلمُ يرضى عنك والإسلامُ

بحجم هذا الإعجاب، وهذه المحبة لأستاذه؛ كان حزنه عليه عند وفاته، وقد رثاه بأبيات حارة، فيها أبلغ الدليل على مدى تأثره وحزنه، فقال:

إنَّ قلباً أصفاك بالودِّ حُبَّاً ... صدعته بموتك الأيامُ!

كـــان في هـــذه الحيـــاةِ رجـــا قـــد دفنـــاه يـــوم مـــات الإمـــامُ!

كان الشيخ/ مصطفى عبد الرازق- مملوءاً بالمودة والحنان، وكان يتغنى بالحب، وله في ذلك مقالات في مجلة السفور عام ١٩١٦م، فكان مما كتبه تحت عنوان (خواطر في الحب) قوله: «لقد أصبحتُ أظن أن الود المبني على الثقة والتعاطف عزيز في الناس، أو غير موجود .. إنْ لم يكن للحب الصادق متسع في تلك الصدور الواسعة للحوادث الجارية، فإنني مع ذلك أشهد أنَّ الحب يكون صادقاً، ولا أبرح أؤمن بهذه العقيدة»!

كان الوفاء والتواضع وإنكار الذات من أبرز شِيم الشيخ مصطفى؛ ومما يروى أنه نال أكبر عدد من الأصوات عندما رشَّح نفسه في انتخابات عمادة كلية الآداب، وتلاه الدكتور/ طه حسين، فتنازل الإمام له عن العمادة!

أيضاً؛ عندما اختير شيخاً للأزهر عام ١٩٤٥م تنازل على الفور عن رتبة (الباشوية) التي منحها له الملِك، قائلاً: ليست هناك رتبة أسمى من مشيخة الأزهر!

وعندما عاد من بعثته الأوربية؛ أسرع بارتداء زيِّه الأزهري، وشعر بالفخر، فقال: أيتها العمامة: عزيزةٌ أنتِ برغم كل شيء!

ومن وفائه؛ أنه قد نصح صديقه الدكتور/ طه حسين عندما سافرا إلى روما للمشاركة في أحد المؤتمرات، قائلاً له: فلنضع في برنامجنا أن نزور قبر المستشرق/ سانتلانا- ونضع عليه إكليلاً من الورد!

* * *

«مصطفى عبد الرازق» أول من دعا إلى إنشاء نقابة للفلاسفة الأحرار، فقال: ومتى تمَّ ذلك، وتمَّ معه ما يقترحه الفيلسوف/ شبلي شميل؛ من إنشاء نقابة للفلاسفة الأحرار، تهيأتْ بإذن الله أسباب الصلاح، وأُنصِفَ الناس، واستراح

القاضي!

ومن اهتمام «الشيخ» بالأدب وعشقه للفلسفة؛ أنشأ صالوناً ثقافياً لا مثيل له؛ كان مزدحماً برواده من مختلف الأجناس والمذاهب، وكان حافلاً بالمناقشات. ذات مرة؛ سأله أحد الحاضرين عن الأديان، فأجاب: «الدِّين واحد، والشرائع تختلف». فصفّق له الأجانب رجالاً ونساءً!

فالتفتَ إلى الجميع بحب ومودة وبشاشة، حتى راحت فضليات النساء الأجنبيات، يصحن: ما أجمل هذا الشيخ وأظرفه، ويا لِعلمه وأفقهِ البعيد، وسماحته المشهودة!

كان «أحمد أمين» من رواد صالون الشيخ/ مصطفى عبد الرازق- فوصفه قائلاً: كان ناديه في بيته من خير الأندية وأمتعها وأحفلها، يجمع بين الأزهري الصميم، والمثقف ثقافة مدنية عصرية، وقد يكون فيه الأوربي والأوربية، فإذا هو -رحمه الله- بلطفه وظرفه ورقته؛ يؤلِّف بين قلوب الجميع .. وتتلاقى عنده آراء الأحرار والمحافظين!

كما رسم صورة للشيخ، فقال: «أخذ من الأرستقراطية أجمل ما فيها، ومن الديمقراطية أجمل ما فيها، أناقة في الملبسِ من غير بهرجة، ورشاقة في الحركة من غير تصنُّع، وأدب في الحديث من غير ترفُّع، ودعة في النفس من غير تكلّف»!

في الجزء الرابع من يومياته؛ يقول عباس العقَّاد: رأيتُ الشيخ/ مصطفى عبد الرازق بعد عودته من فرنسا لأول مرة في دار البيان، ودارت بيني وبينه مناقشة حول مسألة المرأة، عرفتُ منها أنه يبلغ بالخلاف منتصف الطريق، ولا يغلو فيه، ثم رأيته بعد ذلك مراتٍ في البرلمان، وفي المجمع اللغوي، وفي مجلس الآنسة ميّ، فرأيته على سمت الوقار والسكينة من مطلع الشباب إلى أوج الكهولة، ولمْ تغير منه الحوادث ولا السنون!

كان الروائي/ نجيب محفوظ معجباً بالإمام منذ أن كان تلميذاً له في كلية الآداب، ثم صار سكرتيراً له عندما أصبح الإمام وزيراً للأوقاف، وقد وصفه فقال: «الشيخ مصطفى عبد الرازق مثال للحكيم، كما تصوره كتب الفلسفة، رجل واسع العلم والثقافة، ذو عقلية علمية مستنيرة، هادئ الطبع، خفيض الصوت، لا ينفعل. لمْ أره مرةً يتملكه الغضب، وكان -الشيخ- من أنصار الأحرار الدستوريين، ويعرف أنني وفديٌّ صميم، ومع ذلك لم تتأثر علاقتنا أبداً»!

* * *

لمْ تمضِ لحظات على نبأ وفاة (الإمام الأكبر) حتى ارتجَّتْ العواصم العربية والإسلامية، واجتمعت المؤسسات العلمية، والمحافل الفكرية، ومنها «مجمع اللغة العربية» بالقاهرة، حيث وقف «خليل السكاكيني» الذي اختير عضواً بالمجمع، خلفاً للإمام- وألقى كلمة ضافية عن مكانة الإمام الأكبر وعلمه، قال فيها: لوْ لم يسبقه الخليلُ بن أحمد الفراهيدي لكان هو أول من وضع (علم العروض) ولوْ لم يسبقه سيبويه لكان هو إمام النحاة غير منازع، ولوْ لم يسبقه عبد الرحمن الهمذاني صاحب كتاب «الألفاظ الكتابية» لكان هو أول من جمع شذور العربية الجزلة في أوراق يسيرة، ولوْ لم يسبقه ابن خلدون لكان هو أول من وضع علم الاجتماع، ولوْ لم يسبقه أرسطو لكان هو أول من وضع علم المنطق .. ولوْ فُسِح له في الأجل لكشف القناع عن حقائق كثيرة مجهولة»!

وقد رثاه الدكتور/ طه حسين، فقال: «هذا هو مصطفى عبد الرازق: إمامٌ في خُلقه، إمامٌ في دِينه، إمامٌ في عِلمه، إمامٌ في أسلوبه، إمامٌ في أدبه، رحمه الله رحمةً واسعة»!

كما رثاه تلميذه الدكتور/ إبراهيم مدكور- في كلمةٍ ألقاها في المؤتمر الذي أقامته الجامعة الأمريكية عنه ببيروت، سنة ١٩٦١م، فقال: «الإمام مصطفى عبد الرازق رئيس مدرسة، وإمام جيل، تخرج على يديه عدد غير قليل من أساتذة

اليوم، مزج الأدب بالفلسفة، وقرَّب الأزهر من السوربون، عوَّل ما وسعه على المصادر العربية وهو خبير بها وعليها قدير، وعرف كيف ينطقها، ويأخذ عنها».

بلْ شهد الجميع بنزاهة «الإمام» حتى الذين خالفوه في الرأي والمذهب، كالدكتور/ عبد الرحمن بدوي- فقد أشاد به -في مذكراته التي هاجم فيها الجميع- قائلاً: «لقد كان مصطفى عبد الرازق النُّبل كله، والمروءة كلها، كان دائماً هادئ الطبع، باسم الوجه، لا يكاد يغضب. وإنْ غضب لمْ يعبِّر عن غضبه إلاَّ بالحُمرة في وجهه وصمتٍ كظيم! لقد كان آية في الحلم والوقار، لكنه وقار عفو الطبع، لا تكلّف فيه ولا تصنع. وفي حالات الأنس بمحدثيه من الأصدقاء أو التلاميذ كان ودوداً محباً للسخرية الخفيفة، وإذا أراد التقريع؛ لجأ إلى التهكم اللاذع»!

* * *

كان الشيخ «مصطفى عبد الرازق» من أعرق بيوت العلم بمحافظة المنيا، فوالده من مشاهير العلماء، وشقيقه الشيخ/ علي عبد الرازق. وقد ترك الشيخ كثير من المؤلفات، منها: البهاء زهير، تمهيد لتاريخ الفلسفة الإسلامية، الدِّين والوحي في الإسلام، الإمام الشافعي، فيلسوف العرب والمعلم الثاني، محمد عبده. وترجم إلى الفرنسية كتابيْ الشيخ/ محمد عبده: رسالة التوحيد، والعقيدة الإسلامية. وكتاب: «طيف ملكي» لقدرية حسين، وله مجموعة من المقالات نشرت في «الجريدة» بعنوان «كراسات بخط صديقي الشيخ حسان عامر الفزاري» وهو شخصية متخيلة رمز بها الكاتب لنفسه، مما يدخل هذا العمل في فن السيرة الذاتية، وغيرها.

هذا؛ وقد نظم الشيخ/ مصطفى- كثيراً من الشِّعر في مرحلة الشباب فقط، وتناول كثير من الأغراض المرتبطة بمناسبات؛ كالرثاء والتهنئة والحكمة، وتظهر لغته القوية الجزلة، ومعانيه الواضحة .. استمع إليه في قصيدة (رزء المجد) وهو يرثي والده:

وقيتَ الـردى يأيّهـا الرجـل الفـردُ ... بـلى رزئـتْ فيـك المـروءة والمجـدُ

سلكت سـبيل الرشـد في نفـع أمـةٍ ... أضـرّ بهـا قـوم يغـيظهم الرشْـد

وجلّيْت وجه الحق للنـاس سـاطعًا ... وقـد لعبـتْ بـالحق ألسـنة لُـدّ

لـك الله مـا وفّـرت للـنفس راحـةً ... وجاهدت حتى نال من نفسك الجهد

بلونـاك في جـدِّ الزمـان وهزْلـه ... فما كنت إلاّ السيف في حدّه الحدّ

فقيدَ العـلا طابـت حياتـك كلهـا ... فأولهـا حمْـدٌ، وآخرهـا حمـد

لقد كنت طود الفضل فاندكَّ طـوده ... وكنـت نظـام العقـد فـانفرط العقـد

نعـوْك فحاقـت بـالبلاد رزيّـةٌ ... وطاف بها جنح مـن الخطـب مسـودّ

وأضحت قلوب لا تفيق من الأسى ... وباتـت عيـون لا يزايلهـا السـهد

بكى الشِّيبُ والشبان يـوم مصـابهِ ... فمـا دفـع المقـدورَ شِـيْبٌ ولا مُـرْد

نسير بـنعش حولـه النـاس خشّـعًا ... وجنـد مـن الأمـلاك يتْبعـه جنـد

شـققْنا بصـحراء الإمـام ضـريحه ... وثمّـتَ ألقـى رحْلـه الأسـد الـورد

دفنـاك في قبـرٍ وعُـدْنا بـأنفُسٍ ... يقـوم بهـا وجْـدٌ، ويقعـدها وجـد

لعمـرك مـا في العـيش بعـدك لـذةٌ ... ومـا سـاءني نحْـسٌ ولا سـرني سـعد

تساوى ظلام الدهر عنـدي ونـوره ... وسيّان صـابٌ مـا تـذوقتُ أو شَـهْد

أروح وأغدو موجـعَ القلـب ليتني ... صـريع حمـامٍ لا أروح ولا أغـدو

أدور بعينـي لا أرى غيـر لحـده ... كـأنَّ جميـع الكَـون ذلكـم اللحـد

إذا قلت لانَ القلـب للصـبر سـاعةً ... غَذَتْـه تبـاريح الهمـوم فيشـتدّ!

ألاَ أيها المـولى سـقى قبـرك الحيـا ... ففـي كبـدي مـن لـثْم تربتـه بـرد

وفيـتُ بعهـدي والوفـاء سـجيتي ... وفي الناس قومٌ لا يصان لهـم عهـد!

وقد غلب على شِعر الشيخ/ مصطفى عبد الـرازق- الطـابع الأخلاقـي؛ تـأثرًا بتكوينه الثقافي الديني والتراثـي، وأغلـب أشـعاره في الـوعظ والإرشـاد، وغيرهـا كالحض على القيم والمبادئ الأصيلة .. كما في قصيدته (أجلّ الأمور) التي يقـول

فيها:

أجــلّ الأمــور أمــور الجــلال — وصــدق العزيمــة شــأنُ الرجــال
يســوّد فعــلُ الشــرور الضــحى — وتبــيضُّ بــالخير ســود الليــال
يريــد اللئــيم دنيء الفعــال — ولا يرتضــي المــرء إلاّ الكمــال
يســارع للمكرمــات الكــريمُ — بعــزم يدكــدك شُــمَّ الجبــال
ليــرمِ الفتــى أي ســهم يــرى — ففــي جعبــةِ الــدهر كــلّ النصــال
لجهــل يُضــيع الفتــى عمــره — بفعــل الخنــا وبقيــل وقــال
ألــيس الزمــان مجــال اكتســابٍ — وهــل ذلــك الســعي إلاّ نضــال
يــدوم المجــدُّ عــلى مجــده — وهــا مجــدنا بعــد أن حــلّ حــال
لغيــر السياســات أدعــوكم — فــإنّ لكــل مقــام مقــال!
بنــي العِلْــم، أيــن اتحــاد القلــوبِ — وأيــن وأيــن جليــل الفعــال
تعلمــتمُ ثــمَّ قصّــرتمُ — فضاعت سنون الدروس الطوال!

العارف بالله

في منتصف الأربعينيات من القرن الماضي؛ سافر نفرٌ من الضباط في مهمة عسكرية شرقي الأقصر؛ وهنالك شعروا بالجوع الشديد، فراحوا يبحثون عن طعامٍ لهم .. فمروا على خيمةٍ بها جماعة من الزهَّاد والمُريدين، يستمعون إلى شيخهم. وسألوهم عن أقرب مطعم أوْ كافتريا، فاستضافوهم في الخيمة المتواضعة، وأكرموهم غاية الكرم! وعند مغادرتهم المكان؛ نادى الشيخ على أحدهم، وسأله عن اسمه؟ فقال: (جمال). ثمَّ سأله عن بلدته؟ فقال: مركز (بني مُر)! فقبض الشيخ على كتفه قبضةً شديدة، وقال: اتَّقِ الله في الفقراء والمساكين؛ عندما يصبح لك سلطان عليهم! فهزَّ رأسه ومضى، ثمَّ راح يحكي لزملائه عن وصية الشيخ، فضحكوا جميعاً، حتى سقطوا على الأرض من فرط الضحك، وهم يقولون له: اتَّقِ الله فينا يا سيادة المحافظ!!

* * *

هذا؛ وفي حقبة التسعينيات؛ توثقتْ علاقتي بمعالي الدكتور/ حسن عباس زكي –الرئيس العام لجمعيات الشبان المسلمين العالمية. وفي يوم من الأيام، دار الحديث عن الصعيد الجواني وأهله، وسألني الدكتور: هل تتردَّد على (الساحة الرضوانية)؟ فقلتُ له: أنا من رواد (ساحة آل الطيِّب) غرب النيل. فتهلَّلَ وجهه بالسرور، وقال: سأذكرُ لك حكاية طريفة حدثتْ عندما كنتُ وزيراً للخزانة؛ إذْ كان الرئيس/ عبد الناصر في حالةٍ شديدةٍ من الإحباط والضيق، فقلتُ له: عندما

أكون في مثل هذه الحالة؛ أتوضأ وأُصلِّي وأتأمل صنائع الخالق العظيم .. فأناجيه وأظلُّ أدعوه وأستغفره كثيرا .. وأودُّ أن أقول لك: إنَّ ثوابك عظيم -على قدر رؤيتي الروحية- إذْ تكفي صلواتك الخمس، مع قيامك بهموم الشعب ومشاكله التي تحملها فوق عاتقك، ومع ذلك فأنتَ في حاجة بين حينٍ وآخر أن تقطع الطريق على نوبات الإحباط والضيق، وربما يحتاج الأمر إلى جلسة روحية مع أحد الأولياء الصالحين! جلسة مصارحة ومكاشفة وجدانية، جلسة تطهُّر وشفافية، لنْ تندم يا سيدي لوْ جرَّبتَ ذلك.

فقال عبد الناصر: عايزنى أعمل إيه؟ قال الوزير: أنصحكَ بصحبة العارف بالله الشيخ (أحمد أبو رضوان) هذا الوليّ الصالح المقيم بجنوب قنا، قد تراه بسيطاً في مظهره، لكنه عظيماً في باطنه؛ فهؤلاء الناس لا يلقون بالاً لهذه الدنيا وما فيها .. اجلس معه واكشف له عن مواجعك؛ لتخفِّف ما ينقض ظهرك، فإنَّ مع العسر يسرا. ردَّ عبد الناصر قائلا: طيِّب -يا سي حسن- كيف نلتقي بالشيخ أبو رضوان؟ فقال الوزير: اترك الأمر لي، والله المستعان!

قال الدكتور/ حسن عباس زكي: كنتُ أعلم أنَّ الشيخ/ أبو رضوان لا يفارق الساحة إلاَّ متجهاً إلى البقاع المقدسة؛ فسافرتُ بنفسي إليه، وطلبتُ منه زيارة الرئيس عبد الناصر، فدندنَ طويلاً، حتى ظننتُ أنه لنْ يقبل، ثم وافق، وقال: وليكن ما تريد!

وعند أول لقاء بينهما، وبمجرد أنْ رآه عبد الناصر؛ خَرَّ يُقبِّل يديْه مرات ومرات! فأصابتني دهشة شديدة لِمَا رأيتُ أمامي! فتساءلتُ على الفور: وهل تعرف الشيخ؟ فقال الرئيس: لوْ سمحتْ؛ اخرج الآن -يا حسن بيه- واتركني مع سِيدي! ولمَّا طال اللقاء بينهما، وأدركتُ أنَّ مهمتي قد انتهت؛ انصرفتُ إلى منزلي، وكان ذلك قبيل غروب شمس يوم جمعة!

بعد صلاة العشاء بقليل؛ هاتفني الرئيس، وكان مضطرباً في صوته، وقال يا

حسن بيه: شيءٌ ما أغضبَ الشيخ أبو رضوان مني! فقد فتح الباب فجأة، وانصرف غاضِبا. فسألته ماذا حدث بالضبط يا سيادة الرئيس؟ قال: قدَّمتُ له علبة صدفية وبها بعض النقود، فرفضها على الفور، وألقاها في وجهي! مع أنني أقسمتُ له أنَّ هذا من مالي الخاص!

قلتُ: لا عليك يا سيادة الرئيس، فهؤلاء الناس لا يهتمون بالدنيا وزخارفها، دعني أصلِح الأمر بنفسي، فذهبتُ إلى الشيخ، وسألته ماذا حدث؟ فتمنَّع عن الحديث! فقلت له: الرئيس يدعوك لزيارته مرة أخرى، فضحكَ .. وكأنَّ شيئًا لم يكن، وزال الالتباس، وبقيَ الإشراق. ولكن قبل الزيارة قلتُ للرئيس أعطهِ مسبحةً أوْ مصحفاً بعد الجلسة معه.

استطرد الوزير/ حسن عباس زكى- قائلاً: لقد امتدتْ العلاقة بين الرئيس والعارف بالله على أحسن ما تكون العلاقة، ولمْ أتدخل في الأمر بعد ذلك، فقد عرف كل منهما طريقه إلى الآخر!

وكان الشيخ ﷺ يدعو للرئيس، ويُقدِّم له النصح والإرشاد، ولمَّا سمع بعض المريدين برفض الشيخ للمال الذي قدمه له الرئيس، قالوا له: لماذا لم تأخذه وتوزِّعه على الفقراء؟ قال: رفضته، لأنني أريد أنْ يكون الأجر من الله وحده!

وقد سئل ﷺ بعد عودته من زيارة الرئيس .. كيف كان حال عبد الناصر في بيته؟ فقال كلمةً تحمل كثيراً من معاني الفهم والفطنة، قال: رأيته رجلا شهما.

* * *

عندما اشتدَّ المرض بالشيخ/ أبو رضوان، بعث الرئيسُ عبد الناصر طائرته الخاصة لنقله للعلاج في المستشفى العسكري بالقاهرة، وصحبه في هذه الرحلة (فريد باشا زعلوك) وزير التجارة والصناعة في العهد الملكي، وكانت رغبة الشيخ أبو رضوان ألاَّ يذهب إلى المستشفى، لكن سعد الدين الشريف -طيار

عبد الناصر- طالب أن يذهب بالشيخ إلى المستشفى العسكري للعلاج بأمر الرئيس. فلمّا أعيتْ الحيلةُ فريد زعلوك، اقترح بأن يذهب بالشيخ للراحة في بيته بمصر الجديدة، وبعدها يذهب إلى المستشفى.

رفض الشيخ أبو رضوان أن يخرج من بيت آل زعلوك بمصر الجديدة، وظلَّ يتعاطى العلاج في البيت. وقد قامت الحاجة/ زينب زعلوك على تمريضه والعناية به وتقديم الطعام له. وانتقل -في تلك الفترة- مجلس الشيخ إلى بيت آل زعلوك!! وكان يحضر هذا المجلس الدكتور/ عبد الحليم محمود شيخ الأزهر، والشيخ/ أحمد الشرباصي وزير الأوقاف، والشيخ/ أحمد حسن الباقوري رئيس جامعة الأزهر، وكوكبة من علماء الأزهر، ورجال السياسة، والشخصيات العامة.

* * *

في أخريات أيامه ﷺ في بيت آل زعلوك؛ امتنع عن الطعام والشراب، ورفض أن يتعاطى الدواء، حتى إنَّ الحاجة/ زينب؛ دخلت عليه مرة بالطعام، فسألها عن حال أمها وكانت مريضة أيضا، فقالت: إنَّ حالتها غير مستقرة، فقال لها الشيخ: أنا وهى لا يطيب لنا العيش إلاَّ في جناب المَلِك العلاَّم!

تقول الحاجة زينب: «دخلتُ عليه وأنا باكية، فسألني ما بكِ يا بُنيتي؟ فقلت: حالك وعدم أكلك وشرابك، فقال: هاتِ لي الطعام، وأحضرتُ له كثيراً من الطعام، ثم طلب مني التليفون ليكلِّم ابنه الحاج صالح -في الأقصر- وعندما أحضرتُ له التليفون، طلب منى أن أخرج، فحزنتُ ولم أكن أدري ما سِر ذلك؟ ثم طلب منى كوباً من اللبن فشربه أمامي، وقال رضى الله عنه: (**به بدأنا وبه انتهينا**)! ثم أمرني أن أخرج وأن أغلق الباب وألاَّ يدخل عليه أحد، ولم أكن أعلم أن مكالمته لابنه فيها وصيته، والتي أخبره فيها بدنو أجله؛ ولذلك أمرني بالخروج حتى لا أسمع ما يقول!

لقد طويتْ هذه الصفحة المشرفة من صفحات الخالدين في يوم الأحد، الثالث

من ربيع الأول عام ١٣٨٧ﻫ الموافق/ العاشر من يونيو عام ١٩٦٧م، وقد صلَّى عليه الشيخ محمد زكى إبراهيم -رائد العشيرة المحمدية- ثم نُقِلَ الجثمان الطاهر إلى مقره الأخير بالبغدادي شرق الأقصر، عن طريق القطار، وذلك لتوقف حركة الطيران بعد العدوان الإسرائيلي في الخامس من حزيران عام ١٩٦٧م.

قرر القصر الجمهوري إعداد عربة مكيفة بالدرجة الأولى لنقل المعزيين من القاهرة إلى الأقصر بالسكة الحديد مع جثمان الشيخ، وكان على رأس المرافقين السيد فريد باشا زعلوك، والقاضي محمد راشد، ورائد العشيرة المحمدية، والسيد أبو الوفا دنقل، وغيرهم، وكانت طوائف المعزِّين من محطة قنا وما خلفها إلى أسوان تزاحم فراغ القطارات حتى لا يوجد موضع قدم، وقد ازدحم مسجد الشيخ وساحته المباركة بالوافدين من جميع الجهات، وتكررت الصلاة على جثمانه الطاهر مرات ومرات!

* * *

بعد أقل من عام من وفاة الشيخ أبو رضوان؛ قام عبد الناصر بزيارة خاصة إلى الأقصر، وافتتح (الساحة الرضوانية) ومنذ ذلك الوقت؛ نالت الساحة شهرة واسعة، فكل من يلِج الأقصر؛ يبدأ بزيارتها، ليصلِّي بها، ويتناول من طعامها وشرابها .. وربما يبيتُ بها؛ ليستمتع بأمسياتها الروحية!

أجل؛ لقد زار «الساحة الرضوانية» كثير من مشاهير العلماء والساسة ورجال الفكر والأدب من مختلف أنحاء العالم، وألقوا فيها الخُطَب والدروس، والمحاضرات، أمثال: الإمام الأكبر/ عبد الحليم محمود، وعبد الرحمن بيصار، وعبد المنعم النمر، والباقوري، والشعراوي، ومحمد سيد طنطاوي، وأبو الحسن الندوي، وعبد الحليم عويس، ومحمد سليم العوا. وزارها -أيضاً- الرئيس السادات، والنميري، والرئيس/ شيراك، ووزير خارجية إيران السابق/ علي لاريجاني، ووزير خارجية السودان/ مصطفى عثمان، وعصمت عبد المجيد،

وغيرهم ... مما صبغ الساحة بالطابع السياسي، الذي كاد يطغى على طابعها الروحي الذي أُنشئتْ من أجله! حتى إنَّ السياح يذهبون إلى هناك، ويشهرون إسلامهم لِمَا يلمسوه من فيض الأنوار، والبركات التي تتنزل في هذه الساحة المباركة!

وليس سِراً؛ أنْ أفصِح -للقارئ- أنني عندما كتبتُ المجموعة القصصية (سجادة الخضر) استلهمتُ أكثر حكاياتها من وقائع وأحداث وطرائف الساحة الرضوانية!

* * *

في كتابه «سيرة الشيخ أحمد رضوان» يقول الدكتور/ محمد فؤاد شاكر: «لقد تنبأ الشيخُ بقرب وفاته، ففي سفره الأخير؛ طلب أن يجمعوا له من الأحباب والمريدين ما استطاعوا، ولمَّا اكتظتْ الساحة عن بكرة أبيها؛ ظلَّ يتجول بينهم يمنةً ويسرة، وهو يتوكأ على عصاه، ثم يعانق هذا، ويصافح هذا، ويضع يده على رأس هذا، ويضرب بمسبحته هذا، ثم ألقى عليهم موعظةً بليغة، لا زال الناس يرددونها، ويتذاكرونها، ويوصي بها بعضهم بعضا، قال فيها: (أبنائي أوصيكم بالتوبة النصوح، والإقبال على الله تعالى، وأن تكتفوا به، وأن تخرجوا من حولِكم وقوَّتكم، فإذا أقامكم في الأسباب فلا تقفوا معها، وكونوا معه، فإنه قادر أن يسلب منكم الأسباب من سمع وبصر وقوة وكلها بيده، ومن وقف مع السبب حجِبَ عن الله تعالى، وراقبوه في الأسباب ولا تغفلوا عنه، فمن شغله المُسخَّر عن المُسخِّر فهو عبد سوء يجب أن يتوب عن هذا .. اللهمَّ تب علينا توبة لا تقضي عهدها أبدًا حتى نراك، بجاه نبيك ﷺ).

ومن أكثر الوصايا التي كان -الشيخ- يلقيها على مريديه: (الحذر أن تفرحوا بغير الله، وجالسوا الصالحين الذين يذكِّرونكم بربكم، وإياكم والعلماء المفسدين، وعيشوا كأنكم في سفرٍ عاجل، وأكثروا العمل، وحافظوا على

الصلوات مع حضور القلب، والله أسأل أن يجعلنا في المعيَّة الكبرى معية سيد الأولين والآخرين).

كان «الشيخ» يقول: والله الذي لا إله إلاَّ هو ما غِبتُ عن رسول الله ﷺ، وكيف أغيبُ عنه؟ وأنا مكلَّف بالمتابعة، قال تعالى: (وإنَّ ربكم الرحمن فاتبعوني وأطيعوا أمري)! وما خرج منى هذا الكلام وغاب عقلي عنه ﷺ. فالتصوف هو الغيبة عن الأكوان، والحضور مع الرحمن، والاقتداء بخير الأنام، وليس التصوف لبس الصوف أوْ هزّ الرأس ولا هزّ المسبحة.

* * *

تزوج «الشيخ» مرتين: زوجته الأولى وهى قرشية، والثانية جعفرية، وأنجب أربعة ذكور وخمسة إناث، منهم الشيخ محمد، والشيخ صالح، والشيخ عبد الله أحمد رضوان -وريث النورانية الرضوانية، وشبيه أبيه والمبشَّر منه بخروج الخيِّرين من أصلابه! والشيخ زين العابدين -وهو البقية الباقية من هذه الشجرة المباركة، تخرج في جامعة الأزهر، وهو مادح للرسول الأعظم، وله مع مدح الرسول حال مشهور وحب موجود، وقد كان والده -رضى الله عنه- يجلس إليه، ويأمره بأن يمدح بين يديه .... فسلام على آل رضوان في العالمين!

ثكلتكَ أُمكَ إنْ لمْ تمرَّ بدورهم   مَنعوكَ من عُدمٍ ومِن إقتارِ!

تاج العلماء

كان الدكتور (عبد الرحمن تاج) أستاذاً كبيراً، وشيخاً جليلاً، وتاجاً للعلماء!

يحكي الكاتب/ سليمان فياض- في كتابه «أيام مجاور» جانباً من حياته؛ التي قضاها طالباً «مجاوراً» بمعهد الزقازيق الديني في أربعينيات القرن الماضي؛ فيقول: «عندما اختير عبد الرحمن تاج» شيخاً لمعهد الزقازيق الديني- قبل أنْ يصبح شيخاً وإماماً للجامع الأزهر .. رأيته أول مرة عصر يومٍ ما، يمسك بمقشَّة، وبجانبه سلَّة وجردل مليء بالماء، وهو يروح ويجيء .. كانساً أرض المعهد بالمقشة بيده التي تمسك بالقلم، ويده الأخرى التي تمسك بالأوراق؛ حتى ظننته لأول وهلة ساعياً جديداً بالمعهد، وقد بلغتْ صدمتي منتهاها حين قيل لي: إنه شيخ المعهد الجديد! ولمْ تمضِ ساعات قليلة؛ فإذا بباحات المعهد مكنوسة مرشوشة، وبواكيه تضوي، ومصابيحه عند الغروب تتلألأ، وأحواض الحمامات تلمع، وجداران المباني الحجرية داخل الفصول وخارجها تبدو وكأنها خرجت لتوها من أيدي البنائين!

اعتاد «الشيخ» أنْ يفاجئ كلَّ مكان بالمعهد في مواعيد متكررة ومفاجئة، ويسعى مهيباً بين قاعات الدرس وعنابر السكن، ويتحدث بهدوء بالغٍ إلى الطلاب والشيوخ والسعاة، ويترك بابه مفتوحاً لكل قادم. أمَّا في الليل؛ فقد كان الليل له وحده .. مع خواطره، وكتبه وقلمه وأوراقه»!!

كان «عبد الرحمن تاج» يرى أنَّ كرامة الأزهر من كرامة شيخه، ففي عام ١٩٥٥م تلقى -فضيلته- دعوة رسمية من «سوكارنو» رئيس جمهورية إندونيسيا؛

لزيارتها والمشاركة في احتفالها القومي؛ بوصفه شيخاً للأزهر. في الوقت ذاته سافر وفد الحكومة برئاسة قائد الجناح «جمال سالم» واستقلُّوا طائرة واحدة. وهناك كان الاستقبال بالغ الحفاوة بوفد الأزهر وشيخه الجليل، وانصراف الناس –إلى حد الإهمال– عن وفد الحكومة برئاسة جمال سالم! فهاج جمال سالم، وطلب أن يعود شيخ الأزهر ورجاله في الحال. لكن (الإمام) رفض رفضاً قاطعاً، واستمر في الرحلة يرد التحية بأحسن منها لمستقبليه الرسميين والشعبيين!

من مواقفه أيضاً؛ أنَّ «علي صبري» وزير الدولة لشئون الرئاسة– كانت له سلطات واسعة .. وطالما اتصل بالشيخ؛ طالباً منه مطالب معينة، لكن «عبد الرحمن تاج» كان يرفض مطالبه! وفي أوائل عام ١٩٥٧م فوجئ (الإمام) وهو في مكتبه بقرار جمهوري بتفويض «علي صبري» في جميع صلاحيات رئيس الجمهورية في كل ما يختص بالأزهر. لكن (الإمام) رأى في هذا القرار مخالفة دستورية وقانونية للقانون رقم ٢٦-١٩٣٦، ومحاولة لفرض وصاية وزير على «المشروعية الإسلامية» التي يحمل الأزهر أمانتها. فقرر (الإمام) ألاَّ ينفِّذ هذا القرار الجمهوري. وبعد صدور القرار بأيام، أصدر «علي صبري» قراراً بإسناد منصب مدير إدارة الثقافة بالأزهر إلى الدكتور/ محمد البهي!

وكان «الإمام» نفسه يعتزم إسناد هذه الوظيفة للدكتور البهي، ولكن من أجل هيبة الأزهر ومنع التدخل في شئونه؛ رفض تنفيذ هذا القرار!! وأصدر «الإمام» قراراً بإلغاء إدارة الثقافة، وإعادة الدكتور «البهي» إلى منصبه أستاذاً بكلية اللغة العربية. ولمَّا فشل «علي صبري» في فرض وصايته على الأزهر؛ كان لابدَّ من حيلة لإبعاد «الإمام» عن المشيخة .. ففي أول سبتمبر ١٩٥٨م أُنشئ أول اتحاد بين مصر وسوريا واليمن، فصدر قرار بتعيين «عبد الرحمن تاج» وزيراً في الوزارة الاتحادية، باعتباره قامة إسلامية كبيرة، وأنَّ «الإمام أحمد حميد الدين» إمام اليمن– يرغب أن يكون بجواره في الإتحاد شخصية دينية مرموقة .. وبهذا أُبعِدَ «شيخ الأزهر» العنيد؛ الذي حافظ على هيبة الأزهر وكرامته!

إنَّ هذه المواقف وغيرها؛ جعلتْ «عبد الرحمن تـاج» أسـتاذاً، وشـيخاً، وتاجـاً للعلماء!

عندما اختير (عبد الرحمن تاج) عضـواً بـالمجمع اللغـوي عـام ١٩٦٣م؛ قـال الشيخ/ علي عبد الرازق: «إنَّ فضيلة الأستاذ/ عبد الرحمن تاج- حصل من الرتب العلمية والدرجات ما رفعه إلى مستوى لا مطمع لكثيرٍ من الناس أن يصـلوا إليـه، ولكن هو نفسه استطاع أن يبلغه، وأن يبلغ من الفضل مقاماً فـوق ذلـك مظهـراً أوْ أرفع قدرا، وأكبر مقاما، مقام تتهاوى دونه درجـات العلمـاء ومقامـات الخبـراء، وتتخاذل دونه الألقاب. وترتد المطامع عنده ..»!

في يوم رحيل «الإمام)» عام ١٩٧٥م؛ قال «الشيخ علي الخفيـف: (كـان فقيـدنا الدكتور الأستاذ الإمام ﷺ من أولئك الذين حبوا بعلمهـم، وسـموا بـأخلاقهم، وعملوا بعلمهم فكتبوا لأنفسهم الخلود بما تركوا من علم يتوارث. وأفكار تهدى، فكان فيه الأسوة الحسنة لمن أراد لنفسه سمواً لمنزلة عليا، ولذكرهِ بقاء، ولحياتـه خلودا. لقد فقدنا بفقده ﷺ الشيخ الجليل، والإمام العظيم، فكان الخطـبُ فيـه جللا، والخسارة فادحة، لا للأزهر وحده، ولا لمجمع اللغة العربية فحسـب. بـلْ للأمة الإسلامية جمعاء).

مَن هو عبد الرحمن تـاج؟!

ينتمي «عبد الرحمن تاج» إلى أصلح عائلة بمدينـة أسـيوط، التـي وُلِـد بهـا عـام ١٨٩٦م، وحفظ القُرآن الكريم، وهـو في سـنِّ العاشـرة حفظًـا وتجويـدًا، وتلقَّـى بعض الروايات في قراءته على يد كبـار القُـرَّاء، كمـا تلقَّـى مبـادئ العلـوم الدينيـة والعربية، وحفظ عددًا من المتون كـ«الآجرومية»، و«متن أبي شجاع»، و«ألفية ابن مالك». ويبدو أنَّ ألمعيته قد أضاءت مبكرا. إذْ تقول بعـض المصـادر: إنَّ «سـعد زغلول باشا» وهو في جولة تفقدية للمؤسسات التعليمية بأسيوط؛ لمح ذكـاء هـذا الطفل، وسرعة بديهته وإجاباته السديدة، ما يشير إلى تقدّم عمره العقلي على العمـر

الزمني! فرأى أن يكافئه ويشجعه؛ فقرر إلحاقه بالمدارس الأميرية على نفقة الدولة، إلاَّ أنَّ أسرة الطفل حرصت على أن يكون تعلميه –بعد الكتَّاب– في الأزهر الشريف!

هذا؛ وقد انتقلت الأسرة بعد ذلك إلى الإسكندرية، فالتحق بمعهد الإسكندرية الديني، ونال شهادة التخصص، وعيِّن مدرساً لمعهد أسيوط الديني، ونقل بعدها إلى القاهرة. وفي عام ١٩٣٣ أصبح مدرساً بكلية الشريعة، وعضواً ممثلاً للمذهب الحنفي بلجنة الفتوى بالأزهر. وفي عام ١٩٣٦ سافر في بعثة تعليمية إلى باريس ليحصل من «السوربون» على الدكتوراه في الفلسفة وتاريخ الأديان، وهناك تعلم الفرنسية وأجادها، وألَّف بها كتابه «البهائية والإسلام».

عاد «الشيخ» إلى مصر، فاختير للتدريس بقسم القضاء الشرعي، وأصبح سكرتيراً فنياً بلجنة الفتوى، وعهد إليه بإدارة كلية الشريعة، ثمَّ شيخاً للقسم العام والبعوث الإسلامية، وفي عهده تمَّ بناء «مدينة البعوث الإسلامية» لسكنى المغتربين من طلاب العالم الإسلامي بدلاً من السكن في الأروقة. وفي عام ١٩٥١م تقدم برسالة عن «السياسة الشرعية» نال بها عضوية «هيئة كبار العلماء». كما عمل أستاذاً للشريعة الإسلامية بكلية الحقوق جامعة عين شمس، وكان عضواً بلجنة دستور ١٩٥٣م.

* * *

في السابع من يناير عام ١٩٥٤م؛ صدر القرار الجمهوري بتعيينه شيخاً للجامع الأزهر؛ فصار بذلك الشيخ (السادس والثلاثون) في تاريخ المشيخة. وكان أول ما فكَّر فيه؛ النهوض بالأزهر على جميع المستويات؛ فأدخل نظم التربية العسكرية بالأزهر، وتشجيع الأنشطة الرياضية بشتى أنواعها، وأدخل تعليم اللغات الأجنبية، وظل في منصبه حتى عام ١٩٥٨م.

هذا؛ وقد أشاد الذين عاصروا «الإمام» بورعهِ وتقواه، فمن أقواله: (لا فقه

بدون ورع)! كما تحدثوا عن علمه الغزير، وجمعه بين الثقافتيْن الشرقية والغربيـة، ممـا أدى إلى اختيـاره عضـواً بمجمـع الخالـدين، وشـارك –فضـيلته- في أعمـال المجمع مشاركة فعَّالـة في مؤتمراتـه ولجانـه، خاصـة لجـان القـانون والاقتصـاد والأصول والمعجم الكبير. وقدَّم عدة بحوث ودراسات ذات أثر علمي كبير. كما قدَّم للمكتبة الإسلامية كتباً وبحوثـاً في مجـالات كثيـرة منهـا: دراسـات في الفقـه المقارن، مـذكرات في تـاريخ التشـريع، أحكـام الشـريعة الإسـلامية في الأحـوال الشخصية، السياسة الشرعية والفقه الإسلامي، التأمين على الحياة من وجهـة نظـر الشريعة الإسلامية، شركات التأمين من وجهة نظر إسلامية، حكم الربا في الشريعة الإسلامية، تاريخ التشريع الإسلامي، وغيرها.

رحم الله «عبد الرحمن تاج» ذلـك العـالِم الجليـل؛ الـذي شـرف بـه الأزهـر، وشرفتْ به وبأمثاله أرض الكنانة، ونفع بتراثه العلمي الأجيال تلو الأجيال!

جيفارا العرب

الارتباط والتكامل بين «العروبة» و«الإسلام» الذي دعا إليه (عبد الرحمن عزام) لا يظهر في مؤلفاته فقط؛ بلْ كان مشروع حياته كلها منذ شبابه حتى وفاته؛ فعندما كان يدرس بكلية الطب بجامعة لندن؛ سارع إلى ميدان القتال تحت الراية الإسلامية في البلقان، وعندما ثار شعب ليبيا ضد الاستعمار الإيطالي والإنجليزي؛ سارع «عبد الرحمن عزام» للجهاد، وحمل السلاح ضد الغزاة والمستعمرين. لذلك؛ أطلقوا عليه (جيفارا العرب) لأنه شارك في حروب كثيرة، ضد الغزاة والمستعمرين؛ فقد حارب (الصرب) في صفوف العثمانيين، وحارب (الفرنسيين، والطليان) مع أحمد الشريف السنوسي، وحارب (الإنجليز) مع اللواء/ محمد صالح حرب، وأنشأ الجيش المرابط خلال الحرب العالمية الثانية، وساهم في صنع أول جمهورية في العالم العربي «الجمهورية الطرابلسية»، وأصبح مستشاراً لها. وفي ١٩٢٣م عاد (عزام) إلى مصر، وانتخب بمجلس النواب، وفي ١٩٣٦م عينه الملك فاروق وزيراً مفوضاً وممثلاً فوق العادة للمملكة المصرية، وفي ١٩٣٩م أصبح وزيراً للأوقاف. كما شارك في الوفد المصري لمؤتمر فلسطين في لندن سنة ١٩٣٩م. فمشوار حياته وسيرته هي سِير المجاهدين وزعماء الإصلاح، أمثال: الكواكبي، والأفغاني، ومحمد عبده، وعبد العزيز جاويش، والنديم، والغاياتي، وغيرهم الذين أفنوا أعمارهم في ميادين الجهاد، من ميدانٍ إلى ميدان، ومن بلدٍ إلى آخر!

* * *

«عبد الرحمن عزام» هو ابن عم المفكر والأديب الكبير/ «عبد الوهاب عزام»، وهو أول من دعا لفكرة إنشاء اتحاد عربي يضم جميع الشعوب العربية، ومن بينها شعب فلسطين، وقد قدَّم مذكرة بذلك لعدد من ساسة الدول العربية، وقد تحمست الحكومة المصرية الوفدية برئاسة مصطفى النحاس باشا في ذلك الوقت لهذه الفكرة، وأُنشئ الاتحاد باسم (الجامعة العربية) ولهذا السبب اختارته الدول العربية فيما بعد أول أمين عام لها. ومنذ ذلك الحين، لا يذكر عبد الرحمن عزام دون أن تذكر الجامعة العربية. أوْ لا تذكر الجامعة العربية، إلاَّ ويذكر عبد الرحمن عزام!

لْم يكن عمل «عزام» بالجامعة العربية، عملاً سياسياً دبلوماسياً فقط، كما كان يريد بعض الحكام العرب، لكنه بقي وفياً للمبادئ التي دفعته للتطوع في ميادين الجهاد في: البلقان، وفي برقة، وطرابلس. وأهمها مبدأن: الأول: أنه لم يفرِّق بين العمل للعروبة والعمل للإسلام. الثاني: أنه لم يفرِّق بين العمل السياسي، والجهاد في ميادين القتال.

لاشك أنَّ الساسة العرب الذين عاصروا عبد الرحمن عزام، كانوا بعيدين عن هاتيْن الفكرتيْن، وكانوا يرون أنَّ (الجامعة العربية) لاعلاقة لها بالإسلام، ويقولون: إنَّ الجامعة ليست لها شخصية دولية، وليس لها سياسة خاصة بها، لأنها ليست دولة فوق الدول، وإنما هي نظام بيروقراطي لتنفيذ سياسة الدول الأعضاء، فلا يمكن أن يكون لها نشاط إلاَّ عن طريق حكومات الدول الأعضاء، وكثير منهم لْم يكن يخفي معارضته لمواقف (عزام) وتصريحاته الجريئة، خاصة بالنسبة لشمال أفريقيا. لكن (عزام) لم يقتنع بحجج هؤلاء الساسة والحكام؛ فاستمر في عمله بالجامعة العربية معتبراً نفسه مجاهداً، كما كان قبلها ... فقد كان في جهاده؛ لا يفرق بين العروبة والإسلام، ولا بين ميدان القتال وميدان السياسة!

* * *

في بداية عمله بالجامعة؛ بدأت (إندونسيا) كفاحها ضد الهولنديين، فسارع إلى مساعدة الحركة الوطنية في إندونسيا، كما بدأ سياسة التقارب مع (الهند) التي أدت إلى تكوين كتلة دولية جديدة في الأمم المتحدة تحمل اسم (المجموعة العربية الآسيوية) كان هدفها الدفاع عن إندونسيا حتى نالت استقلالها. ولمْ يستمع لاحتجاجات بعض الزعماء العرب الذين قالوا: إنَّ إندونسيا ليست دولة عربية، فلا شأن للجامعة العربية بقضيتها. فردَّ عليهم بأنه بحاجة إلى مساعدة جميع الحركات الوطنية، وإلى التعاون مع المجموعة الآسيوية لقضية فلسطين، وقد تعاونوا معنا –بالفعل– في قضية سوريا ولبنان ضد الغزو الفرنسي، حتى اعترفت فرنسا باستقلال الدولتيْن الشقيقتيْن. ولا يمكن أن نتخلى عن التعاون معهم ومع جميع المدافعين عن الحريات والاستقلال لجميع الشعوب، وقد سار في دفاعه عن إندونسيا حتى استقلت، كما استقلت سوريا ولبنان!

ولمْ تشغله قضية فلسطين ولا قضية سوريا ولبنان ولا إندونسيا عن حبه الأول لأرض ليبيا وشعب ليبيا المجاهد، فقد جعل همه الأول عندما أُنشِئتْ الجامعة؛ تمويل الحركة الوطنية في ليبيا ومساعدتها مادياً وسياسياً، حتى استقلتْ ليبيا كما استقلت سوريا ولبنان وإندونسيا، ودافع عن الحركات الوطنية في شمال أفريقيا، حتى استقلت المغرب وتونس والجزائر فيما بعد، وظهر للحكَّام والساسة العرب الذين كانوا ينتقدونه ويهاجمونه؛ أنه وإنْ كان قد خرج عن حدود العمل السياسي الذي رسموه للجامعة والأمانة العامة، إلاَّ أنه كان أبعد منهم نظراً، وأصدق نبوءة، وأن أهدافه كانت سابقة لزمانه، وأنها في اتجاه سير التاريخ الذي أثبت صحتها.

* * *

كان (الإنجليز والفرنسيون) أشدّ الناس خصومة لعبد الرحمن عزام وأخطرهم عليه؛ فعندما زار باريس أول مرة عام ١٩٤٦م تكلم عن القضايا العربية وسياسة الجامعة العربية إزاءها، ولم يقصر كلامه على قضية فلسطين ولا قضية ليبيا كما كان

الفرنسيون يتوقعون، وإنما تكلم عن قضايا تونس والمغرب والجزائر، مما أثار الفرنسيين، فراحت الصحف الفرنسية تهاجم عزام، وتطالب بطرده فوراً!

بعد خمس سنوات من زيارته لباريس؛ ذهب إليها عام ١٩٥١م ليدافع عن قضية المغرب أمام الجمعية العمومية لهيئة الأمم المتحدة، فعادت الصحف الفرنسية تهاجمه بشدة، وحاصرته الحكومة الفرنسية حصاراً شديداً، حتى لا يتصل بزعماء الحركة الوطنية في شمال أفريقيا!!

لكنه لمْ يأبه لهذا الحصار ولا لهذه الحملات الإعلامية، بلْ راح ينصح فرنسا بأنْ تنصِف شعوب شمال أفريقيا وتكسب ودهم وصداقتهم؛ لأنهم لا يمكن أن يرضوا بالتبعية، وقال: «إذا لم تنصفوهم؛ فسوف يلجأون للسلاح، وإذا حملوا السلاح؛ فلنْ يضعوه حتى ينالوا حقوقهم، لأنني أعرفهم أكثر منكم، وتجربتي معهم تؤكد ذلك»!

وقد أثبتت الأيام أنه كان صادقاً في رؤيته، فبعد بضع سنين من هذا الحوار حملت شعوب شمال أفريقيا السلاح، وكافحت حتى نالت استقلالها، وعلم الفرنسيون أن «عبد الرحمن عزام» كان أبعد نظراً، وأصدق نبوءة من جميع زعماء فرنسا وحكامها منذ نهاية الحرب العالمية الثانية، حتى جاء «ديجول» وأنهى حرب الجزائر.

لمْ يقصر «عزام» نصائحه على الفرنسيين فقط، وانما وجَّه نصائحه لزعماء شمال أفريقيا، فكان يقول لهم: «إنَّ الجامعة العربية لنْ تحصل لكم على الاستقلال، بلْ عليكم أن تاخذوه بجهادكم وتضحياتكم. وكل ما تفعله الجامعة، هو أن تساعدكم في جهادكم»!!

بلْ أكثر من ذلك؛ فإنَّ «عزام» قبل إنشاء الجامعة العربية وقبل الحرب العالمية الثانية؛ دعا مصر إلى إنشاء قوات مسلحة شعبية، وأقنع بذلك «علي ماهر باشا» عندما كان رئيساً للوزارة، وأُنشئتْ هذه القوات تحت اسم «الجيش المرابط»!

والذين عاصروا إنشاء هذا الجيش يعرفون كيف فزع الإنجليز من هذا الاتجاه الخطر عليهم، وكيف سعوا إلى إلغائه، ونجحوا في إقالة علي ماهر، وإخراج عبد الرحمن عزام من الوزارة، واضطهاده شخصياً في أقسى فترة مرت بحياته! فالجيش المرابط، كان في نظره إحياء لفكرة الجهاد الشعبي الإسلامي التطوعي، فالشعوب لا تنال حقوقها إلاَّ بالجهاد الشعبي ضد الغزاة والمستعمِرين، لذلك سارع بعد ذلك -وهو أمين عام الجامعة- بأن سخرها لمساعدة الفدائيين في فلسطين عام ١٩٤٧-١٩٤٨م وطلب من الحكومات العربية أن تسمح لضباط جيوشها بالتطوع لقيادة الكتائب الشعبية التي تمولها الجامعة العربية، وفعلاً صدر قرار بذلك، وتطوع كثير من الضباط لقيادة كتائب المقاومة الشعبية التي كان يقودها الشهيد البطل/ أحمد عبد العزيز!

بلْ إنَّ المتطوعين الذين بدءوا العمل الفدائى ضد الإنجليز في منطقة القنال عام ١٩٥٠م يعلمون أنَّ «عزام» لم يقصِّر في تدعيم الحركة الفدائية وتمويلها والدعاية لها، حتى اعترفت بها الحكومة المصرية، ودعمتها وشاركت فيها بقوات الشرطة. وإذا كان عزام قد أُبعِدَ عن الجامعة العربية، فإنه استمر في عزلته يدعو لفكرتيْن أساسيتيْن؛ اعتبرهما أهم خصائص الفكر الإسلامي، هما: فكرة الجهاد والفداء، وفكرة الوحدة الإسلامية، سواء كانوا عرباً أوْ غير عرب!

الحق أقول: إنَّ من يريد معرفة مدى عمق الفكرة الإسلامية لدى عبد الرحمن عزام؛ فعليه أنْ يقرأ كتاباته ومؤلفاته التي وضعت الأسس الفكرية لهذه المعاني العليا، يكفيه أنه مؤلف كتاب (مُحمَّد بطل الأبطال) وكتاب (الرسالة الخالدة). فرسالة العرب الخالدة في نظره؛ هي الرسالة الإسلامية كما آمن بها، وكما رسم خطواتها، ودافع عنها في هذا الكتاب. وأول أسس هذه الرسالة؛ أنها لا تقر الاعتزاز بعنصر أوْ جنس، وأنَّ قيمة الإنسان في عمله، وفى ساحة العمل والجهاد ينعم الجميع بأخوة التضحية، ووحدة المصير والتسابق للشهادة.

عبد الرحمن عزام (١٨٩٣- ١٩٧٦م) كان يتمنَّى «الشهادة» ويبحث عنها، فخاض ساحات القتال، حتى جاءه الموت؛ فحمله إلى «دار الخلود» ليحظى بصحبة زملاء الجهاد في البلقان وبرقة وطرابلس، فهنيئاً له بصحبة الشهداء ... وما أشرفها من صحبة، وما أعظمها من منزلة!

سفير الإسلام في اليابان

في يومٍ من أيام شتاء عام ١٩٠٦م بمدينة (جرجا) اشترى شابٌ أزهريٌّ صحيفة ليقرأها، ولفت انتباهه خبر مدهش، يقول:(رئيس وزراء اليابان الكونت «كاتسورا» أرسل خطابات رسمية إلى جميع دول العالم؛ ليرسلوا إليه العلماء والفلاسفة والمشرِّعين وكل زعماء الديانات؛ كيْ يجتمعوا بمدينة طوكيو فى مؤتمر عالمي يتحدث فيه أهل كل دِين عن قواعد دينهم وفلسفته، ومن ثَمَّ يختار اليابانيون بعد ذلك ما يناسبهم من هذه الأديان؛ ليكون ديناً رسمياً للإمبراطورية اليابانية بأسرها، وسبب ذلك أنَّ اليابانيين بعد انتصارهم المدوي على الروس فى معركة تسوشيما عام ١٩٠٥م، رأوا أن معتقداتهم الأصلية لا تتفق مع تطورهم الحضارى وعقلهم الباهر ورقيهم المادي والأدبى الذى وصلوا إليه؛ فأرادوا أن يختارو دِيناً جديداً للإمبراطورية الصاعدة يكون ملائماً لهذه المرحلة المتطورة من تاريخهم)!

عندئذٍ؛ أسرع -هذا الصعيدى الشهم- إلى شيوخ الأزهر يستحثهم بالتحرك السريع لانتهاز هذه الفرصة الذهبية لنقل الدِّين الاسلامي إلى أقصى بقاع الأرض .. فلمْ يجد استجابة لدعوته؛ فقرر السفر بنفسه لأداء هذا المهمة الجليلة!

* * *

على الرغم من الإحباط والتجاهل؛ لم يستسلم -هذا الصعيدي- فحمل هم أُمَّة كاملة على عاتقه، وانطلق إلى قريته؛ ليبيع خمس أفدنة من الأرض كانت جل ثروته؛ لينفق على نفسه تكاليف تلك الرحلة المجهولة؛ حيث سافر على متن باخرة

من الإسكندرية إلى إيطاليا ومنها إلى عدن باليمن ومنها إلى بومباي بالهند ومنهـا إلى كولمبو بجزيرة سيلان، ومن هناك استقلَّ باخرة لشركة إنجليزية متجهة لسنغافورة ثم إلى هونج كونج، ثم سايغون فى الصين ليصل في آخر المطاف إلى ميناء يوكوهاما اليابانى بعد مغامرة بحرية لاقى فيها الكثير من الأهـوال والمخـاطر ... وهنـاك فى اليابان كان العجب!

فلقد فوجئ الشابُ الصعيدى/ علي الجرجاوي- عند المينـاء بوجـود (شـيخ هندى، وشيخٍ بربريٍ من القيروان التونسية، وشيخ صينى من التركستان الشـرقية، وشيخٍ قوقازى من مسلمي روسيا) كل هؤلاء جاءوا مثلـه عـلى نفقـتهم الخاصـة؛ ليجدوا أن السلطان العثمانى «عبد الحميد الثانى» أرسل وفداً كبيـراً مـن العلمـاء الأتراك!

اجتمع أولئك الدعاة جميعاً وكوَّنوا وفداً إسلامياً ضـخماً مـن أقطـارٍ مختلفـة، ليحمل كل واحدٍ منهم رسـالة الإسـلام الحنيـف ليوصـلها إلى إمبراطـور اليابـان شخصياً..

لقد بدأتْ أولى جلسات المؤتمر في السادس من المحرم ١٣٢٤هـ/ الأول من مارس ١٩٠٦م، وينقل (الجرجاوي) إعجاب اليابانيين بالإسلام، لكـن المـؤتمر انتهى دون الاستقرار على دِين بعينه؛ فكل مجموعة من اليابانيين استحسـنت دينًـا دون الاتفاق على واحد منها، وإنْ كان غالبية من حضـروا المـؤتمر مـن اليابـانيين وجدوا في أنفسهم ميلاً للإسلام الذي أحسن علماؤه بيان ما فيه من قواعد ومبادئ يتفق معها العقل والمنطق.

هناك فى طوكيو أسلم آلاف على أيدى هؤلاء الدعاة، وكاد الإمبراطـور اليابـاني نفسه أن يُسلِم على يد ذلك الشاب الصعيدي -بعد أن أبدى إعجابه بالإسلام- إلاَّ أنه خاف على كرسي الإمبراطورية؛ بعد أن احتجَّ الكثير على ذلك المؤتمر!

فما كان من (الإمبراطور) إلاَّ أن وعد الشيخ الجرجاوى؛ أنه إذا وافـق الـوزراء

على تغيير دين الآباء؛ فإنه سيختار الإسلام بلا أدنى شك.

لَمْ يستسلم «الجرجاوى» ولَمْ ييأس، فقد تجول في كل المدن والشوارع والجزر، يدعو إلى الإسلام ورسالته العالمية، وقام بتأسيس «جمعية الدَّعوة الإسلاميَّة» بطوكيو، وذلك بصحبة ثلاثة من الدعاة، وهم: الروسي مخلص محمود، والهندي حسين عبدالمنعم، والصيني، الذي يدعى سليمان الصيني، وقد أسلم على أيديهم ١٢ ألف ياباني.

ثمَّ يعود بعدها إلى مصر؛ ليُصفَ تلك الرحلة العجيبة إلى بلاد الشرق فى كتاب يعدُّ من أجمل كتب أدب الرحلات فى القرن العشرين أسماه (الرحلة اليابانية) وضع فيه نفائس القصص الممتعة، وغرائب الحكايات الشيقة؛ التى عايشها فى رحلته الدعوية إلى اليابان!

* * *

عاد «الجرجاوي» بعد هذه الزيارة بأخبار وحقائق قام بنشرها في كتابه الذي صدرت طبعته الأولى عام ١٩٠٧م على نفقته الخاصة، وأصبح معروفًا بأول داعية للإسلام في اليابان؛ خاصة بعدما قالوا عنه: «هذا الرجل لوْ ظلَّ في اليابان لاعتنق معظم أهلها الإسلام».

أجل؛ عاد الشيخ «علي الجرجاوي» إلى مصر، واستأنف العمل بالصحافة، وأصدر جريدة «الأزهر المعمور»، وواصل إسهاماته بالرد على ادعاءات المستشرقين، وألَّف كتاباً لذلك بعنوان «الإسلام ومستر سكوت»..

هذا؛ وتتحدث ذاكرة الأزهر؛ بأنه «من الأزهريين الإصلاحيين، الذين حملوا معالم النهضة، وعملوا على إصلاح التعليم، ونشر أجواء الحرية، خاصة حرية الصحافة، ويظهر ذلك بوضوح من تفاصيل رحلته، فلم يدخل بلدًا إلاَّ وقد تحدث عن أوضاع التعليم فيه، وأجرى مسحاً عن الصحافة الصادرة به، وما

تتمتع به من حرية، أو ما يواجهها من قهر ومصادرة».

مَن هو علي الجرجاوي؟

ولد «علي أحمد الجرجاوي» بقرية «القرعان» التابعة لمركز جرجا بسوهاج– في الثلث الأخير من القرن التاسع عشر، تعلم مبادئ القراءة والكتابة، وحفظ القرآن الكريم في الكُتَّاب، ثم تلقى أوليات العلوم الدينية على عدد من علماء مدينة جرجا التي كانت تتمتع –آنذاك– بشهرة واسعة في هذه العلوم؛ نظرًا لوجود معهد ديني عتيق بها، ثم رحل إلى القاهرة طلبًا لاستكمال الدراسة، وتحصيل العلم بالأزهر الشريف.

تتلمذ «علي الجرجاوي» على يد أبرز علماء الأزهر في ذلك الوقت، ثم التحق بمدرسة القضاء الشرعي عند افتتاحها منتظمًا في صفوف طلابها، حتى نال إجازتها العلمية، ثم اشتغل بالمحاماة أمام المحاكم الشرعية بعيداً عن الأعمال الحكومية؛ لِما لاحظه من تسلط الإنجليز على مقدرات البلاد إثر فشل الثورة العرابية، ثمَّ أسس صحيفة «الإرشاد» في بداية القرن العشرين، إلى جانب عمله بالمحاماة، ثم عمل رئيسًا لجمعية الأزهر العلمية. وظلَّ الشيخ (الجرجاوي) سائراً في هذا الدرب الطويل، والنهج الدعوي بلا توقف ... حتى وافته المنية عام ١٩٦١م؛ فجزاه الله عن دنيه وأمته خير الجزاء!

ثائر تحت العمامة

عندما كنتُ طالباً؛ كنتُ أترقّب الإجازة الصيفية؛ ترقُّب الصائم لصوت الأذان؛ لأهاجر إلى القاهرة؛ هروباً من منظومة تقاليد الصعيد الصارمة التي ينوء بها ابن الخطّاب!

وكان (المركز العام لجمعيات الشبان المسلمين) قِبلتي التي أتوجّه إليها، فأقيم فيه مقابل «جنيه ونصف» يومياً، ولمْ نكن نُحرَم الغداء في ظل سيْل الندوات والمؤتمرات التي كان يدعو إليها الشيخ/ الباقوري -رئيس المركز العام- ذلكم الرجل الذي لمْ، ولنْ يشهد حقل الدعوة الإسلامية شبيهاً له في عِلمه وخُلقه وتواضعه؛ بحسب أن تعرف أنه إذا حضر وقت الغداء؛ يقول: اجمعوا حولي كل الناس -بما فيهم الخفر والعمّال والخدم، والغرباء! ويقول مُشجِّعاً، ومؤلِّفاً للقلوب: لا يُستساغُ الطعام إلاّ معكم، ولا تحلّ البركة إلاّ بحضوركم!

فقد كان الجميع يرونه أباً عطوفاً، وشيخاً رءوفاً، وصديقاً نصوحاً ... يلتفُّون حوله، ويشكون إليه همومهم، ويسألونه في أمور الدين والدنيا!

ذات مرة؛ سأله أحد الحاضرين: ماذا لفتَ نظرك في الرئيس عبد الناصر؟ وما هو مفتاح شخصيته؟ فقال: «أول ما لقيتُ الرئيس وجدتُ رجلاً تتوافر فيه صفات الزعيم .. وحينما نقرأ في سورة البقرة قول الله عزَّ وجل ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰهُ عَلَيۡكُمۡ وَزَادَهُۥ بَسۡطَةٗ فِي ٱلۡعِلۡمِ وَٱلۡجِسۡمِۖ﴾ قامة الرجل المديدة، وعيناه العميقتان، وحرصه على أن يعرف؛ كانت هذه خصائصه التي يؤثِّر بها في الجماهير .. فهو

طويل القامة، يؤمن بما يقول، عميق النظرات، يحبُّ شعبه، وإذا رضيَ عنك أرضاك، وإذا غضب عليك أغضبك»!

عندئذٍ؛ تجرأتُ، وسألتُ الشيخ: هلْ هناك موقف في حياتك رأيتَ الله فيه؟

فتبسَّم، وقال: هذا سؤال جريء من شابٍ قوصيّ شجاع! فضحك الجميع بلا توقف، ثم أجاب قائلاً: إحساسي بجلال الله وهيبته يملأ قلبي، لاسيما في المواقف الإنسانية؛ أذكرُ أنني كنتُ أميراً للحج عام ١٩٥٣م، وقد جرتْ العادة أن يُفتَح لأمير بعثة الحج حجرة الضريح النبوي الشريف. وكنتُ أستعد للدخول مع صديق لي قابلته هناك. لكنه أبى أن يدخل معي! فتعجبتُ من أن يُضيِّع هذه الفرصة النادرة! فقال لي: إنني مذنِب، وأخشى أن أدخل على رسول الله! لذلك أطلب منك أن تدخل أنتَ على الرسول الكريم، وتعتذر له بالنيابة عني، وتسأله أن يستغفر اللهَ لي!

في هذا الموقف الجميل، رأيتُ اللهَ في هذا الإنسان؛ المرتجِف مِن خشية الله!

موقف آخر لا أنساه؛ ذلك أنَّ رجلاً ممن دخلوا معنا الحجرة النبوية الشريفة، ألقى السلام، وحمد الله، ثم أخذ شيئاً من رمل الحجرة النبوية وابتلعه! وعرفتُ – بعد ذلك– أن هذا الرجل كان يعاني من إمساكٍ مزمن، وصداعٍ مستمر، فلما ابتلع ما ابتلع من رمل الحجرة النبوية؛ زالت أمراضه في اليوم التالي!! وهنا رأيتُ اللهَ للمرة الثانية!

***

في مجلة المصور عام ١٩٣٥م كتب فكري أباظة – يقول: «الباقوري هو مندوب الطلبة في الخطابة، ورئيس اتحادهم أيام الإضراب! خطب الشاب فذُهِلتُ، وطار لُبِّي .. إلقاء متزن على أحدث طرق فن الإلقاء، ألفاظ مختارة بميزان الذهب الحر، معانٍ كلها سموّ، وكلها ارتفاع. لمْ أُصدِّق أن الذي يتكلم طالب أزهري، وإنما خُيِّل إليَّ أنني اسمع زعيماً كبيراً من زعماء المنابر في أوربا»!

أجل؛ فقد كان «الباقوري» خطيباً مفوّها، لذا؛ نشرت الصحافة خطبه في إبانها، وكذلك الإذاعة، كما احتفظتْ سجلات المجمع اللغوي بمقالاته وخطبه. وهو في نثره من أصحاب الأساليب المميزة، وله مؤلفات ذات طابع توجيهي إرشادي، مثل: أدب الحديث النبوي، وعالم الروح، ومعاني القرآن الكريم بين الرواية والدراية. كما ترك -فضيلته- عدداً من المؤلفات القيّمة، منها: تحت راية القرآن، ومع القرآن، ومع الشريعة، وصفوة السيرة المحمدية، ومن دلائل النبوة، وقطوف من أدب النبوة، وعروبة ودِين، وخواطر وأحاديث، وغيرها.

من هنا؛ لا نعجب إذا علمنا أنَّ «الشيخ» كان له نشاط سياسي كبير، فقد كان وزيراً للأوقاف، وكان الشيخ/ محمد الغزالي -آنذاك- خطيباً بجامع عمرو بن العاص .. وقد حدثت واقعة عجيبة، عجيبة بكل تأكيد! مفادها؛ أن الغزالي تعرَّضَ في خُطبته للنزاع السياسي الذي وقع بين معاوية، والإمام عليّ بن أبي طالب عليه السلام وقد تحامل الغزالي على عمرو؛ وقال: ما كان يليق برجلٍ مثله أن ينحاز لمعاوية!

في اليوم التالي؛ اتصل الإمام الأكبر/ عبد الحليم محمود؛ بصديقه الباقوري؛ وأخبره أنَّه رأى عمرو بن العاص في المنام يشكو الغزالي! فقال الباقوري: وأنا -كذلك- رأيتُ «عمرو» في المنام غاضباً .. ولا أدري ما السبب؟!

على الفور؛ استدعى الباقوري الشيخ الغزالي، وسأله: ماذا بينك وبين عمرو بن العاص؟! قال الغزالي: لا شيء، ولكني أوضحتُ في خُطبة أمس، أنه انحاز لمعاوية، وهو يعلم موضع الحق!

فقال الباقوري: أسرِع -يا صديقي- واستغفِر عما وقعَ منك، وادعُ اللهَ لجدِّكَ عمرو! فقد جاء يشكوك، ويقول: هلْ أستحقُّ من «الغزالي» كل هذا الغضب؟ فهلْ عانى ما عانيناه؟ وهلْ رأى كيف كان بلاؤنا في الفتوحات؟!

قال الشيخ الغزالي: إنه منذ تلك الحداثة؛ لا يُذكَر عمرو؛ إلاَّ وأترحّمُ عليه

كثيراً!!

* * *

لعلَّ خُلُق «التسامح» أبرز صفة تميز بها الباقوري، فعندما شهدت مصر عام ١٩٤١م مبادرة جادة للحوار الإسلامي- المسيحي، وقام مجموعة من الشباب: مسيحيين ومسلمين بالاجتماع سوياً للتفكير في مسئوليتهم المشتركة، والتحاور حول سبل الإخاء والتعاون والمحبة: استعانوا بالشيخ/ الباقوري- باعتباره الشخصية التي تحظى باحترام الجميع!

وفي عام ١٩٧٥م دعت الآنسة/ ماري كحيل- لاجتماع في منزلها ضمَّ ١٥ شخصية (مسلمين ومسيحيين) من أجل التقارب بين المسلمين والمسيحيين؛ وكانوا يدعون للتقارب على أساس أنَّ الجميع يؤمن بالله سبحانه. وكان من أبرز الأعضاء الشيخ/ الباقوري، والدكتور/ عبده محمود سلاَّم -وزير الصحة الأسبق. وكان لهم دعاء مشترك يختمون به اجتماعهم، قام الباقوري بتعديله، فأصبح يسمى (ميثاق الإخاء الديني) جاء فيه:

(اللهمَّ إليك نتوجه، وعليك نتوكل، وبك نستعين .. وإياك نسأل أن ترزقنا قوة الإيمان بك .. وحسن الاهتداء بهدي أنبيائك ورسلك، ونسألك -يا الله- أنْ تجعل كلاً منا وفياً لعقيدته، أميناً على دِينه في غير تزمتٍ نشقى به في أنفسنا، ولا تعصبٍ يشقى به مواطنونا. ونضرع إليك -يا ربنا- أن تبارك إخاءنا الديني، وأن تجعل الصدق رائدنا إليه، والعدل غايتنا منه، والسلام ذخيرتنا فيه .. يا حي يا قيوم، يا ذا الجلال والإكرام.. آمين).

هذا؛ وقد كانت للباقوري ندوة أدبية مشهورة، استمرت فترة طويلة، لكنه أوقفها بعد أن شغلته أعباء جامعة الأزهر. وكانت ندوته حافلة بأعلام الفكر أمثال: أحمد الشرباصي، والشيخ عبد الجليل عيسى، وخالد محمد خالد، ومحمود أبو رية، ومحمود الشرقاوي، والمفكر الجزائري/ مالك بن نبي،

وغيرهم.

كان «الباقوري» داعياً إلى التقريب بين المذاهب الإسلامية، فيقول: «إنني أرى أن المسلمين ليسوا أقل حرصاً على الوحدة وتقريب الصفوف من المسيحيين في دعوتهم إلى المجتمع المسكوني في كل فترة من الزمن تحت رعاية الفاتيكان»!

بلْ انظر إلى سعة عقل الباقوري ورحابة أُفقه؛ عندما تطرق في كتابه (عروبة ودين) إلى قضية الموسيقى والغناء والتمثيل وغيرها من الفنون الجميلة؛ أشار إلى أن للفنون في حياتنا آثار عميقة الأغوار، لا ينبغي للناس أن يجهلوها، ولا يستطيعون أن يتجاهلوها، لأنها تتصل بعواطفنا، وتلامس قلوبنا. ومن هنا ينبغي العمل على جعل الفن أداة من أدوات المحبة، ووسيلة من وسائل الأمن والطمأنينة.

***

كان «الباقوري» شاعراً مطبوعاً، يرتجل الشِّعر في مختلف المناسبات، وأبرز ما يميز شاعريته: البساطة والوضوح؛ فلا توجد به حُفَر ولا مطبَّات صناعية، ولا غموض ولا إسفاف، بلْ هو من النوع الذي سهل لفظه وقرب معناه، وتتمحور أغراضه الشعرية حول الوعظ والتربية!

لعلَّ أطول قصائده وأعذبها؛ قصيدة (ذكرى الإسراء والمعراج) التي تعد من عيون الشِّعر! وكثيراً ما يتوجه إلى الشباب، معلِّقاً عليهم الآمال العريضة، ومحرِّضاً على الثورة، ولذلك لُقِّبَ ب(شاعر ثورة ١٩١٩م)! ففي قصيدة بعنوان «إيه يا دهر» ينادي:

يا شباب الله هيا	نحيي مجد المسلمينا
ليس من يحيا ذليلاً	مثل من يقضي نبيلا
نجرع الموت شهياً	أوْ نُرى في الظافرينا

وكثيراً ما ينتقد شيوع الرذيلة ومحاربة الفضيلة، ويرى أن فساد الأخلاق أدى إلى هوان الأمة وهزيمتها، وحمل كل ذلك للحكَّام؛ الذين ساندوا الرذيلة وحاربوا الفضيلة!

هي الأخلاق لا يرجى سواها ... رعاة لم تنشئهم رباها
محاربة الفضيلة في حماها ... لإنقاذ الشعوب، وقد رعاها
وحكام رأوا جهلاً مناها ... فساموها الهوان وأوبقوها

كما كان ينتقد الدعوات الضالة التي سرتْ بين المسلمين؛ فاعتنقوا الأفكار الوافدة والفلسفات المنحرفة، وتركوا الإسلام رمز عزتهم وفخارهم:

حرام أن نرى للدين ندا ... وعار أن يُرى الإسلام عبدا
ولا نمضي إلى الهيجاء جندا ... وننقذ مِن يد الغوغاء مجدا

كان «الباقوري» صديقاً حميماً للشيخ/ حسن البنا –مؤسس جماعة الإخوان المسلمين– بلْ كان من أبرز قيادات الإخوان، وقد أيّد بشِعره دعوة الإخوان، واستجاب للإمام البنا فوضع نشيدهم الذي كانوا يرددونه في اجتماعاتهم وأنديتهم ومناسباتهم، حتى لقّبوه ب(شاعر الإخوان)!

وفي الأزمة التي قامت بين الإخوان المسلمين وحزب السعديين الحاكم آنذاك؛ أوكلَ الإمامُ البنا شؤون الإخوان إليه، وبعد استشهاد البنا كان الباقوري من أبرز المرشحين لمنصب المرشد ... ولكن!

ولكن؛ لوْ قُدِّر للشيخ/ الباقوري أن يكون مُرشِداً لـ«جماعة الإخوان» لَمَا وصلتْ إلى حالة الانغلاق الفكري الذي ران على قياداتها، وما صارت ثقافتها حركية، أكثر منها دعوية، وما عاشت في الظلام الدامس، وفي الأقبية، وخلف الأسوار المنيعة!!

من هنا نفهم؛ لماذا هجرها العلماء الأكابر، والدعاة الأفذاذ، أمثال: الغزالي،

والشعراوي، والسيد سابق، وغيرهم ممن لا يريدون عُلُوًّا في الأرض ولا فسادا.

يقول الباقوري في كتابه (بقايا ذكريات): التقيتُ بالشيخ/ حسن البنا- في حفل الإسراء والمعراج الذي كان منعقداً في فناء عمارة الشماشرجي بشارع محمد علي باشا- على يسار الذاهب إلى القلعة، ولمَّا كان يعلم أنني أعالج الشِّعر؛ سألني: «هل قلتَ شيئاً في قصة الإسراء؟ فإنَّ مثلك لا يترك هذه المناسبات دون أن تتحرك بين جنبيه عواطفه التي لا ترضى إلاَّ إذا أعلنت إلى الناس ما يرضي العاطفة الإسلامية في أنفس المسلمين». فأجبته: لقد قلتُ أبياتاً في هذه القصة الشريفة، وإنه ليسعدني أن يُؤذَن لي بإلقائها في هذا الحفل المهيب، فرحبَّ على الفور، ثم رقيتُ المنبر، فقلت:

هلْ أمة أنكرت أنَّ النبيَّ سرى ... وشاهدَ الله من دون النبيينا

أيَنطقون جماداً لا حياة به ... فيملأ الأرض إفصاحاً وتبييناً!

ويستقلُّون فوق الريح طائرةً ... تسابق الريح جرياً في مغانينا

فيصبحون ومصر عش طائره ... ويظهرون برومـا أوْ بآثينا

ويعجز الله أنْ يلقى مُحمَّده ... في لمحة الطرف، ما أغبى الممارينا!

إنَّ العلوم -رعاها الله- قد كشفتْ ... عما يلطُّف من إنكار غاوينا

ما كذَّبَ القوم شيئاً كان ريبتهم ... إلاَّ أقامت على الصدق البراهينا

....

حسبُ النبيّ «أبو بكر» يقول له: ... لا تخشَ باطلهم إنَّا المحقُّونا

قل ما تشاء بلا ريبٍ ولا ضجرٍ ... حَدِّثْ فديتكَ إنَّا جِدَّ صاغينا

تالله لوْ قلتَ جُبتَ الكونَ قاطبةً ... في لمحة الطرف ما كنا ممارينا

ولمَّا فرغتُ من إنشاد القصيدة أخذ الأستاذ البنا بيدي، قائلاً: إمَّا أن أكون في كلمتي قد نثرتُ نظمك، وإمَّا أن تكون أنت قد نظمتَ نثري! ثم استطرد يقول: شِعركَ مع نثري من قبيل اتفاق الخواطر، ولستَ تنكر اتفاق الخواطر، وأنت

متخصص في البلاغة والأدب العربي، وقد وقع في نفسك -بلا ريب- أمر اتفاق الخواطر بين امرئ القيس، وطرفة بن العبد في معلّقتيهما، فإنَّ أحدهما لْم يأخذ من الآخر، ولكن كلاً منهما قال ما قاله الآخر بغير تبديل إلاَّ في قافية الشِّعر!

مَنْ هو الشيخ/ الباقوري؟

أحمد حسن الباقوري(١٩٠٧- ١٩٨٥م) من قرية (باقور) بأسيوط. تدرج في الدراسة من كُتّاب القرية إلى القسم العالي في الأزهر، حتى حصل على شهادة التخصص في البلاغة والأدب عن رسالته (أثر القرآن في اللغة العربية) وشغل عدة مناصب حتى أصبح رئيساً لجامعة الأزهر. وكان وراء تطوير قوانين الأزهر التي أنشأت كليات الطب والهندسة والزراعة، وكان من أعلى الأصوات المناصرة للضباط الذين انقلبوا على الملكية سنة ١٩٥٢م.

رحم الله «الباقوري» الذي أحبَّ الناس؛ فأحبُّوه، والذي نزل نبأ وفاته كالصاعقة على المصريين عامة. وقد رثاه الشَّاعر القبطي/ رياض سوريال- بقصيدة؛ جمعتْ أوصاف الشيخ، ومنزلته في النفوس، ومكانته العلمية، قال فيها:

طوى الموتُ نجمًا سما وازدهرْ ... فأخفى الضياء الذي قد بهَرْ
فزُلْزِلتِ الأرض زلزالها ... لموت «البَقوريِّ» فخْرِ البشر
لتبكِ النجومُ أخًا لامعاً ... تألّق في فلكٍ واستتر
هو العالِم الفذّ رمز العلا ... هو النيل يبدو بأبهى الصور
بهِ الأزهر ازدان في مجده ... ففي عهده قد نما وازدهر
لنهج التسامح يدعو الورى ... كما أمر الله فيما أمر
فصيحُ اللسان، ذكيُّ الحجا ... قويُّ الجَنان سديد الفِكَر
أمير البيان يصوغ الدرر ... له في النفوس عظيم الأثر
رأته الفصاحة عملاقها ... رأته الشجاعة ليثًا زأر
رأته المحافل زينًا لها ... خطيبًا بغزو القلوب اشتهر

إليـــه تـــدفّق ســـيل البشـــر وقـــد أنصـــتوا في خشـــوعٍ غمـــر
وأشـرق في الجمـع وجـه التقَـى كطلعـــة وجـــه الصـــباح الأغـــر
إلى منبـع الخيـر يـدعو الـورى إلى الله خـــالق كـــل البشـــر
رأتـــه العروبـــة فخـــرًا لهـــا رأتـــه الإمـــامَ الجليـــل الأبـــر
تهلَّـــل وجـــهُ الزمـــان بـــه أشـــاد الزمـــان بـــه وافتخـــر
حملـــتَ الأمانـــة نـــاءت بهـــا رواســـي الجبـــال فنلـــت الظفـــر
وكنـتَ الـوزيرَ الأمـين الـذي لـــه في الأمانـــة أبهـــى الصـــور
شـمائل كالمسـك قـد عطَّـرتْ زمانًـــا بـــه قـــد زهـــا وانبهـــر
يظـلُّ الزمـانُ فخـورًا بـه ويـــروي مناقبَـــه للعُصُـــر
لقـدْ سـمع الـدهر أنقـى السِّيَر رأينـــا المـــلاكَ، وعنَّـــا عَبَـــر

صاحب «الصوت الخاشع»

«خذوا القرآن مِمَّنْ إذا سمعتموه يقرأ؛ حسبتموه يخشى الله».

ينطبق هذا الحديث تماماً على القارئ (محمد صدِّيق المنشاوي)!

ذات مرة، قال لي أحد الأصدقاء: «عندما أستمعُ للشيخ «الحصري» أتذكَّر ابن مسعود؛ وهو يقرأ القرآن على رسول الله، فسألته عن الشيخ/ المنشاوي؟ فقال: هذا (جبريل) يا سيدي!

وقد سُئِلَ الشيخ/ محمد متولي الشعراوي- عن رأيه في صوت القارئ/ محمد صديق المنشاوي؛ فقال: مَن أراد أن يستمع إلى جلال القرآن؛ فليستمع لصوت المنشاوي، إنه ورفاقه الأربعة (مصطفى إسماعيل، وعبد الباسط، والبنَّا، والحصري) يركبون مركباً، ويبحرون في بحار القرآن الزاخرة، ولنْ يتوقف هذا المركب عن الإبحار حتى يرث الله الأرض ومن عليها».

قال خبراء الأصوات: إذا كان الشيخ/ مصطفى إسماعيل أعظم من جوّد القرآن؛ فإنَّ المنشاوي أعظم من رتَّله؛ لِتميزه بعذوبة صوته، وخشوعه في القراءة، وانفعاله بجلال القرآن ورهبته، وإجادة المقامات، لاسيما مقام «النهاوند» الذي أبهر المستمعين، حتى لُقِّبَ بصاحب «الصوت الباكي»!

في تقديري: أنه يمكن التعليق على أيّ قارئ من القرَّاء؛ إلاَّ (المنشاوي) الذي يُمثِّل حالةً استثنائية، يحار أمامها الذائق الفَهِم. فمن يتأمَّل مخارج الحروف عنده؛ يصعب أنْ يجد لها وصفاً، وذلك لِمَا منحه الله من حنجرةٍ رخيمة، ونبرةٍ شجية

تلين لها القلوب والجلود معاً. ويتجلَّى ذلك عند ختامه للتلاوة، فتراه يستجمع كل إبداع التلاوة في آخر آيتيْن، بحيث يجعلك تعيش معه أشدّ لحظات الخشوع على الإطلاق! وما عليك إلاَّ أن تتأمل استرساله ما بين السرعة والتلقائية العجيبة، كما في سورة الإسراء، وبين الهدوء وخفض الصوت كما في سورة العلق؛ حينما يقرأ: (كلاَّ إنَّ الإنسانَ ليطغى أنْ رآه استغنى، إنَّ إلى ربك الرجعى ...)!

* * *

في حقبة الأربعينيات؛ طلب الملك فاروق من الشيخ محمد صديق المنشاوي أن يكون قارئاً بالقصر الملكي ... فاشترط على الملك أنْ تُغلَق المقاهي، وتتوقف عن تقديم المشروبات، اعتباراً من الساعة الثامنة مساءً وقت إذاعة القرآن الكريم -والذي كانت تنقله الإذاعة من القصر الملكي- قائلاً للملِك: إنَّ للقرآن جلاله فهو كلام الله، ولا يجب أن ينشغل الناس عنه وقت تلاوته بالسؤال عن المشروبات ولهو الحديث. فقال الملك: ذلك يعني أن نكلِّف حارساً على كل مقهى! وهذا أمر يتعذر علينا. فقال الشيخ: كذلك؛ فهذا أمر يتعذر علينا أيضاً. وتلا قوله تعالى: «وإذا قُرِئ القرآن فاستمعوا له وأنصتوا لعلكم ترحمون».

ذات مرة؛ وجَّه أحد الوزراء دعوة للشيخ المنشاوي لحضور مناسبة دينية، قائلاً: سيكون لك الشرف الكبير بحضورك حفل يحضره الرئيس عبد الناصر! فردَّ الشيخ قائلاً: ولماذا لا يكون هذا الشرف لعبد الناصر نفسه أن يستمع القرآن بصوت المنشاوي؟

ورفض أن يلبِّي الدعوة، وقال: لقد أخطأ عبد الناصر؛ حين أرسل إليَّ أسوأ رسله!!

ومع ذلك؛ فقد كان (الشيخ) شديد التواضع، وكثيراً ما كان يتحرر من عمامته، ويرتدي جلباباً أبيض وطاقية بيضاء فوق رأسه، ويجلس أمام باب بيته. ذات مرة؛ جاء إليه أحد الشبان المسيحيين -وكان من جيرانه- واقترب من الشيخ ولم يعرفه،

ظناً منه أنه البوَّاب، وقال له: لوْ سمحت يا عمٍّ، أين الشيخ/ محمد صديق، فنظر إليه الشيخ، وقال: حاضر يا بنيّ، انتظر حتى أُرسِله إليك، ولم يقل له: أنا الشيخ حتى لا يضعه في حرج! ثمَّ صعد الشيخ إلى شقته، وارتدى العمامة والقفطان والنظّارة، ثم نزل إليه، وسلّم عليه، وقال له: مَن الذي سأل عني؟!

* * *

الشيخ/ محمد صديق (١٩٢٠- ١٩٦٩م) نبتَ نباتاً حسناً بمركز «المنشاة» بسوهاج، وأصبح أشهر تلامذة «المدرسة المنشاوية» بلْ زعيم تلك المدرسة؛ التي وضع والده أساسها، وتخرج فيها عمالقة التلاوة، كشقيقه الأصغر الشيخ/ محمود صديق؛ الذي يقول عن أخيه: «المرحوم الشيخ محمد- كانت له عندي منزلة خاصة، حيث كان لي بمثابة الأب بعد وفاة والدي، وما تعلمته منه امتداداً لِمَا تعلمته من والدي، وإنْ كان بأداءٍ مختلف»!

كان «الشيخ» كريماً ودوداً؛ يحب البسطاء والمحتاجين، ويتحبَّب إليهم بالعطايا، ومما يُروى عنه في هذا الباب؛ أنه في أحد الأيام، أخبر أهله بأنه يريد عمل وليمة كبيرة؛ على شرف جمع من الوزراء وكبار المسئولين، فتمَّ عمل اللازم، ثمَّ فوجئ أهله بأنَّ ضيوفه كانوا جميعاً من الفقراء والمساكين من أهل البلدة!

كان الشيخ/ المنشاوي؛ صديقاً للشيخ/ عبد الباسط عبد الصمد -رحمه الله- وسافر معه للقراءة خارج مصر، وكان يعشق صوت الشيخ/ محمد رفعت، ويطرب كثيراً لأداء الشيخ/ طه الفشني؛ لاسيما صوته المتميز في الابتهالات والتواشيح الدينية، وكثيراً ما كان يتصل به ويلتقيان؛ ليقف معه على مواطن الجمال الموسيقي في صوته.

على الرغم من أن الشيخ «محمد صديق» هو ابن بار، وتلميذ نجيب لوالده الشيخ/ صديق المنشاوي الكبير؛ إلاّ أنَّ بدايته مع الإذاعة قد جاءت متأخرة،

خاصة إذا علمنا أن الإذاعة المصرية كانت تبحث عن المواهب الواعدة في التلاوة آنذاك! لكن الله –سبحانه– شاء أن تظهر هذه الموهبة، وتستمتع الدنيا بهذا الأداء العذب ... ففي شهر رمضان الفضيل في عام ١٩٥٣م؛ كانت الإذاعة تسجّل من مدينة «إسنا» بالصعيد، فعلمتْ الإذاعة بالشيخ «محمد صدِّيق» وقررتْ أن تضمه إلى كوكبة القراء المشاهير لديها. لكنهم طلبوا منه أن يتقدّم بطلب للإذاعة؛ حتى يعقد له اختبار، كما تفعل مع سائر القرّاء عند اختيارهم؛ فإذا بالشيخ يرفض هذا المطلب، قائلاً: أنا لا أريد القراءة بالإذاعة، فلستُ في حاجة إلى شهرتها، ولا أقبل أن يُعقَد لي هذا الاختبار أبداً ... فما كان من مدير الإذاعة؛ إلاّ أن أمر بأنْ تنتقِل الإذاعة إلى حيث يقرأ الشيخ، فسجَّلوا له عدداً من التسجيلات، فاعتمدته الإذاعة على الفور!

وتعد هي المرة الوحيدة التي انتقلت فيها الإذاعة بكل معداتها وطواقمها، لتسجِّل لأحد القرّاء!

الحمد لله؛ أنَّ الشيخ «محمد صِدِّيق» كان خير سفير للقرآن الكريم، فقد سافر به إلى العديد من البلدان العربية والإسلامية، ونال حظاً واسعاً من التكريم والتبجيل؛ فمنحته إندونيسيا وساماً رفيعاً، وذلك في منتصف الخمسينيات، كما حصل على وسام الاستحقاق من الدرجة الثانية من الجمهورية السورية عام ١٩٥٦م، واحتفتْ به الملايين في الأردن، والكويت، والعراق، والسعودية، وليبيا، وباكستان، وغيرها. وترك أكثر من مائة وخمسين تسجيلاً بالإذاعة المصرية والإذاعات الأخرى، كما سجَّل ختمةً قرآنية مرتلة كاملة تذاع بصفة دائمة بإذاعة القرآن الكريم بالقاهرة. كما عيَّنته وزارة الأوقاف قارئاً بمسجد الزمالك، وظل قارئاً لسورة الكهف به حتى توفاه الله ... لكن الشيخ لمْ يعش طويلاً، إذْ توفِّيَ وهو في الأربعينيات من عمره، وصعد إلى أعلى علِّيين؛ كيْ يحجز مكانه بجوار عباقرة التلاوة!

صاحب المقام

كتب الصحفي/ أحمد الأسواني، يقول: «عاش الشيخ/ صالح الجعفري- حياته كلها في غرفة خشبية ضيقة برِوَاق المغاربة بالأزهر الشريف، إذْ قضى به خمسين عاماً من عمره الذي لمْ يكمل السبعين، فكان يحرص -برغم مكانته العلمية الرفيعة- على مشاركة خدم الجامع في أعمال النظافة، ويحيا حياة البساطة والشظف، فلا يزيد طعامه المعتاد عن قطعة من الجبن، وكسرة من الخبز»!

وفي كتابه «أشواق العارفين» يقول الدكتور/ محمد رجب البيومي: «كان للشيخ أتباع من كبار الموسِرين يعرضون عليه الإقامة في الشقق الفاخرة، ويرون في تنوع مجرى حياته وسيلةً لاستبقاء صحته، ولكنه كان يتخذ من هذا العرض الودود سبباً إلى موعظة حسنة في الدرس، إذْ يشرح حياة الرسول؛ وقد راودتهُ الجبالُ الشُّم من ذَهَبٍ عن نفسه؛ فأراها أيَّما شَمَمٍ! ثم ينتقل إلى سير الصحابة الأعلام فيفيض في زهد عمر وعليّ ﷺ ويقرأ في صوتٍ خاشع، وفي تمثيل مؤثر حيّ نابض قول الإمام عليّ: «يا دنيا غُرِّي غيري، إليَّ تعرَّضتي؟ أمْ إليَّ تشوَّقتي؟ هيهات هيهات! قدْ باينتكِ ثلاثاً لا جعةَ فيها؛ فعمركِ قصير، وأثركِ حقير، آهٍ مِن قلة الزاد، وبعد السفر، ووحشة الطريق!

كان أتباع الشيخ الجعفري آلاف مؤلفة في شتى ممالك الإسلام يرسلون إليه الهدايا الصوفية السليمة في كل موسم، فكان يدفع بها إلى أحد معارفه من كبار التجار بالقاهرة، ويطلب منه أن يشتريها بثمنها الحقيقي، وأن يستبدل به أقمشة

متواضعة متينة، ويُعلِمه عن عدد الأمتار، فإذا تمَّ ذلك أخذ الشيخ يستعرض المحتاجين من رواد درسه، وعشاق موعظته، ليعطي كلاً منهم كوبوناً ممهوراً باسمه، وبه مبلغ من الأمتار يحدده الشيخ وفق ما يتلقاه من إجابة مريده الفقير عن عدد أسرته، وصفتهم من الأنوثة والذكورة، ثم يبعث به إلى صديقه التاجر، ليأخذ ما يحتاج من الرصيد المدخَّر!

ذات مرة؛ جاءه مال وفير فدفعه إلى أحد مريديه من المقاولين، ليقوم بتعمير بعض المساجد المتهدمة في هذا الحي الإسلامي من القاهرة، ووجهُ الشيخ يفيض بالنور، ويتلألأ بالبِشر حين يجيئه صديقه المقاول فيخبره أنَّ البناء قد تمَّ على أحسن نظام، فيسرع مع أتباعه إلى مشاهدة المسجد، وخلفه صفوف من مريديه، فإذا تمت الصلاة بدأت الموعظة، وإذا انتهت الموعظة بدأ الذِّكر، وإذا انتهى الذِّكر بدأ الشيخ يقرأ السيرة النبوية بصوته الطروب، فإذا قلتُ لك: إنَّ المغرب يتصل بالعشاء، وإنَّ العشاء يشارف السحر، والناس مع الشيخ في تواجدٍ حنّان، وفي طرب ميَّاد، وفي أُنسٍ لانقطاع لبهجته، فاعلم أن ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء»!!

* * *

اشتهر «الشيخ صالح» بدرس الجمعة عقب الصلاة بالأزهر الشريف فقد كانت حلقة درسه جامعة إسلامية انتهجت علوم الشريعة وحقائق الحقيقة! وكان المئات من الناس يحرصون على سماعه، ويتبركون بذلك لِمَا فيه من الأنوار والأسرار والعلوم والمعارف العلمية والصوفية! فقد كان ﵁ يخاطب العقول والخواطر، ويجيب على تساؤلات العقل، ويكشف عن هواجس النفس، ويزيح عن ضمائر القلب، في موعظةٍ حسنة وحكمةٍ بالغة!

وقد تحدث عن حلقاته العلمية؛ الدكتور/ رجب البيومي في كتابه (رسالة المسجد) فقال: «لقد أفاض الله على لسانه من روائع المعاني ونفائس الحِكم، وأنَّ

مدداً روحياً قد تدفق على لسانه مرتفعاً من زواخر قلبه المتلاطمة، وكمْ للشيخ في ساحات درسهِ من وثبات وجدانية لا ندري من أين جاءت؟! وقد رزق -الشيخُ صالح- حلاوة في الصوت تجعل سامعه يتخيل أنه أمام موسيقيٍّ يصدح لا أمام إنسان يتكلم!

من أقوال الجعفري: يا أخانا في الله تعالى: تجمعنا الطاعة، وتفرِّق بيننا المعصية، فعليك بطاعة الله تعالى، والحذر الحذر من معصيته، وعليك بطلب العلم فإنه نِعمَ المطية الموصلة إلى المقصود، وعليك بالإكثار من ذِكر الله تعالى؛ فإنه نِعمَ الورد المورود، وعليك بتلاوة القرآن، فإنه كلام ربك وشفاء قلبك. واعلم أن طريقنا هذا مبني على الكتاب والسنَّة وفِقه المذاهب الأربعة، وعقيدة الأشعري في التوحيد وأبي القاسم الجنيْد في التصوف -ﷺ أجمعين- وعليك بالإعراض عن كل ما يخالف ذلك؛ فإنه ليس من طريقنا.

في كتابه «أشواق العارفين» يقول الدكتور/ محمد رجب البيومي: عندما شيّعنا جنازة الشيخ «صالح الجعفري» بالجامع الأزهر، ماجتْ الحشود المتراصة خلف نعشه، ورأينا عشرات الباكين من البسطاء؛ الذين وسعتهم نفس الشيخ فأغدق عليهم من مددهِ النفسي، ما كان نعم الزاد لهم في رحلة الحياة، وفيهم من نَدَّ عنه صوابه، فأخذ يقول: كنتُ سارقاً وتبتُ على يد الشيخ صالح! ومَن يقول: كنتُ سِكِّيراً وتبتُ على يد الشيخ صالح! ومَن يقول: لقد تعرضتْ أسرتي للتشريد لولا عزيمة الشيخ صالح!

مَن هو صالح الجعفري؟

الشيخ/ صالح الجعفري(١٩٠٧- ١٩٧٨م) ترجم لنفسه في مقدمة كتابه (المنتقى النفيس) وذكر«أنَّ قبيلته المشهورة بالجعافرة العلوية، وهم منتشرون بين الأقصر والحلَّة والدير- لكنهم تناثروا في البلاد، وفي قرية «السلمية» بالأقصر يوجد قبر جد والدي/ محمد رفاعي- بمقبرة جد الجعافرة/ الشريف السيد الأمير

حمد؛ الذي له مقام يزار، وللجعافرة أنساب كثيرة محفوظة».

لكن الشيخ؛ ولِدَ في مدينة دنقلا (شمالي السودان) ثم هاجر إلى مصر لتلقي العلم بالأزهر، فحصل على الشهادتيْن: الأهلية والعالمية، كما حصل على الإجازة العالية مع إجازة تخصص بالتدريس من كلية الشريعة الإسلامية بالأزهر.

وقد عُيِّنَ إماماً ومدرساً بالجامع الأزهر الشريف، فاتخذ من رواق المغاربة مقراً له حيث تفرغ للعلم والدعوة والعبادة، وكانت له وقفات شهدها منبر الأزهر في حرب فلسطين منددا باليهود، داعياً للجهاد والتبرع لنصرة فلسطين. ولطالما هاجم الشيوعية الملحدة، وندَّد بأتباعها.

كما كانت للشيخ خلوة مباركة يعتكف فيها، فقد مكث مجاوراً بالأزهر الشريف خمسين عاماً، لا يخرج منه إلاّ لزيارة أهل البيت ومراقد الأولياء والصالحين، والحج والزيارة في كل عام من عمره المبارك إلى أن لقيَ ربَّه تعالى!

وقد أخذ ﷺ طريقة سيدي أحمد بن إدريس، من سيدي محمد الشريف. وفي ذلك يقول: وقد أجازني بهذا الطريق شيخي وأستاذي مُربِّي المريدين الشريف السيد محمد ابن سيدي عبد العال عن شيخه العلاَّمة السيد محمد بن علي السنوسي عن شيخه العارف بالله تعالى السيد أحمد بن إدريس «رضي الله عنهم أجمعين».

هذا؛ وقد عكف الشيخ «صالح» على مؤلفات سيدي أحمد بن إدريس ومخطوطاته، والتي ذهب من أجلها إلى بلاد المغرب، فجمع أوراقه ومخطوطاته فنقَّحها، وصَحَّحها، وعلَّق عليها، وخرَّجَ أحاديثها وآياتها، وطبعها على نفقته الخاصة، فجدد بذلك تراث سيدي/ أحمد بن إدريس وبعثه من مخطوطاته ومسوداته لغزارة ما فيه من علم نفيس لصاحب حظيرة التقديس.

ترك «الجعفري» أعمالاً كثيرة، معظمها في التصوف الذي انتهجه طريقاً له، وعناوينها تدل على محتواها، مثل: النفحات الكبرى، المنتقى النفيس، شهد

مشاهدة الأرواح التقية، الأوراد الجعفرية، الذخيرة المعجلة للأرواح المعطلة، الحج والعمرة، كنز السعادة والدعوات المستجابة .. وغيرها، وله رسالة في النحو: الآجرومية في علوم اللغة العربية.

في كتاب (الكنز الثريّ في مناقب الجعفري) قال الشيخ/ صالح الجعفري: «في ليلة من الليالي رأيتُ النبيّ ﷺ في المنام، فحدثني في مسألة علمية كنتُ أخطأتُ فيها، فغضب -عليه السلام- وقال لي: (يا ولد). وذلك من ضمن كلام يطول ... فلما أصبحتُ وحضرتُ في الدرس، قلتُ في نفسي وأنا جالس: يقول لي النبيّ ﷺ: (يا ولد) فهل أنا صغير؟! فالتفتَ إليَّ الشيخ/ علي الشائب -أحد كبار علماء الصوفية- وقال: إنما قلنا لك يا ولد، كعادة العرب، لا لأنك صغير.

مرة أخرى؛ رأيتُ وجه الشيخ «علي الشائب» في المنام، في صورة عجيبة، وبلحية طويلة، ثم تحول إلى وجهٍ آخر! فقلتُ في نفسي: ما هذا؟! فردَّ الشيخُ الشائب عليّ -وهو يُدرِّس في مسجد الحسين-: هذا الوجه الذي رأيته هو وجه سيدنا الحسين، والثاني وجه الإمام/ الليث رضي الله عنهما!

كان للجعفري حظ وافر من الشِّعر، من ذلك: «ديوان الجعفري» (في أحد عشر جزءاً) و«المدائح المقبولة» و(لآلىء البحار في مدح النبيّ المختار).

شِعره في جملته وتفصيله صوفي متعلق برسالته العلمية وطريقته السلوكية، في طلب التوبة والإكثار من ذِكر الله عزَّ وجل، وفي مديح النبيّ المختار وآل بيته الأطهار، فشِعره أخلاقي توجيهي إرشادي، ومن الناحية الفنية قد تطول القصيدة، وقد تكونْ مقطوعة، وفي كل الأحوال هي من الشِّعر الجزل الرصين، الملتزم محتوى وشكلاً، يأخذ مكانه إلى جوار شِعر كبار المتصوفة كالبوصيري، وابن الفارض.

هذا؛ ومن حسن الحظ؛ أنني اخترتُ لسيدي/ الجعفري قصيدة «يا روضة

النور» ضمن مختاراتي في كتاب (بستان المدائح النبوية) وقصيدة «أبـا الزهـراء يـا نِعمَ المُرجَّى» ضمن كتاب (في شرف المدائح النبوية) التي هي من أجمل أشـعاره، فاستمع إليـه في قصـيدة «ذكـركَ ريّ للقلـوب» التـي أوردناهـا في كتابنـا (شـعراء الأزهر):

بـذكركَ يـا مـولايَ أحيـا مُكرّمـا ... فـذكركَ رِيٌّ للقلـوب مـن الظَّمـا
وحاشا أرى ضيماً وذكرُكَ في فمـي ... فمـا خـاب عبـدٌ نحـو بابـكَ يَمّمـا
ولا سـيّما إنْ جـاء بابَـكَ راجيـاً ... وصـلّى عـلى خيـر الأنـامِ وسـلّما

تتجلّى شاعرية (الجعفري) في قصيدة: (حبّكم أملي) التي يقول فيها:

الجعفـريُّ لـه في حـبّكم أمـلٌ ... ما خاب من جاءكم بالحبّ والأملِ
يرجـو بكـم مـن رسـول اللهِ نظرتَـه ... تهـدي الفـؤادَ لفهـم العلـمِ والعمـلِ
إذْ أنـتمُ منـه أنـوارٌ مباركـةٌ ... لهـا اتصـالٌ بـه كالشـمس في المَثَـلِ

قبل أن نغادر ساحة (الجعفري) تعالوا نسـتمع إلى مـا قالـه في مقدمـة «البـردة الحَسَنية الحُسيْنية»: (يقول العبد الفقير إلى رحمة ربه القدير- صالح بن محمـد بـن صالح الجعفري الحسني: قد مَنَّ الله عليّ بنظم هذه القصيدة التي سـميتها البـردة الحسنية الحسيْنية وذلك منذ خمس وأربعين سنة، وقد طبعتها بأمر سـيدنا ومولانـا الإمام الحسين رضي الله تعالى عنه، والحمد لله على ذلك. وفي هذه المسـألة قصـة يطول شرحها، سأذكرها في كتاب من كتبي التـي سـتطبع إنْ شـاء الله تعـالى، وقـد كانت سبباً في المحبة والفتوح والاتصال)!!

سماحة
(مفتي الديار المصرية)

رَجُـــلٌ ولِـــدَ في ١٦ رمضان عام ١٣٠٧هـ ولقيَ ربه في ١٩ رمضان ١٤١٠هـ!

ترى؛ أيّ حياةٍ تكون تلك التي بـدأتْ بالشـهر الفضـيل، وانتهـتْ بالشهر الكريم؟!

أيّ حيـاةٍ تلـك التـي بـدأت بالصـيام في الأرض، واختُتِمتْ بالإفطار في جنات النعيم؟!

إنها حياة وَلّيّ من أولياء الله، إنه فتى منفلوط، وعالِم بني عدي، وفقيه الأزهـر الشريف!

في كتاب «النهضة الإسلامية في سِيَر أعلامها المعاصرين» يقـول الـدكتور/ محمد رجب البيومي: «كان الشيخ/ حسنين مخلوف- ثبتًا مكينًا في كل مـا أفتـى به، كما كان جريئًا لا تأخذه في الحق لومة لائم، فحين اتسع الحديث عن الشيوعية عقب قيام الثورة، وكتب المغالون في تمجيدها وكأنها معجزة الإنقـاذ ممـا يتهـدد العالم من أهوال، وتحرشوا في صحفهم المأجورة بكل مَـن يبـدي رأيًـا معارضًـا؛ تصدى لهم الشيخ مخلوف وأخزاهم».

هذا، ويقول عنه المستشار/ عبد الله العقيـل- في كتابـه «مِـن أعـلام الحركـة الإسلامية المعاصرة»: «كان الشيخ يغيث الملهوف، ويعين على نوائب الدهر، فهو ممن فُطِروا على مكارم الأخلاق والسجايا الكريمة لا ينتكسون حين يفسد الناس، ولا يديرون ظهورهم لمن جاءهم طلبًا للعون والمساعدة، ولوْ كلفهم ذلك الضيق والعنت وأوردهم موارد الخطر»!

قال الأستاذ/ عبد الله الطنطاوي: «الشيخ حسنين مخلوف من بقايا السلف الصالح الذين تحدث عنه الرسول الكريم. عاش «الشيخ» مائة عام حافلة بجلائل الأعمال، ملأها علمًا وعبادة ودعوة إلى الله على بصيرة، وتصديًا لأصحاب الأهواء والمذاهب الهدامة، ولأدعياء العلم والفتوى، وللسائرين في ركاب الطغيان، ولم يأبه لِما أصابه، ولِما قد يصيبه جراء مواقفه الجريئة الصادعة بالحق، وكان بذلك كالإمام أحمد بن حنبل في تصديه للمبتدعة، وللسائرين في ركاب ذوي الأهواء من أدعياء العلم .. وهكذا كان شيخنا الجليل في عصرنا الذي اضطربت فيه العقائد، وزلزلت النفوس، وطأطأت الهامات للجبارين، فبقي شامخًا، معبرًا عن الإسلام الحق، الإسلام المصفًى من كلِّ ألوان البدع الفكرية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية.. وحين طُلِبَ منه أن يعلن أن الإسلام اشتراكي وأن الاشتراكية نابعة من صميم الإسلام، أبى الشيخ ذلك، وأعلن أن الإسلام لا يعرف الاشتراكية بمفهومها الغربي، ولكنه يعرف العدل والمساواة والتكافل حسبما جاء في القرآن الكريم».

وهكذا، وقع الشيخ -رحمه الله- من العلماء موقع الثناء والعرفان، وعرفوا قدره وجهاده، فشهدوا له بدماثة الأخلاق، ولِين الجانب، وغزارة علمه، وجرأته في الحق!

ليس هذا فحسب؛ بلْ كان «الشيخ» محل تقدير واحترام من المسئولين والساسة والزعماء، فعلى الرغم مما ألمَّ به في مصر من أشكال التضييق، فإنَّ الدولة -قبل الثورة وبعدها- نظرت إليه بعين التقدير لجلائل أعماله في الدعوة والقضاء والإفتاء، فمُنِحَ كسوة التشريفة العلمية مرتين: الأولى وهو رئيس لمحكمة طنطا، والأخرى وهو في منصب الإفتاء، كما نال جائزة الدولة التقديرية سنة ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م، ووسام العلوم والفنون من الطبقة الأولى، وامتدَّ تكريمه إلى خارج البلاد، فنال جائزة الملك فيصل العالمية لخدمة الإسلام.

* * *

لا يمكن الحديث عن الشيخ/ **حسنين محمد مخلوف** -مفتى الديار المصرية الأسبق- دون التحدث عن والده سماحة الشيخ/ محمد حسنين مخلوف -وكيل الأزهر الأسبق!

يقول الابن حسنين مخلوف في مذكراته: «كان والدي يصحبني معه إلى المسجد أتابع دروسه، وأرقب طريقته في الإلقاء، وأرى سماحة صدره وهو يناقش».

فى مجلد «الأزهر الشريف في عيده الألفي» نقف على سيرة الأب الشيخ محمد حسنين مخلوف العدوى، المولود في قرية بنى عديات مركز منفلوط بمحافظة أسيوط عام ١٨٦٠م، وحصل على العالمية بامتياز عام ١٨٨٧م واختير أميناً لمكتبة الأزهر عند تأسيسها، وهو عضو بمجلس إدارة الأزهر مع الشيخ محمد عبده، ثم صار شيخًا للجامع الأحمدي بطنطا، ومديراً عاماً للأزهر والمعاهد الدينية وعضوًا بهيئة كبار العلماء، وعُيِّن وكيلاً للأزهر في عهد الشيخ سلامة البشرى حتى عام ١٩١٥م، واختلف مع السلطان/ حسين كامل، فتمتْ تنحيته عن وظائفه الإدارية حتى توفى عام ١٩٣٦م.

كانت للشيخ محمد حسنين مخلوف (الأب) علاقة حميمة مع القطب الوفدي/ فخري عبد النور، وكان الشيخ ينزل في قصر عائلة عبد النور في «جرجا» وهو القصر ذاته الذي نزل به الخديوِ عباس حلمي، وسعد زغلول، وفؤاد سراج الدين، وكانت في هذا القصر غرفة خاصة ينزل بها مخلوف الأب، حتى إنهم أطلقوا عليها (غرفة الشيخ)!

تأثر الشيخ/ حسنين بفكر ومنهج الإمام/ محمد عبده، الذي كان صديقاً لوالده، وقد تولى منصب مفتى الديار المصرية مرتين، الأولى من مارس ١٩٥٢-١٩٥٤م ثم عمل رئيساً للجنة الفتوى بالأزهر، وظلَّ خمسة وأربعين عاماً من ١٩٤٦-١٩٩٠م مقصوداً بالفتوى، وكان طوال هذه السنوات مرفوع الرأس، لأنه

-على حد تعبيره- «لمْ أحنِ هامتي إلاّ لله».

كان «مخلوف الابن» نموذجاً للاستقامة في الفكر والجرأة في الحق، لا ترهبه سطوة الحكم ولا غوغائية الجهلاء ولا إرهاب المتطرفين، وكانت الفترة الثانية التي شغل فيها منصب مفتي الديار من ١٩٥٢- ١٩٥٤م أصدر خلالها نحو تسعة آلاف فتوى. وقد اشتِهرتْ فتاواه بالدقة والجرأة والجهر بالحق.

هذا، وقد شارك الشيخ مخلوف الابن في ثورة الأزهر، التي قادها عام ١٩٣٥م الشيخ أحمد حسن الباقوري للمناداة بعودة الشيخ/ مصطفى المراغي للأزهر، وكان مخلوف الأب يعتبر المراغي واحداً من أبنائه، وكانت ميول الإبن وفدية على عكس المراغي الذي كان دستورياً.

ومثلما كانت لوالده مصادمة مع حسين كامل وقطيعة، فقد كانت له قطيعة مع عبد الناصر، حينما هاجم مخلوف الابن القوانين الاشتراكية، ورفع في مواجهة عبد الناصر شعار (حرية الملكية في الإسلام)!

* * *

كرَّس الشيخ مخلوف حياته كلها(١٨٩٠-١٩٩٠م) لخدمة الإسلام والمسلمين، داخل مصر وخارجها، حيث امتدت رحلاته إلى كثير من البلاد العربية ليؤدي رسالة العلم، ويلقي دروسه، أو يفتي في مسائل دقيقة تُعرض عليه، أو يناقش بعض الأطروحات العلمية في الجامعات، وشارك في تأسيس الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، وكان عضوًا في رابطة العالم الإسلامي بمكة المكرمة، وأثرى المكتبة الإسلامية بالعديد من المؤلفات القيمة في مختلف العلوم، تأليفًا وتحقيقًا وشرحًا، وقد جاءت معظم مؤلفاته تبصيرًا للناس بالدين الصحيح، وإحياء للسنَّة، ومحاربة للبدع والخرافات، من هذه المؤلفات: آداب تلاوة القرآن وسماعه، بلوغ المسئول في مدخل علم الأصول، أضواء من القرآن والسنَّة في وجوب مجاهدة الأعداء، تفسير سورة يس، من وحي القرآن والسنَّة، حكم

الشريعة في مأتم ليلة الأربعين، الدعوة التامة والتذكرة العامة، شرح الشفا في شمائل صاحب الاصطفا، فتاوى شرعية وبحوث إسلامية، المواريث في الشريعة الإسلامية، شرح الوصايا النبوية، نفحات زكية من السيرة النبوية، أدعية من وحي القرآن والسنَّة، تفسير سورة القدر، تفسير آية الكرسي وسورة الإخلاص وسورة الضحى، النصائح الدينية والوصايا الإيمانية، الأخلاق الإسلامية، شرح البيقونية في مصطلح الحديث، شرح أسماء الله الحسنى والآيات القرآنية الواردة فيها، وغيرها.

حين رأى «الشيخُ» كثرة السائلين عن بعض معاني الآيات القرآنية، وجد من اللازم أن يخص كتاب الله عزَّ وجل بمؤلفيْن، أحدهما يختص ببيان معاني الكلمات القرآنية، وأطلق عليه «كلمات القرآن تفسير وبيان»، وقد رزق الكتاب حظوة بالغة وتعددت طباعته. أمَّا الآخر فهو أكثر اتساعًا وبيانًا لمعاني القرآن، وسمّاه «صفوة البيان لمعاني القرآن».

للشيخ حسنين مخلوف كتاب نادر لا توجد منه نسخ في أيّ من المكتبات، وهو (الرفق بالحيوان في الشريعة الإسلامية) يقول عن سبب تأليفه: «وبعد، فقد أمرني والدي صاحب الفضيلة الشيخ محمد حسنين مخلوف العدوى المالكي –مدير الأزهر والمعاهد الدينية– بجمع ما تيسر من النصوص الشرعية في (الرفق بالحيوان) لحاجة كثير من الناس إلى معرفة حكمه في الشريعة الإسلامية، فصدعتُ بالأمر متوخياً سبيل الإيجاز ومستعيناً بالله».

يقول فى مقدمة الكتاب: «لا تكمل فضيلة المرء حتى يكون ليِّن الجانب رؤوفاً بالضعفاء شفيقاً على البؤساء رفيقاً بمن يجمل به الرفق من الخلق، ويقشعر بدنه كلما دار بخلده مثال القسوة والغلظة والعنف والشدة في غير مواطنها الخاصة التي تعد فيها من العدل والحكمة، حتى ليكاد يتصور أن ليس في بني الإنسان من يرضى أن يقسو على من يرحم، ويغلظ على من يرفق به –لولا ما يسمعه من قصص

الجبابرة الهالكين، ويراه من الدهماء الذين انتزعتْ الرحمة من قلوبهم انتزاعاً، ومردتْ نفوسهم على الغلظة والقسوة والجبروت دواماً، ولعمري أن هؤلاء لهم أحقر الناس نفوساً وأقلهم إحساساً وأبعدهم عن الفضيلة اتساماً، لأنَّ النفس الكريمة الحساسة تأبى أن تلصق بها سبة الجور والعسف. إنَّ النفس الصغيرة الجامدة تحسب الرفق جبناً والرحمة خوراً في الطبيعة، وتتلذذ بمشاهد الفتك ومناظر الإيلام والتعذيب ..».

يسوق الشيخ مخلوف صوراً من قسوة بنى البشر منزوعي الرحمة في طريقة تعاملهم الوحشى مع الحيوان، فيقول: «يسمعون بآذانهم رغاء الإبل، وقبع الخيل، وسحيح البغال، وسحيل الحمر، وخوار البقر شاكية من وقع الأثقال الشديدة عليها باكية من شدة آلامها، مستشفعة بما يتحدر من مذارفها لدى ذلك العسوف الجائر، عسى أن يرحمها ويخفف عذابها، فلا تجدونه إلاَّ مشقاً بالسوط وملقاً بالعصا».

ويسوق «الشيخ» من صور العسف الآدمي في معاملة الحيوان، معرِّفاً أصوات وأنات هذه الحيوانات بصفتها المعجمية الصحيحة، فيقول واصفاً ظلم البشر للحيوان: «يسمعون ثغاء الغنم، وبعار المعز، ومواء الهر على ما بها من ضعف واستكانة، فيسوقونها سوقاً حثيثاً وينهرونها نهراً عنيفاً ويذيقونها لوعة الجوع وحزازة الظمأ، وإنَّ ذلك لهو منتهى القسوة والغلظة وغاية العنف والجفاء».

لقد استشهد «الشيخ» بعدة أحاديث نبوية شريفة تحض على الرفق بالحيوان، منها: «إنَّ الله يحب الرفق في الأمر كله» و«إن الله رفيق يحب الرفق ويعطى عليه ما لا يعطي على العنف» و«أيما والٍ وُلِّيَ فرفق ولان رفق الله تعالى به يوم القيامة»، و«إذا قتلتم فأحسنوا القتلة، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبحة»، و«من غرس غرساً أجرى الله له أجر ما غرس ما أكل منه من إنسان أو طائر أو دابة».

لمْ تخلُ الإشارة للرفق، فأورد «الشيخ» بعض المواقف النبوية في الرحمة

بالدواب، ومنها الإبل، حتى إنَّ الرسول الكريم ﷺ نهر واحداً من الأنصار حينما أثقل على جمله، وقال له: «ألاَ تتقي الله في هذه البهيمة التي ملَّكك الله إياها، فإنه شكا إليَّ أنك تجيعه وترهقه في العمل». كما أورد قصة هروب بعير من أصحابه، وجثم بين يدي الرسول، فلما وجده أصحابه بين يدي النبيّ ﷺ قالوا: «هذا بعيرنا هرب من ثلاثة أيام». فقال: «أمَا إنه يشكو إليَّ فبئست الشكاية».

كذلك الأمر في الطيور والقطط، وأيضاً في الكلاب، التي ورد فيها الكثير من الأحاديث والمواقف الإيمانية، منها أن رجلاً سقى كلباً يلهث، حينما ملأ له خفه من بئر؛ فغفر الله له.

غير أن هناك حيوانات أباح الإسلام قتلها، فقد حددها حديث شريف، وهي: (الحية، والفأرة، والكلب العقور، والحدأة، والعقرب، والغراب الأبقع -أيْ الذي يقف على الجيف).

أمَّا عن كرامة بعض الحيوان، فإن بعضاً منها له شأن كبير في القرآن. وقد روي أنَّ: (عشرة أفراد من الحيوان تدخل الجنة: براق النبي، وناقة صالح، وعجل إبراهيم، وكبش إسماعيل، وهدهد سليمان، ونملته، وحوت يونس، وكلب أهل الكهف، وبقرة بني إسرائيل، وحمار عزيْر).

رضيَ الله عن (مفتي مصر) الأشهر، مفخرة «بني عدي» على مر الليالي والأيام، وأعظم من جلس للإفتاء بعد «أبي حنيفة» و«الشافعي» ..... والله أعلم!

شاعر الكوخ

ذات مـــرة؛ التقيـــتُ المذيعـــة الكبيـــرة (ســـلوان محمود) في مقر «اتحاد الكُتَّـاب» بالزمالك، وشكرتني بحـرارةٍ عـلى مقالةٍ كنتُ قد كتبتهـا عـن والـدها. فقلتُ لهـا: ومـا قيمـة هـذه المقالـة بجـوار قامـة «الشَّـاعر» الـذي طاولـت السحاب؟! فضحكتْ كثيراً، ثم راحت تروي لي من الحكايات الجميلة، والقصص الطريفة في حيـاة والـدها ... حتى صرتُ مسكونًا ب(شاعر الكوخ)!

محمـود حسـن إسـماعيل(١٩١٠ - ١٩٧٧م) كـان رائـداً مـن رواد الشِّـعر الحديث، يقول عنه الدكتور/ عبـد العزيـز الدسـوقي: «إنـه أعظـم أبنـاء «جماعـة أبوللو» حيث استأثرتْ التجربة الشعرية بحياته كلها، ولعلَّه الشاعر الوحيـد الـذي ظلَّ يغرِّد في حيوية وعذوبة وشباب أكثر مـن أربعـين عامـاً دون أن ينضـب معينـه الشِّعري الزاخر، أوْ يشعر بالقلق حِيال أدواته الفنية، وقـد ظـلَّ راهبـاً في محـراب الفن طوال حياته، لمْ تستطع الأجناس الأدبية الأخرى أن تشدّه إليها»!

على الرغم من الوفاء الذي اتسـم بـه هـذا الشـاعر الكبيـر؛ إلاَّ أنـه عـانى مـن الجحود، حتى اضطرَّ إلى السفر للكويت، ومكث بها حتى وافته المنية هناك، وقـد كشف عن هذه المرارة، في قوله: «ما كنتُ أتصوَّر هذا النكران بعد أنْ حملتُ القيثار نصف قرن .. فماليَ يد في كل مـا أتحـرك فيـه، ولكنهـا حـروب الأيـام وجزاؤهـا للعاكفين عـلى صـخور الشـرف والمبـادئ اليقينيـة القاطعـة بالارتفـاع، ورفـض الانصياع لرياح هذا العصر»!

أجل؛ كان «شاعر الكوخ» وفيًّا لأصدقائه، كما كان وفيًّا لقريته «النخيلة» بأسيوط؛ تلك القرية التي عاش فيها طفولته اليافعة وشبابه النضير، فكان يستمد منها وحيه الإبداعي، وفي هذا يقول: «لمْ تترك طفولتي بصمات على حياتي كشاعرٍ فحسب؛ بلْ كانت هي السر الذي اندلعتْ منه حياتي الشعرية، فهي لمْ تكن طفولة فقط، بلْ كانت امتداداً منذ مولدي بها إلى أن نزلتُ المدينة، وقهرني فن الشِّعر قبل انتهاء مرحلة الدراسة بصدور ديواني الأول (أغاني الكوخ) ذلك أنني عِشتُ القرية بروحي وجسدي»!

في هذا الصدد؛ يقول صديقه الكاتب المسرحي/ نعمان عاشور: «كان محمود حسن إسماعيل شديد التديُّن، راسخ الإيمان، وكان كثير الفخر بإسلامه وعروبته، ولم يكن يفصل بين الإسلام والعروبة، وكثيراً ما كان يتغنَّى بالرسول وخلفائه الراشدين، معتبراً أن هذا هو العهد الذهبي والوجه الحقيقي للعروبة والإسلام».

مفتاح شخصية الشَّاعر

كان (محمود حسن إسماعيل) شعبياً، عاش عمره في الأحياء الشعبية، وكان يستخدم وسائل المواصلات العامة في تنقلاته، ولمْ ينسَ أبداً صعيديته وحياته القروية، ولا غادرته صور الكوخ التي سجلها في ديوانه الأول! ولمْ تكن له أية مشاركة في الحياة الاجتماعية، وكان بصورة عامة هادئ الطبع، قليل الانفعال، يستقبل زواره بحفاوة كبيرة، ولا بأس من التخفف من مسلكه الجاد بشيء من الفكاهة وخِفَّة الروح. ولعلَّ أبلغ وصف له أنه بكلامه وإيماءاته قطعة منتزعة من صعيد مصر الجواني!

وصفه أصحابه، فقالوا: سِحنَة سمراء، وشَعر مُجعَّد، وعينان جاحظتان حمراوان، وقامة معتدلة، لا تشتكي طولاً ولا قصرا، ولا بدانةً ولا هزالا.

في ذِكرى رحيله؛ ألقتْ الشاعرة/ نوال مهنى- قصيدة رائعة بعنوان (شاعر الريف) قالت فيها:

أحرى بِشِعريَ أن يكرِّم شاعراً ... كم رددتْ تغريده الأجواءُ؟
فصداحه (حسنٌ ومحمودٌ) المُنى ... ونواحهُ للعاشقين عزاءُ
غَنَّى لنار الكوخِ، بلْ ودخانه ... كمْ راقه بين النخيل غناءُ
يا شاعراً لعب الحنينُ بوجده ... هذا نشيدك في الحنين بكاءُ
في قدسك الأسنى أقمتَ صلاتكم ... فالحبُّ عندك وحدة وفناءُ
وإذا بِشِعركَ قد غدا محرابكم ... فجميع قولك عِفةٌ ونقاءُ!

روى الأديب/ وديع فلسطين- حكاية طريفة عن صديقه الشاعر/ محمود حسن إسماعيل؛ تكشف عن طبيعة الشَّاعر وحياته الهزلية؛ فقال: كان من عادة محمود حسن إسماعيل؛ عندما يريد استدعاء بواعث الإلهام، يخرج من بيته في مدينة الجيزة في ساعة متأخرة من الليل، فيتمشى على شاطئ النيل، وهو في حالة (وجد شِعري) يكاد يكون فيها غائباً عن الدنيا من حوله. استوقفه -ذات مرة- شرطي وهو يذرع الطريق ذهاباً وعودة، ظناً منه بأنه يحوم حول المنازل، لكيْ يدبِّر أمراً يعاقب عليه القانون! فاستوضحه مقاصده، وطلب منه -الشاعر- ألاَّ يقطع عليه حبل تفكيره، لأنه ينظم قصيدة عصماء. وهو كلام لم يفهمه الشرطي الساذج! فساقه إلى مركز الشرطة للتحقيق معه. ومن حسن حظه؛ أنَّ الضابط المنوب كان يعرف اسم محمود حسن إسماعيل من خلال أغاني الإذاعة، فاعتذر له، ونصحه بأنْ يكفَّ عن التجول في ساعات الليل المتأخرة؛ حتى لا يثير الشبهات!

ليس هذا فحسب؛ بلْ كانت حياة «محمود حسن إسماعيل» سلسلة من الكوارث والمطبَّات! فمن ضمن الأزمات التي صاحبته في حياته؛ أنه كان أصدر ديواناً شعرياً قبل ثورة يوليو ١٩٥٢م بعنوان (الملِك) طمعاً منه أن ينال منصباً أوْ رتبة ما، فخانه الحظ، ولمْ ينل «الباكوية» ولا «الباشوية»! ولمَّا اشتعلت ثورة يوليو، وبدأتْ في تطهير المناصب الحكومية من رجال النظام السابق؛ خشي «الشاعر» أن

يصيبه أذى في رزقه بسبب هذا الديوان، فتكتَّم أمره، وطوى صفحته، ولم يعد يذكره، وأسقطه من قائمة دواوينه، وتمنى أن ينساه الناس تماماً. وبالفعل؛ نسيه النقاد إلى الأبد!

لكن في المقابل؛ ارتأى «الشاعر» أن يجاري النظام الجديد، ليداري على ديوانه المشئوم! فأصدر ديوان (نار وأصفاد) ووقفه على شِعر النضال والكفاح والثورة، حتى لا يقال إنه تقاعس عن الإسهام في تأييد ثورة يوليو!

يقول الناقد/ عبده بدوي: حين يُذكَر الشاعر «محمود حسن إسماعيل» لابدَّ أن تُذكَر تلك الرعشة التي أدخلها على الشِّعر العربي؛ لأنه أدخل تركيبة جديدة في الشعر العربي، حين جرَّد بصفة حاسمة المحسوس، وجسَّد غير المحسوس، وأفاد من خصائص المدرسة الرمزية، وأصبحتْ القصيدة عنده في نهاية الأمر سلسلة من الانفجارات المضيئة، تظل تشتعل ببطء في صميم القصيدة، حتى يزدهر النور تماماً في آخرها.

إنَّ شِعر محمود حسن إسماعيل كبيوت العبادة تحتوي الإنسان احتواء شديدا، ثم تمتص قواه، وتحوله إلى عالَم نقي، فهو لا يقابلك إنساناً بسيطاً أوْ إنسانا متحذلقا، وإنما يقابلك في شِعره كالساحر الإفريقي حين يرتدي قناعًا وخرزًا وريشا، ومن حوله الصيحات والطبول والغرابة، وهكذا يبدو إنساناً متميزا، ويبدو شِعره كنوع من الموسيقى لم تُعزَف من قبل!

إنَّ المتأمِّل في شِعر «محمود حسن إسماعيل» يدرك أنه مبدع فنان، ينفر من القيود، ويثور على الأصفاد، ويظمأ إلى نور الحقيقة الذي يفتح في مجاهل النفس ألف نافذة للحرية!

هذا؛ وقد تنوعت أغراضه الشعرية بتنوع شخصيته، لكن تتدفَّق قصائده رقراقة كالماء الخرير، وعذبة سائغة كالسلسبيل، عندما يتكئ على حائط الكوخ، ويخلد إلى الفضيلة، ويسكن إلى عالم الروح، ويستدعي مشاعره الإيمانية ... فاستمع إليه

وهو يُصوِّر شهر رمضان الذي يعاود في كل عام مرة مزاره، حاملاً سُنناً علوية النظام، فيناديه قائلاً:

أضيفٌ أنتَ حَلَّ على الأنام ... وأقسمَ أنْ يُحيَّا بالصيامِ؟
قطعتَ الدهرَ جوَّاباً وفيَّاً ... يعودُ مزاره في كل عامِ
تُخيِّمُ لا يُحِدُّ حِماكَ رُكنٌ ... فكل الأرض مهدٌ للخيامِ
نسختَ شعائرَ الضيفانِ لمَّا ... قنعتَ من الضيافةِ بالمقامِ
ورُحتَ تَسُنُّ للأجوادِ شَرعاً ... من الإحسان عُلويّ النظامِ
بأنَّ الجوعَ حِرمانٌ وزهدٌ ... أعزّ من الشرابِ أوْ الطعامِ

ثمَّ راح يُصوِّر الصائمين؛ المترقبين صوت المؤذن، منتظرين في رهبةٍ وخشوع صوت الأذان، فيقول:

جعلتَ الناس في وقت الغروبِ ... عبيدَ نداءك العاتي الرهيبِ
كما ارتقبوا الأذانَ كأنَّ جُرحاً ... يُعذّبهم تلفَّتَ للطبيبِ
وأتْلَعت الرقابُ بهم فلاحوا ... كركبانٍ على بلدٍ غريبِ
عُتاةُ الإنس أنتَ نسختَ منهم ... تذلُّلَ أوجُهٍ وضَنَى جُنُوبِ

بعد ذلك؛ يُصوِّر المآذن ونورها، كأنه وحيٌ يذكِّر بالهداية، ويملأ النفوس بالإيمان، ويدفعها إلى الخير والمحبة والسلام، فيقول:

تلفَّتَتْ المآذنُ حالماتِ ... كحورياتِ خُلدٍ سافراتِ
تضوعُ مباخرُ النُّسَّاكِ منها ... فتحسبها غصوناً عاطراتِ
تلألأ حولها أطواقُ نورٍ ... مضيئاتٍ بحبِّك هائماتِ
كأنكَ حاملٌ وحياً إليها ... وقَفْنَ بسحرهِ متلهفاتِ
إذا صاح الأذانُ بها أرنَّتْ ... بإلهام كموجِ البحرِ عاتِ
يُذكِّرُ بالهدايةِ كلَّ ناسٍ ... ويُوقِظُ كلَّ غافٍ للحياةِ!

زعيم المعارضة

(ممتاز نصَّار) أبرز نائب عرفه البرلمان المصري، كما أنه صاحب أكبر عدد من الاستجوابات النارية في تاريخ البرلمان على الإطلاق!

إنه (مُحامي مصر) الذي دافع عن الأرض والكرامة في واحدة من أخطر القضايا «القومية» الشهيرة، بعد التفاف الشعب حوله، فانتزع حكم تاريخي بمنع بيع أرض «هضبة الأهرام» التي كاد اللصوص من الخارج، والمرتشون في الداخل أن يبيعوها للسماسرة والأجانب!

لذا؛ فقد أرسلت «اليونسكو» خطاب شكر وتقدير للمستشار/ ممتاز نصار؛ الذي كان وراء إلغاء المشروع، وإنقاذ آثار مصر من الضياع التي تعد ثروة قومية لمصر، وثروة عالمية أيضاً يستمتِع بها العالم أجمع!

هذا (النائب) الذي لمْ يدعْ قضية صغيرة أوْ كبيرة إلاَّ وأدلى بدلوه فيها، طالما أنها تقع ضمن مسئولية وواجبات النائب في البرلمان!

وقد وصلت أمانته في أداء واجباته النيابية إلى حد مساءلته للوزراء عن تصرفاتهم، استناداً إلى حقه الدستوري في ذلك؛ فقام بعمل استجواب للمهندس «عثمان أحمد عثمان» الذي كان يشغل منصب نائب رئيس مجلس الوزراء، وذلك بشان كتابه الشهير «صفحات من تجربتي»!

ومازال الشعبُ المصري، يستشهد بمواقفه كنائب جريء كشف عن الفساد

والتجاوزات، ووضع استراتيجية تهدف إلى خدمة الشعب والبلد معاً. بلْ مازال المثل يُضرَب بهذا «النائب» المدافع عن حقوق المواطن!

ولِمَ لا؟ فهو أحد رموز الوطنية المصرية، وقد تجلَّتْ مواقفه الوطنية أثناء (مذبحة القضاء) في عهد الرئيس عبد الناصر؛ الذي أراد توجيه القضاء في نفس اتجاه الدولة، وقام علي صبري -نائب رئيس الجمهورية آنذاك- بكتابة مقالات بجريدة الجمهورية تدعو إلي إدخال القضاة للاتحاد الاشتراكي؛ ليكونوا بجوار قوى الشعب العاملة، ووصف القضاة بأنهم يعيشون في أبراج عاجية، وأن فيهم بقايا الإقطاع والرأسمالية البغيضة، ويجب استئصالهم من جذورهم! ثمَّ قام علي صبري في هذا التوقيت باستدعاء المستشار «ممتاز نصار» الذي كان يشغل رئيس نادي القضاة عام ١٩٦٧م وكان وزير العدل وقتها المستشار/ عصام حسونة؛ الذي طلب من ممتاز نصار الانضمام رسمياً إلى الاتحاد الاشتراكي، وعرض عليه موقع أمانة القضاء بالحزب! وذكرت بعض المصادر أن المشير/ عبد الحكيم عامر- وقف بجوار القضاة في موقفهم الرافض للانضمام للحزب!! وقد رفض «ممتاز نصار» مطلب الحكومة بشدة، مستندًا إلى أنَّ القضاء مِلكٌ للشعب كله، ولا يمكن أن يكون مِلكًا لحزب!

ومن المواقف المشرِّفة -أيضا- لممتاز نصار- أنه أول من تصدى لاتفاقية «كامب ديفيد» التي عقدها الرئيس السادات مع إسرائيل، فوقف -نصَّار- في وجه السادات الذي لم يحتمل وجود ١٣ معارضاً داخل مجلس الشعب لمعاهدة السلام مع إسرائيل، وأمر بحل المجلس عام ١٩٧٩، لإسقاط هؤلاء المعارضين! لكن الانتخابات الجديدة أتتْ -مرة أخرى- بممتاز نصار!! فنجح، ولُقِّبَ بالنائب الذي انتصر على الرئيس! بلْ كان الفائز الوحيد من المجموعة التي رفضت الاتفاقية، والذين تمَّ إسقاطهم بأحقر الوسائل!

أيضاً؛ بعد وفاة عبد الناصر اكتشف ممتاز نصار أن قرار سجن (الإخوان

المسلمين) كان باطلاً، لأنَّ مجلس الأمة ومجلس الثورة لمْ يطَّلعا عليه! وبناء على ذلك؛ طالب بسرعة الإفراج عن الإخوان المسجونين! وقد تمَّ بالفعل الإفراج عنهم، وحصلوا علي تعويضات عن الأضرار التي لحقت بهم.

* * *

بدأ «ممتاز نصار» حياته العمل بالمحاماة لمدة ست سنوات، في مكتب الزعيم الوطني/ مكرم عبيد -سكرتير الوفد- ثمَّ التحق بالنيابة، ومنها إلى القضاء، فإلى التفتيش القضائي، حتى أصبح مستشاراً بمحكمة النقض، وخلال تلك الفترة انتخِبَ عضواً بمجلس إدارة النادي عام ١٩٤٧ ثم سكرتيراً للنادي حتى أصبح رئيساً لنادي القضاء من ١٩٦٢ إلى عام مذبحة القضاة ١٩٦٩م، وظلَّ خلال تلك الفترة خير مدافع عن العدالة والقضاء واستقلاله، وله في ذلك تاريخ طويل من النضال، تناوله بالتفصيل في كتابه «معركة العدالة في مصر»!

عاد بعد ذلك إلى العمل بالمحاماة، وأثار ملف (مذبحة القضاة)! ثم خاض تجربة الاشتغال بالعمل السياسي، فدعا إلى إنشاء حزب جديد باسم «حزب الجبهة الوطنية» ثم «حزب العدل»، لكن محاولاته لمْ يكتب لها النجاح، فانضم إلى (حزب الوفد الجديد) في عام ١٩٨٤م، وقد أرجعَ سبب انضمامه للوفد بالذات؛ إلى أنه هو أقرب الأحزاب القائمة إلى الليبرالية، وأنه حزب له جذور وتاريخ طويل، وأن حكومة الوفد هي أول حكومة جاءت بقانون استقلال القضاء عام ١٩٤٣م، وأول حكومة دعتْ للجامعة العربية، كما أن حكومة الوفد هي الحكومة التي ألغتْ الامتيازات الأجنبية في مصر عام ١٩٣٦م، هذا بالإضافة إلى أن حزب الوفد الجديد؛ هو الحزب الوحيد الذي ولِدَ ولادة طبيعية، وله الشرعية الحزبية الشعبية!

وهنا؛ رَشَّحَ (ممتاز) نفسه لعضوية البرلمان لأول مرة في حياته في دائرة البداري -مسقط رأسه عام ١٩٧٦ وفاز في أول معركة انتخابية، ثم أعاد ترشيح نفسه، ففاز

للمرة الثانية في أشهر انتخابات لمجلس الشعب شهدتها مصر، حيث زحفت الجماهير لتنتخب ممتاز نصار!

وقد شغل منصب رئيس الهيئة البرلمانية الوفدية، وزعيم المعارضة بالبرلمان، وكان أحد مجموعة المستقلين الذين أثروا الحياة البرلمانية في مصر، وجعلوا من برلمان ٧١ – ٧٦ العصر الذهبي للمعارضة، كما جاء في كتابه «العصر الذهبي للمعارضة!»

إنَّ مصر تَحِنُّ إلى نوابٍ كبار، أمثالْ: ممتاز نصار، وحلمي مراد، وعلوي حافظ؛ أولئك الذين كان الوزراء يهابون لقاءهم، بلْ كان رئيس الجمهورية يحسب لهم ألف ألف حساب!

نعم؛ إننا نفتقر للنواب العظام، لاسيما في هذا العصر؛ الذي صار فيه أعضاء البرلمان: من الجهلة، والبلطجية، والسماسرة، وتجار مخدرات، والخالرجين على القانون!

عميد التربويين العرب

في «الجزء الرابع» من يومياته؛ يقول عباس العقاد – رحمه الله–: «ليس في بلاد وادي النيل بلد أوفى أخباراً من (قوص) في المراجع العربية، أمَّا في المراجع الأخرى؛ فقوص هي (قيسيت) الفرعونية القديمة، وهي باليونانية بلد أبولون –ربّ الفنون– لأنَّ أبولون عند اليونان، يقابل حورس الأكبر؛ الذي اعتقد المصريون الأقدمون أنه ولد في قوص. والمهم في تاريخ هذا البلد العريق أنه من أصلح بلاد العالم لتطبيق فلسفة الجغرافيا الاجتماعية، أو فلسفة التاريخ الجغرافي كما يُسمِّيه بعض المحدثين. فموقع قوص على النيل، وإزاء البحر الأحمر قد جعلها أقدم البلاد صلة بالبلاد العربية وما وراءها إلى بلاد الصين، وقد اتصلت ببلاد العرب قبل الإسلام، وقبل الميلاد، وقبل بعثة موسى عليه السلام. وكانت قبل الميلاد بألفيْ سنة مورد التجارة من عدن وسواحل الهند والصين وأفريقيا الشرقية، فكان لطريقها الصحراوي مزية كبرى لكثرة المناجم فيها، ومنها مناجم الحجارة النفيسة. ولولا ميل الفراعنة إلى سكنى البلاد التي يعمرون شواطئها الغربية بالمقابر الحجرية لاتخذوها عاصمتهم الأولى، ولكنهم قد اعتبروها العاصمة الثانية. وقد عاد إلى قوص مجدها القديم في عهد الدولة العربية، وتعزَّز هذا المجد بما يضارعه أيام الحروب الصليبية، ثم انتظمتْ طريق المشرق بين البحرين الأحمر والمتوسط، فانزوت قوص في حدود إقليمها، وبقيتْ لها ثروتها الزراعية، بعدما كان لها من ثروة التجارة، وثروة المناجم، وثروة السلطان، ومعه قِبلة الأديان على مختلف

العبادات، وتلك الأيام نداولها بين الناس، وبين بلاد الناس»!

* * *

إذنْ؛ لا عجب أن يكون هذا البلد العريق «قوص» هو الذي أنجب (عبد العزيز القُوصِي) مؤسس مناهج علم النفس في العالم العربي؛ والذي قال عنه البروفيسور/ فيليب فرتون –رائد علم النفس التعليمي بجامعة لندن: «يجب أن نحني رؤوسنا للرواد الأوائل الذين ارتادوا حركة قياس القدرات الإنسانية مثل الدكتور القوصى»!

في كتابه «أعلام قوص» كتب صديقنا الأديب/ أسامة أمين الشيخ- يقول: كان «عبد العزيز القوصي» طموحاً منذ طفولته، لذا؛ فقد أوفدته «وزارة المعارف» في بعثة إلى إنجلترا، وهناك التحق بجامعة برمنجهام، حتى حصل على دكتوراه في فلسفة علم النفس عام ١٩٣٤م، وحصل على زمالة جمعية علم النفس البريطانية، وقد توصل في رسالته العلمية إلى اكتشاف علمي سيكولوجي نشرته جامعة أدِنبره، وأطلق على هذا الكشف اسم «عامل إدراك المكان» ويعرف باسم (القوصي Kusy) في جميع أنحاء العالم، يرمز لها عالميًا بحرف K إشارة إلى اسمه. وكان لهذا الكشف آثار ملموسة في جهود علماء النفس البريطانيين، مثل «طومسون» والأمريكيين مثل «ثرستون»، حيث تابع العلماء طريقه، وبدءوا من حيث انتهى!

في ضوء هذا الاكتشاف؛ قامت «الهيئة القومية البريطانية» بتصميم الاختبارات النفسية لتصور العلاقات المكانية، كما قام عالِم النفس البريطاني «فيرنون» بتصميم عدد من الاختبارات على أساس اكتشاف القوصي، وقد استخدمتْ هذه الاختبارات في عملية الاختبار، والتوجه المهني للمهندسين، والفنيين بالقوات المسلحة البريطانية خلال الحرب العالمية الثانية!

هذا؛ وقد توصل «القوصي» إلى نظرية حول تكوين بناء القدرات العقلية على أساس ثلاثة أبعاد، هي: (المضمون الأساسي –الوظيفة –الشكل) وأطلق عليها اسم نظرية

الأبعاد الثلاثة. وقد عرض هذه النظرية على مؤتمر عالمي لأسلوب التحليل العاملي في باريس عام ١٩٥٥م. وشارك معه رواد علم النفس العالميين، أمثال: جيلفورد وثرستون، وقد شهد له الجميع بالتميز العلمي والقدرة على التنظير!

لذلك؛ يقول الدكتور/ فؤاد الموافي-أستاذ علم النفس التعليمى، ووكيل كلية التربية بجامعة عين شمس-: «إذا كان مطلع الثلاثينات من هذا القرن قد شهد تمجيد ينبوع العبقرية في ذلك الشاب الذي لمْ يبلغ الثامنة والعشرين من عمره، فمنحته جامعة لندن عام ١٩٣٤ درجة الدكتوراه الفلسفية في علم النفس؛ فإنَّ مطلع الثمانينات، قد شهد تتويج العبقرية في العالِم الأستاذ والمعلِّم الرائد لتيار المعرفة النفسية والتربوية في مصر والعالم العربي، وذلك لحصول «القوصى» على جائزة الدولة التقديرية في العلوم الاجتماعية، ذلك النموذج المتجدد للإبداع والموهبة الخلاَّقة في كل موقع عمل به».

أجل؛ كان «القوصي» عبقرياً؛ وله قدرة عجيبة على التحليل النفسي؛ ففي كتابه «علم النفس- أسسه وتطبيقاته التربوية» يؤكد أنَّ اللعب وسيلة من وسائل التربية، لفهم نفسية الأطفال، ومعرفة مفاتيح شخصياتهم، إذْ يقول: «يعتبر لعب الأطفال تعبيراً حقيقياً عن سلوكهم السويّ أوْ المضطرب، فالطفل أثناء لعبه يُعبِّر عن مشكلاته وصراعاته التي يعاني منها، فيُسقِط ما بنفسه من انفعالات تجاه الكبار على لعبه»!

في كتابه «أسس الصحة النفسية» الذي تُرجِمَ إلى العديد من اللغات- يعتمد على التأصيل النظري، والخبرة العملية في العيادة النفسية، ويروي قصة تؤكد أثر الإيحاء في العلاج، فيقول: «إنَّ أحد المصابين بالربو، سكن بفندق فخم، وذات ليلة فاجأته الأزمة، وشعر بأنه في حاجة إلى الهواء المنعِش، فراح يلتمس طريقه للنافذة حتى شعر بملمس الزجاج البارد، حاول فتحها فلمْ يستطع، فلفَّ يده بقميصه وكسر الزجاج، وأخذ يتنفس بعمق، ولمَّا استيقظ في الصباح، وجد النافذة سليمة ومغلقة! أمَّا الزجاج المكسور فكان لخزانة الساعة الموجودة بغرفته!

فـ(الوهم) هو الذي جعله يعتقد أنه يتنفس الهواء النقي، فتحسَّنتْ حالته!

* * *

لقد شارك «القوصي» في العديد من المؤتمرات العالمية؛ لعرض اكتشافه أمام علماء النفس في مجال اكتشاف القدرات الإنسانية، ودعوته لإلقاء بحوث عديدة في المؤتمرات الدولية المهتمة بشئون التخطيط للتربية، والتعليم للصغار وللكبار، ومساهمته في رسم سياسة التعليم في عدد كبير من البلاد الأوروبية والعربية، والإشراف على رسائل الدكتوراه أوْ مناقشاتها في عدد كبير من البلاد الأوروبية والعربية، ومنحه عضوية كثير من الهيئات الدولية المهتمة بشئون التربية والثقافة. إلى جانب ذلك؛ فالدكتور/ القوصي- كان مشرفاً على تحرير عدد كبير من المجلات الدولية المتخصصة في علم النفس، وكثيرًا ما يُستشهد باكتشافاته في بعض البحوث النفسية في أنحاء العالم.

تتلمذ على يديْه العديد من علماء النفس البارزين في كل من إنجلترا، وسويسرا، والسويد.

أمَّا في مصر؛ فهو رائد علم النفس، وجميع أساتذة علم النفس والتربية يدينون له بالكثير من الفضل، خاصة خلال فترة عمادته لكلية التربية بجامعة عين شمس، وتأسيسه للعيادة النفسية بها. وقد تابع تلاميذه العمل في مجال دراسة القدرات العقلية والدراسات النفسية التي تعتمد على الإحصاء التجريبي، ومن بينهم الدكتور/ فؤاد البهي السيد، والدكتور/ أحمد زكي صالح، والدكتور/ عزت سلامة، والدكتور/ محمد عبد السلام، وغيرهم من التربويين المشاهير.

وفي هذا يقول الأستاذ/ محمد النوبى الشال -وكيل وزارة التربية والتعليم السابق: «كان الدكتور/ القوصى -الشخصية القديرة المسئولة المتزنة الملتزمة بتقاليد المهنة وقدسيتها، يحمي حماها، ويذود عن حياتها، ويدافع عن قيمتها، ويرصد مفاهيمها، اضطلع بوظائفه أروع اضطلاع، وقام بأدواره خير قيام وظل دائماً العَلَم البارز بين

الأعلام، والحارس الأمين لأخلاقيات المهنة، وقد عرفت مصر كلها فضل هذا الرجل الماجد الدكتور القوصى وجهده العظيم وكفاءته النادرة وريادته التربوية المثالية فمنحه الرئيس/ أنور السادات– جائزة الدولة التقديرية في العلوم الإنسانية، فكانت لفتة كريمة سعد لها كل من عرف هذا العالم الجليل».

* * *

ينحدر «عبد العزيز القوصى» من أسرة عريقة، من عائلات قوص؛ الذين اتخذوا العلم سبيلاً للدنيا والآخرة، والتعليم سلاحاً للحاضر والمستقبل، وقد تدرج في المناصب حتى صار عميداً، ثم مستشاراً لوزارة المعارف، وممثلاً لمصر في هيئة اليونسكو بباريس، حتى عُيِّنَ مندوباً دائماً للجمهورية العربية المتحدة لدى منظمة اليونسكو، وبفضل جهوده تقررت اللغة العربية لغة رسمية في هيئة اليونسكو عام ١٩٦١م!

وللدكتور القوصى مؤلفات كثيرة، منها: (الإحصاء في التربية وعلم النفس، الاختبارات الحسية للذكاء، تيسير النحو، كتاب الأسس العامة للدوافع وسيكولوجية الجامعات، ومخاوف الأطفال، وأولادنا بين التعليم والتعلم، مشكلات وصور نفسية، قصة الحياة في جميع الأحياء، واللغة والفكر، التعليم في الوطن العربي، وغيرها من المؤلفات التي تدور في فلك التربية وعلم النفس). بلْ يُعدّ «القوصي» أول من أدخل إلى اللغة العربية اصطلاح «الصحة النفسية»، وألَّفَ أول كتاب لها؛ لا يزال يعتبر مرجعًا أساسيًا.

استمع إلى «القوصي» وهو يتحدث عن (فن الحياة) إذْ يقول: «فن الحياة لا يرتبط بمالٍ ولا جاه، ولا عِلم ولا سلطان، لكنه يرتبط بأحاسيس مرهفة، ونفس صافية كماء الغدير في هدأة الليل، وشفَّافة كالنسيم العليل .. فالحياة لا تقاس بطولها، ولا بعدد سنينها، قد يعمر بعض الناس، لكنْ لوْ قيست حياتهم بمعيار «فن الحياة» لكانت ساعة أوْ بضع ساعات! لذا؛ يُحكى أنَّ أهل بلدة كانوا يكتبون على

قبورهم (العمر الفني) الذي عاشوه .. فترى على أحد القبور مكتوباً (عاش سنة) وعلى آخر (عاش ساعتين) وعلى ثالث (لْم يعِش أبداً)!

كتب الأستاذ الكبير/ أحمد بهجت- في مقاله «صندوق الدنيا»: «الدكتور/ عبد العزيز القوصي- وجه مضيء من وجوه التربية وعلم النفس في مصر؛ فقد هاجم طريقة التعليم التقليدية، واعتبرها سبب أزمة للتعليم في مصر، وقد كان -القوصي- رائعاً بحق، فهو رجل آتاه الله موهبة العلم والبساطة معاً، فهو يستطيع أن يحدِّثك عن علم النفس دون أن يصطدم سمعك بمصطلح يصدك عن الفهم أوْ يدفع الغموض إلى نفسك!

* * *

منذ سنينٍ خَلَتْ؛ التقيتُ المستشار/ توفيق حسن وصفي -أول مدير لمكتب جامعة الدول العربية بالقدس، والذي اعتقلته سلطات الإحتلال مع القناصل والدبلوماسيين العرب أثناء حرب حزيران ١٩٦٧م- وسألني: أأنتَ من «قوص»؟ قلتُ: نعم. فقال على الفور: ماذا تعرف عن عبد العزيز القوصي؟ قلتُ: مفخرة قوص بلا منازع!

فقال بسرور: «بلْ مفخرة مصر كلها». وكان كلما لقيني؛ يُحدِّثني عن عِلمه، وتواضعه، وكرمه. وهذا ليس ببعيد عمَّا قالته عنه الدكتورة/ ليلى عبد العزيز القوصى: «كان بسيطاً متواضعاً، ومرحاً ومداعباً للجميع، كلماته تتسلل إلى القلوب؛ ببساطتها الخلاَّبة، ومداعباته وطرائفه وذكرياته التي لا نهاية لها. لذا؛ كان يأنس إليه الناس، لأنه كان يرفع الكلفة، ويزيل الفوارق، وكان متواضعاً، وفيًّا، كريمًا. ذلك الكرم الذي ورثته عنه كريمته المهندسة/ نجوى القوصي!

رحم الله العلاَّمة «عبد العزيز القوصي» ورحم الله أمير الشعراء- القائل:

وأعزُّ ما يبقى وِدادٌ دائمٌ ... إنَّ المناصب لا تدومُ طويلا !

«البركان» الذي انطفأ

كان «صعيدي» جداً، شديد الغضب، حاد المزاج إلى أبعد مدى؛ كسائر أبناء مركز «صدفا»!

كان يقرأ بأعصابه، ويكتب بأعصابه، ولا يعرف أنصاف الحلول، كما يفعل أولئك الذين يحبون أن يمسكوا العصا من الوسط! لذلك عانى في حياته معاناة مريرة، ولمْ يمكث في مكانٍ واحدٍ طويلاً، بلْ خاض سلسلة طويلة من المعارك، لمْ تنطفئ جذوتها؛ إلاَّ بموته!

على الرغم من تنقله المستمر بين الصحف والمجلات؛ إلاَّ أنه لمْ يتلون بلون أيّ مؤسسةٍ صحفية التحق بها، فقد كانت له مدرسته الصحفية الخاصة به. لذلك لمْ يستقر في مكان بعينه! لكنه حظيَ بشعبية واسعة من القرّاء، تكاد تنافس شعبية مصطفى أمين! فقد كانت الجماهير الغفيرة من مختلف المستويات؛ تتابع مقالاته ومؤلفاته باهتمامٍ بالغ؛ لِمَا حملته من أفكار جديدة، وجريئة في ذات الوقت!

* * *

في طفولته؛ أطلق عليه أشقَّاؤه وأصدقاؤه اسم (غاندي)! ليس لمجرد التشابه في الجسد النحيل، ولكن لولعه الشديد بالقراءة، لدرجة أنه لا تقع عينه على صحيفة أوْ كتاب إلاَّ قرأها بعناية!

وفي شبابه؛ استهوته دراسة القانون فقرر الالتحاق بكلية الحقوق (١٩٤٣-١٩٤٧) تلك الفترة التي كانت تموج فيها مصر بالاضطرابات، وكان العالم العربي

يجتاز مخاض الديمقراطية؛ فتفتَّح وعيه السياسي، وأراد أن يُعبِّر عن رأيه؛ فشارك في مظاهرات الطلاب عام ١٩٣٦م، وبعد التخرج مباشرة عمل موظفًا في إدارة التحقيقات بوزارة المعارف، ولكن عيه كانت على الصحافة؛ التي وجد فيها متنفسًا للتعبير عن آرائه الجريئة، في الاشتراكية، والعدالة الاجتماعية، والوحدة العربية، وغير ذلك من القضايا!

على الرغم من انتقاله للعمل بمجلس الدولة -حيث عمل تحت رئاسة أستاذه/ عبد الرزاق السنهوري- إلاَّ أنَّ الأحداث المتلاحقة في مصر، قبل ثورة يوليو، لم تكن تجعله يهدأ، فقرر الاشتباك مع هذا الواقع المشتعل، وتقديم الحلول؛ فأصدر -في تلك المرحلة- أول كتاب بعنوان «الاستعمار الأمريكي الجديد» حذَّر فيه من محاولات أمريكا ضم مصر إلى المعسكر الغربي أثناء الحرب الباردة.

لمْ يمنعه عشقه للأدب والفن عن الإبحار فوق أمواج «صاحبة الجلالة» إذْ كان حفيًّا بالثقافة ووسائطها كالسينما، والمسرح، ومعارض الفن التشكيلي، واقترب كثيراً من طه حسين، وعلي عبد الرازق، وتأثَّر بالعقاد، والدكتور محمد حسين هيكل، ورافق عبد الرحمن الشرقاوي، وفتحي رضوان، وأحبَّ فتحي غانم، وتبادل الكتب مع نجيب محفوظ. وعمل مع إحسان عبد القدوس، وتوفيق الحكيم، وثروت أباظة، ومحمد زكي عبد القادر، هذا إلى جانب عشقه لأعمال الفلاسفة الغربيين، أمثال: جان لوك، ورُوسُّو، وفولتير، وغيرهم من أعلام النهضة الأوربية!

* * *

ظهر اسمه -لأول مرة- على صفحات مجلة «الفصول»، وفي عام ١٩٥٢م دعته «روزاليوسف» للكتابة في مجلتها، فبدأ مرحلة جديدة من العمل الصحفي، وبعد خلع الملك فاروق؛ طلبت منه روزاليوسف أن يكتب عن «فاروق» وعصره؛ فأصدر كتاب «فاروق ملكًا» فذاع صيته، وأيقن أنه خُلِقَ ليكون صحفيا.

في عام ١٩٥٦م أصبح رئيسًا لتحرير مجلة «صباح الخير» ولمْ يكن تجاوز

الثلاثين من عمره، ثم عمل رئيسًا لتحرير جريدة «الشعب» عام ١٩٥٩، لكن سطع نجمه بقوة عندما التحق بمؤسسة «أخبار اليوم» التي يقول عنها: «في حياتي الشخصية أثر لا أنساه؛ فقد كنتُ في الثانية والثلاثين من عمري عندما عرض عليَّ المرحوم/ علي أمين، وشقيقه الأستاذ/ مصطفي أمين- منصب رئيس التحرير، رغم أنني لستُ من أبنائها، وكان هذا من الناحية الصحفية؛ أهم عمل توليته واستمتعتُ به مهنياً في حياتي الصحفية كلها»!

كما تولى رئاسة تحرير مجلة «آخر ساعة» في حركة التغييرات الصحفية الواسعة عام ١٩٦٤م، ثمَّ اختير رئيسًا لمجلس إدارة «دار الهلال» ورئيسًا لتحرير مجلة «المصور» وانتقل إلى الأهرام حتى صار رئيساً للتحرير في ١٩٧٤، وسرعان ما تركها، بلْ ترك مصر كلها بعد التضييق عليه، وانتقل إلي الكويت عام ١٩٧٦، وفتحت له مجلة (العربي) أبوابها، وقاد رئاسة تحريرها حتى نهاية ١٩٨١م، لكنه عاد من جديد إلى أرض المعركة ليكتب في الأهرام، غير مكترثاً بأيّ وظيفةٍ أوْ منصبٍ مهما بلغتْ قيمته!

سرعان ما عاد ليحارب علي الجبهة الداخلية، بعد أن بدا الحلم العربي الذي سعى له بعيد المنال؛ حيث انقسم العرب، وتشتَّت شملهم. وكان يتناول القضايا الداخلية برؤية مستقبلية ثاقبة، وبعقليته الموسوعية الشاملة، فحذَّر من عواقب تبوير الأرض الزراعية، وحارب الفساد، بلْ دعا إلى ضرورة أن يوجد حاسب آلي في كل بيت منذ عام ١٩٨٦م إلى آخر الأزمات والقضايا التي تعرض لها في كتاباته الصحفية، وكتبه المتنوعة التي من أهمها كتابه «أيام لها تاريخ» وكان سلاحه الفعال هو النقد البنَّاء المخلص، فنال إعجاب الحكام والمحكومين معًا، وظل يقاوم اليأس إلى أن حدث غزو العراق للكويت عام ١٩٩١م فلم يملك أعصابه، وخرَّ على الأرض حزيناً أسِفا، فكان آخر كلمة نطق بها (مش معقول)!!

توقف كلام الكاتب الكبير/ أحمد بهاء الدين، وبدأت رحلته الطويلة مع

المرض؛ الذي لمْ يمهله حتى يكمل رسالة الدكتوراه التي سجَّلها للتاريخ في باريس؛ إلاَّ أنَّ كلاًّ من جامعة أسيوط، والجامعة الأمريكية منحته الدكتوراه الفخرية، كما نال العديد من الجوائز والأوسمة، وقد تمَّ تكريمه بتأسيس «جمعية أصدقاء أحمد بهاء الدين» علي أيدي نخبة من مثقفي مصر الأوفياء قبل وفاته في ٧ أغسطس عام ١٩٩٦م.

* * *

عاش «أحمد بهاء الدين» ثنائيات الواقع العربي وتناقضاته؛ فشاهد ازدهار الوحدة العربية وانهيارها، وعايش تنامي المد القومي وانحساره، وشاهد سنوات الانتصار والانكسار، واختلف مع عبد الناصر، والسادات، وخاض كثيراً من المعارك الفكرية والسياسية، وظلَّ متمسكاً بمواقفه، لمْ يتراجع عنها، ولمْ يعتذر لأحد! من ذلك أنه عندما كان نقيباً للصحفيين في سنة ١٩٦٧م؛ أصدر بياناً شديد اللهجة، انتقد فيه سياسة عبد الناصر وتصرفاته، وحمَّله مسئولية نكسة حزيران، وحرَّض على المظاهرات ضد الرئيس! فغضب عبد الناصر، لكنه رفض أن يستجيب لـ«سامي شرف» في القبض عليه، وقال: (لا تقبضوا عليه)!!

لقد أنفق عمره كله منافحاً عن العروبة، فكتب في جريدة الأخبار، يقول: «إنَّ المواطنين العرب في هذه البلاد الشاسعة، سوف يواجهون كثيراً من الامتحانات القاسية، وسوف يصادفون أنواعاً كثيرة من البلبلة .. لذلك؛ لابد من إبقاء حقيقة أن «القومية العربية» فكرة لا تقبل منطق الضم، ولا تقيِّد نفسها بالمعاهدات، والقرارات التاريخية الدولية»!

وكان كثير النقد والتبكيت للحكَّام والأنظمة العربية، فقد اختلف مع «أنور السادات» وعارض سياسة الانفتاح، في مقاله الشهير «سياسة السداح مداح»!

في كتابه «شرعية السلطة في العالم العربي»، يقول: «إذا اختلف حاكم مع حاكم آخر، أو حكومة مع حكومة أخرى على قضية سياسية ما؛ سرعان ما ينعكس هذا

على القليل المتبقِّي من الروابط العضوية بين الشعوب»!

وفي كتابه «محاوراتي مع السادات» يحكي علاقة المد والجذر بينه وبين الرئيس؛ فيقول: اعتذرتُ عن لقائي بالسادات في أسوان، بسبب مرضي، فقال موسى صبري: لنْ يصدِّق أنك مريض إلى هذا الحد! فقلتُ لموسى صبري: قلْ له يا أخي: إنَّ بهاء الدين يطلب مساواته بالمطربة شريفة فاضل؛ التي طلبت تكذيب التهم التي نُسِبتْ إليها بجريدة الأخبار؛ بأنها تتكلم في السياسة في لندن!

* * *

في افتتاحية العدد ٢٧٨ من مجلة العربي الكويتية، كتب أحمد بهاء الدين- يقول: «كان من حظي أنني زرتُ كثيراً من البلاد الإفريقية، وعرفتُ الناس فيها، من الزعماء الكبار والحكام ... إلى باعة الفاكهة في الأسواق الفقيرة، ووصلت إلى «تومبوكتو» وعرفتُ معرفة شخصية، مدى الأشواق الهائلة لدى هذه الشعوب إلى اللغة العربية، وإلى العروبة، وإلى معرفة لغة دينهم. كنتُ أسير في الأسواق؛ فإذا عرف العامة أنني عربي قادم من مدينة الجامع الأزهر؛ أحاطوا بي، لا حفاوة فقط، بلْ تبركاً، يمسحون بأيديهم ثيابي، ثم يمسحون بها وجوههم! فاللغة العربية مقدَّسة عندهم، لأنها لغة دِينهم، ومن يتكلّمها كأنه من الأولياء الذين يتبركون بهم. كنتُ أحياناً أهرب من الأسواق حين أشعر أن الرجال والنساء البسطاء يعاملونني وكأنني «ضريح متنقّل» لا ينقصهم إلاَّ أن يربطوا في عنقي وأطرافي أحجبتهم وأدعيتهم»!

هذه الكلمات القليلة؛ تكشف عن شخصية أحمد بهاء الدين، كما تكشف عن فلسفته في الكتابة، وتكشف عن وعيه القومي، ونوعية موضوعاته التي يعالجها، وطريقة طرحها على القارئ، وعرضها عرضاً جذَّاباً مشوِّقا.

أخيراً؛ لا أجد ما أختم به سوى القول: إنه بموت «أحمد بهاء الدين» لمْ تعد هناك صحافة، ولا كتابة، ولا سياسة، ولا معارضة ... ولا يحزنون!

الشيخ المصارع

كان الناس يتوافدون نحوه من كل فجٍّ عميق، ويلتفون حوله حِلَقاً، وكأنَّ على رءوسهم الطير! يستمتِعون بدرسه الذي كان يلقيه مساء «الأربعاء» في رحاب الجامع الأزهر، وذلك بخلاف لقاء «الاثنين» في بيته؛ الذي حوَّله فيما بعد إلى معهد أزهري!

ذات مرة؛ كنا جلوساً نستمِع له، فإذا به يسكت طويلاً، وإذا بدموعه تتساقط على خدِّه كحبات اللؤلؤ .. ولمْ يعلم أحد ما السبب؟! ثمَّ واصل حديثه، فقال: منذ أكثر من أربعين عاماً، جاء من أقصى الصعيد طالبٌ يسعى إلى الأزهر. ولمَّا كان يوم الجمعة؛ توجه مع زملائه لأداء الصلاة، وكان (الخطيب) قد تغيّب في هذا اليوم؛ فألحَّ عليه زملاؤه ليصعد المنبر، فاستجاب لهم؛ وألقى خطبةً عصماء، أبكتْ المُصلِّين، وبعد انقضاء الصلاة أقبل الناس نحوه فرادى وجماعات يثنونَ على فصاحته وبلاغته، وراحوا يُقبّلونَ رأسه ويده ... فأصابه الزهو، والعُجب بنفسه!

عندما جنَّ الليل؛ ذهب ليشتري طعاماً لزملائه .. وبينما هو في طريقه؛ فإذا بمن يصفعه على وجهه صفعةً قوية؛ سقط على إثرها مغشياً عليه .. ولمّا تأخر كثيراً، توجس زملاؤه، فراحوا يبحثون عنه هنا وهناك .. فرأوه مُلقَى بجوار حارةٍ مظلِمة!

فحملوه إلى البيت، وهو لا يدري بنفسه، واستغرق في نوم عميق حتى قُبيْل الفجر؛ فجاءه والده في المنام، وأمسك بناصيته، وعاتبه قائلاً: مَنْ لم يتواضع

للعِلم؛ ستناله صفعات كثيرة!

منذ ذلك اليوم؛ لا يمشي إلاَّ مطأطئ الرأس، حانيَ الهامة؛ تواضعاً للعِلم، وطلباً للمغفرة!

بعدما حكى لنا هذه القصة؛ عقَّب قائلاً: ذلكم خادمكم/ إسماعيل صادق العدوي!

* * *

كانت حياة الشيخ العدوي مملوءة بالحكايات العجيبة، مما حدا بأحد مريديه؛ أن يجمع حوالي (٥٠٠ حكاية) عايش أحداثها، ورآها رأيَ العيْن!

لكن؛ هناك حكاية ذات مغزى بعيد، لا يعرفها كثير من الناس، مفادها؛ أنه عندما اقترب أجل الشيخ/ صالح لجعفري -رحمه الله- أرسل إلى الشيخ «إسماعيل صادق العدوي» وأوصاه بأنْ يُغسِّله، ويُكفِّنه، ويواري جثمانه، ثم يدعو له .. حتى تستقر روحه في بيته الجديد!

ومرت الأيام ... وحضرت الوفاة الشيخ/ إسماعيل العدوي؛ فأرسل إلى الشيخ/ عبد الغني- ابن الشيخ صالح وقال له: يا بُنيّ؛ أنا الذي غسّلتُ والدك، وكفّنته ... فجاء الدور؛ لتُسدِّدوا الدَّيْن الذي عليكم؛ فإذا صعدتْ روحي، فجهِّزني، كيْ أستريح في بيتي الجديد!

قال العارفون: إنَّها وصية بتسلُّم العلم، وتناوب البركة فيما بين الأولياء والصالحين!!

* * *

كان الشيخ/ إسماعيل صادق العدوي- أديباً بليغاً، وكان شاعراً فحلاً، نظم في أغراض كثيرة، لاسيما الوعظ والتوجيه، والمديح النبوي، كما في قصيدة (نور الجوار):

هو النورُ المطهَّرُ والنّهارُ ... هو الحق المجلجل والوقارُ
هو الحِلمُ الذي وسِعَ البرايا ... ومن ينبوعه صَفَتِ البحار
هو المصدوق لا مَنٌّ، ولكنْ ... به انطوتِ السّرائرُ والجهار
هو النورُ المبينُ لكل حيٍّ ... بدونك لا يقرُّ له قرار
أتى الدنيا ممزقةَ المعاني ... وكان السّيفُ يحكم والدمار
وأشرق وجهه فانجاب عنها ... مظالمُ كلُّها خزيٌ وعار
لك الحبُّ المزلزِل يا حبيبي ... وإنْ نأتِ المفاوز والديار
وليس معي من الأيام هَمٌّ ... سوى نورِ القلوب وكمْ أحار
قد استودعتُ ما تلقاه نفسي ... من البلوى ولوْ بَعُد المزار
ثقيلٌ مَحْملي وعزاءُ نفسي ... بأنَّ عزاءها هذا الجِوار!

هذا، وتتسم شاعرية «العدوي» بوعظ الفقيه وتأمل العابد، وحكمة المؤمن! والملاحظ في قصائده أنه يحافظ على العروض الخليلي، والقافية الموحدة، والمحسنات البديعية، واللغة البسيطة الأقرب للمباشرة في أسلوبها وتراكيبها مع بُعدها عن المجاز ... يقول في قصيدة (هو الحب):

هو الحبُّ الذي يسمو ويعلو ... وفي الحبِّ السعادةُ والصَّفاءُ
ولولا الحبُّ ما عاشت نفوسٌ ... ولا دانتْ لرغبتها السَّماء
فدين الله مبنيٌّ بحبٍّ ... وفي حبِّ الإله بدا الوفاء
ألمْ تروا ابنَ آدم كيف أضحى ... أسيرَ الحب ليس له رجاء؟
فخيرُ الخلق والمختار طه ... بحبّ الله كان له اصطفاء
وحبُّ الناس أنْ يعفو إلهي ... ويغفر للذين لنا أساءوا
وحبُّك للجِنان يريك صفحًا ... نشيدُك في المسامحة الجزاء
فإنْ أحببتمُ فالحبُّ باقٍ ... وغايَتُنا من الحبِّ البقاء
ودار المتقين رياضُ عَدْنٍ ... وفي الفردوس كان لهم لقاء

فيا من ترتجي الجناتِ أحْبِبْ ففي نور المحبّين العطاء!

من هو إسماعيل صادق العدوي؟

إنه ابن العالِم الجليل الشيخ/ صادق العدوي(١٩٣٤- ١٩٩٨م) من قبيلة (بني عدي) وينتهي نسبه إلى الخليفة/ عمر بن الخطَّاب، نشأ ب(قوص) وحفظ القرآن الكريم، وتلقى تعليمه المبكر على يد عدد من رجال العلم في عصره، قبل أن تنتقل أسرته إلى أسيوط. وبعد حصوله على الثانوية الأزهرية، التحق بكلية الشريعة والقانون وتخرج عام (١٩٦٤) وحصل على إجازة التدريس والعالمية. وعمل إمامًا وخطيبًا بمسجد أحمد الدردير، ثم عمل إمامًا وخطيبًا في الجامع الأزهر، وقيل: إنه أبلغ من صعد منبر الأزهر عبر التاريخ، فكما أنَّ (المراغي) أعظم شيوخ الأزهر؛ فإنَّ (العدوي) أعظم خطباء الجامع الأزهر، فقد كان يرجّ المنبر رجًّا، كما كان يرجّ القلوب من قوة خُطَبه وتأثيرها، فلا ينسى الناس خُطَبه التي كان يستهلّها بعد الحمد والثناء على الله، بقوله: (اللهمَّ صَلِّ وسلِّم وبارك على سيدنا محمد الفاتح لِمَا أُغلِقَ، والخاتم لِمَا سَبَق، الناصر الحق بالحق، والهادي إلى صراطك المستقيم. صلَّى اللهُ عليه وعلى آله وأصحابه حقَّ قَدرِه ومقدارِه العظيم)!

من أقوال الشيخ العدوي: (إذا وقفتْ أمامك الحواجز والسدود، فعليكَ بأواخر سورة هود)!

كان «الشيخ» معروفاً بشجاعته، وعدم خوفه إلاَّ من الله، ومعروف بفراسته وكشفه، وشدَّته مع خفَّة ظلِّه مع مريديه. وقد شغل –فضيلته– منصب نائب رئيس رابطة العالم الإسلامي لخطباء الجمعة، وكان عضوًا بالمجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، وعضوًا بمجمع الفقه الإسلامي بجدة.

للشيخ أكثر من ٣٠ مؤلفًا جمعها عنوان واحد (من كنوز العلم النافع) وله عدد من الأحاديث الإذاعية والتلفزيونية والمقالات الصحفية، وله دروس ألقاها

بمسجد مصطفى محمود بحيّ المهندسين، شرح فيها «صحيح البخاري»، ودروس في مسجد أحمد الدردير شرح فيها «موطأ مالك»، ودروس في الجامع الأزهر حول «تفسير القرآن الكريم»، و«شرح صحيح مسلم».

في مرحلة الشباب؛ كانت هواية «الشيخ» لعبة (المصارعة) وقد حصل على كأس التفوق في المصارعة الرومانية عام ١٩٦٤م، ولُقِّبَ ب(الشيخ المصارع)! كما حصل على نوط الشرف العسكري عام ١٩٧٣م؛ تقديرًا لدوره في العمل الدعوي والجهاد.

أذكرُ أنَّني كلما سافرتُ إلى (قوص) سألني الناس، لاسيما عمِّنا الحاج/ إبراهيم درديرـ بلهفةٍ وشوق-: هلْ زرتَ الشيخ/ إسماعيل العدوي؟ وهلْ استمعتَ إلى دروسه وخُطَبه؟!

رحمَ الله هذا العالِم التقيّ، سليل العلماء، ووريث الأولياء .. الذي مازال «منبر الجامع الأزهر» يحِنُّ لروعة بيانه، وينوح على فِراقه .. أقولُ قولي هذا، وأستغفر الله لي ولكم!

الكاتب الأرستقراطي

ذات مرة؛ دعاني
إلى تناول الإفطار معه،
فانطلقتُ على الفور، ورحتُ
أبحثُ عنه في (عرينه) بشارع
بهجت علي بالزمالك؛ فلمْ أجد له
أثراً .. فإذا به يخرج من بين أروقة
مكتبته العامرة؛ ويصرخ بأعلى صوته:
«لقد ابتُلِينا بالذين تشغلهم صعوبة اللغة
العربية، ويبحثون عن حروف أخرى لها أوْ عزلها عن
مجال العلم بزعم أنها لغة متخلِّفة، أمَّا العبرية التي انقرضت منذ ألفي سنة؛
أصبحت لغة العلم! لقد نسيَ هؤلاء الأعراب أنه لا توجد لغة متخلِّفة، ولغة
متقدِّمة .. إنما توجد أُمم متخلِّفة، وأُمم متقدِّمة!

قلتُ له: هَوِّن عليك -يا أبا خالد، فإذا به يصرخ -مرةً أخرى: «كيف وقد
صدَّروا إلينا عملاء يجعلون لب كفاحهم فصل الدين عن الدولة، ويصابون
بالفالج عندما يسمعون بأنَّ الدستور سينص على أن دِين الدولة الإسلام! بلْ ألغوا
شعار (الله أكبر) من الجيش، ولمْ يعيدوه إلاَّ بعد النكسة بخمسة عشر شهرا، بينما
أول دبابة إسرائيلية دخلت سيناء مكتوب عليها آية من التوراة!

قلتُ له: ما السبيل -إذنْ- يا أستاذنا؟! فقال: الوضع الصحيح أن نجعل «قضية
فلسطين» قضية عربية إسلامية، ولن يقهر التعصب الباطل للتلمود إلاَّ الإيمان
الحق بالقرآن، ولن يقهر التآمر الصهيوني العالمي إلاَّ حركة بعث إسلامي تحرر
فلسطين، وتبدأ في نفس الوقت من خلال وحدة الدم، ومن خلال وضع المبدأ
الإسلامي العظيم وهو (الجهاد) موضع التطبيق، لتتشكل عوامل وحدة الأمة

الإسلامية واستكمال مقومات الحضارة الإسلامية»!

ترى؛ مَنْ يكون هذا العبقري الفذ؟!

إنه الكاتب المجاهد الذي أنفق عمره في دفع الزيف وردَّ الشبهات عن تاريخنا، وواجه «طلائع الغزو الفكري». وقد تساءل في كتابه «القومية والغزو الفكري»: هل تستطيع القومية تخليصنا من المحن المصيرية التي تواجه العالم العربي الآن؟ ثم أجاب: «إذا كان الإسلام هو الرابط الذي يربط بين العرب والبربر والأكراد وغيرهم، فلماذا نستبعده، ونرفع علم القوميّات، إلاّ إذا كان الهدف هو إثارة الحرب القوميّة!!

ويعلِّل مسلكية الأحزاب والحركات القومية التي ترفع شعار القومية اللادينية؛ بأنها تكوَّنت من عناصر مُرِيبة دُرِّبت وأُعِدَّتْ في مدارس التبشير، وبيوت القناصل، وأقلام المخابرات العالمية، ورسمت أهدافها ومبادئها على أساس تحطيم الرابطة الإسلامية، تمهيداً للاستيلاء على الدولة العربية. وكان يرى أن قوميتنا نسيج وحدة لحمته الإسلام وسداه العروبة، وأيّ محاولة لفصلهما لن تعطيك ثوباً، بلْ خيوطاً قد تنجح في شنق نفسك بها!

ترى؛ مَنْ يكون هذا الأسد الضاري؟!

إنه الكاتب الذي لَمْ يترك القلم من يده لحظةً واحدة؛ بلْ جاهد باللسان والقلم إلى آخر لحظة في حياته، لدرجة أن قلمه كان أشبه بالكلاشينكوف، أوْ الآر بي جيه! وأيَّ كتاب يصدره كان أشبه بعصا موسى! وكانت محاضراته أشبه بالعواصف التي تقتلع الأشجار والبيوت!

على هذا الحال؛ عاش متنقلاً من مناظرةٍ فقهية إلى مناظرةٍ تاريخية، ومن معركةٍ ثقافية إلى معركةٍ سياسية .. حتى فاضت روحه خلال مناظرة تلفازية مع «نصر أبو زيد» في محطة التلفاز العربية- الأمريكية في واشنطن حول قضية «التطليق» التي رفعها أحد المواطنين ضد العلماني أبو زيد، مما اعتبرها دليل تعصب وإرهاب من الإسلاميين! لكن -صاحبنا- أكدَّ أن القضية ليست قضية التطليق، بلْ هي التزوير!

وقال: هل يصح لمن يزوِّر النصوص، ويختلق الوقائع، لإثبات رأي مسبق في حالة ما، ويندفع في هذا الاتجاه إلى درجة التلفيق- هل يجوز لمثل هذا الشخص أن يكون ضمن هيئة التدريس في جامعة محترمة؟ واحتدمت المناقشة إلى أشدّها، فأصيب «الفارس» بأزمة قلبية حادة، فاضت روحه على إثرها يوم ٥/ ١٢/ ١٩٩٣م، ونقِلَ جثمانه إلى مصر، وأوصى أن يُدفن معه في مقبرته ثلاثة كتب: (لمحات من غزوة أُحد، ودخلتْ الخيل الأزهر، وقيل الحمد لله)!

* * *

إنه (محمد جلال كشك) الذي قال عنه لمعي المطيعي: «عبارات ساخرة، ولمحات ذكية، وثقافة إسلامية واسعة، والسؤال المحيِّر: متى وكيف استوعب كل هذا التراث الإسلامي»؟!

وقالت عنه صافيناز كاظم: «تتميز كتابة جلال كشك بالحيوية التي تصل بك أحياناً كقارئ إلى حد الإرهاق، كما تتميز بالحضور الوهاج الذي يجمع بين غزارة المعلومات وعمق التحليل، والقدرة على الربط والمقارنة بين زوايا الرؤية، والمبارزة الجدلية في كل مكان، مع خفة ظل حادة، يعرف كيف يوظفها في فقرات سريعة، ويصوّبها إلى مكانها المطلوب برشاقة ودقة متناهية .. يكتب متلذذاً بالكتابة، وللقضية متحمساً، فينقل إليك الشغف مهما قاومته، أو عاديته، وهو منغمس كل الانغماس في موضوعه، كأنه سيكون آخر ما يكتب، وأنت لابد منغمس فيه كأنَّ كتابه سيكون آخر ما تقرأ»!

أجل؛ لقد كان «جلال كشك» مفكراً، ومؤرخاً، ومجاهداً .. وشهيداً !

كان يقول: «الخلاف حول تفسير التاريخ ليس ظاهرة، ولا مجرد خلاف حول تفسير الماضي، بلْ هو في الدرجة الأولى خلاف حول الطريق إلى المستقبل، والأمم دائماً تهرع إلى تاريخها في لحظات محنتها، وتستمد منه الإلهام والدعم النفسي، بينما يلجأ خصومها دائماً إلى تزييف التاريخ وتشويهه، لتضليل الحاضر، وإفساد الطريق إلى

المستقبل».

ويقول أيضاً: «مَنْعنا من امتلاك المدفع؛ هو الهدف الأساسي منذ ظهور الاستعمار الأوروبي، وقد تم ذلك تحت شتى الشعارات، وبمختلف التنظيمات من القراصنة ومحاكم التفتيش إلى الجامعات، والمؤسسات الدولية، والمعاهد من الأمم المتحدة، وقبل ذلك إلى جهود وكتابات وحكومات من سمّاهم «صمويل هنتنجتون»: «المتعاونين والمؤمنين بحضارتنا»! هؤلاء المتعاونون الذين يعملون لاستمرار سيطرة الغرب واستمرار تخلّف أوطاننا يتسترون في كل مرحلة تحت شعارات علمانية وتقدمية ويسارية وأممية. إنَّ عناصر مأجورة عن وعي، وعناصر تحركها أحقاد رخيصة، وعناصر تتبع كل ناعق تسيطر على إعلامنا، وتجنده لمحاربة الإسلاميين في مشارق الأرض ومغاربها، غير محققة من هدف إلاَّ إزالة دور مصر الإسلامية، وإلغاء زعامتها للعالم الإسلامي، وعزلها عن المسلمين.. لمصلحة من؟ هذا هو السؤال الذي نعرف جوابه جيداً».

* * *

منذ طفولته كان عاشقاً للحرية، وداعياً إلى التغيير، فعرف السجون مبكراً؛ فقد أدى امتحان «البكالوريوس» وهو سجين بمعتقل «الهايكستب» بتهمة التحريض على قتل الملك!

وعندما كان طالباً؛ دعا زملاءه ليهتفوا ضد تعيين «حافظ عفيفي» رئيساً للديوان الملكي، بلْ انطلق يهتف بحياة الجمهورية قبل أن يعلنها «محمد نجيب» بحوالي عام، كما طالب بتأميم القناة، وإلغاء الاحتكارات الأجنبية في سنة ١٩٥١م!

اعترض على تعيين «صلاح سالم» نقيباً للصحفيين؛ باعتبارها بداية التربص بالصحافة؛ لوقوفها بجانب الشعب ضد استبداد العسكر، وبدأ الجدال على صفحات الجرائد حول دستور ١٩٢٣م، وإعادة العمل به، وبكافة مظاهر النظام القديم، لكن من دون الملك! ففطِن إلى هذه الخديعة التي يُسوّقها العسكر، ليتم إلغاء الحريات،

وكتب في جريدة «الجمهور المصري»: «لماذا يعود هذا الدستور»؟! وكان الجواب على الفور إغلاق الجريدة، وإيداع «جلال كشك» في سجن «أبو زعبل» لمدة عامين وشهرين، وخرج بعدها ليعمل بجريدة «الجمهورية»، لكن تمَّ إيقافه عن العمل عام ١٩٥٨م! وفي عام ١٩٦١م، أُلحق بمجلة «بناء الوطن» تحت رئاسة الضابط/ أمين شاكر، فاعتُقل عدة شهور، بإيعاز من أمين شاكر، لإرساله خبراً عن «استقلال الكويت» لـ«أخبار اليوم» بدلاً من إرساله إليه.

عمل بعدها في «روزا اليوسف» وكتب سلسلة مقالات، بعنوان: «خلافاتنا مع الشيوعيين» واجه من خلالها فلول اليسار، وبقايا الماركسيين؛ مما جعل جريدة «البرافدا» السوفيتية؛ تهاجمه باسمه، وتقول: «إنّ استمرار جلال كشك في الصحافة المصرية خطر على الاتحاد السوفيتي».

فأُبعِد الأستاذ الكبير من حقل الصحافة ثلاث سنوات متواصلة، لكنه أعيد للعمل بمؤسسة «أخبار اليوم» بعد ذلك! كما انفرد بنقد كتاب علي صبري «سنوات التحول الاشتراكي»، وأعلن في مقالة بـ«الجمهورية» بأن الأرقام الواردة عن الخطة الخمسية الأولى (١٩٦١ - ١٩٦٦م) تدلُّ على انخفاض في الإنتاج وليس زيادته، والأرقام وحدها تدلُّ على كذب الإدِّعاء!

بمجرد نشر هذا المقال؛ تم فصل رئيس مجلس الإدارة، ورئيس التحرير، وطرد جلال كشك!

* * *

الحقُّ أقول: إنَّ «جلال كشك» أبرز من أمسك بالقلم في النصف الثاني من القرن العشرين، وأشدّ مَنْ واجه اليساريين والعلمانيين؛ ففضح أكاذيبهم، وكشف مزاعمهم. ولعلَّ مؤلفاته في هذا الصدد لا تخطئها العين، مثل: (كلام لمصر، النكسة والغزو الفكري، جهالات عصر التنوير، قراءة في فكر التبعية، أخطر من النكسة، ألاَ في الفتنة سقطوا)!

كما أنه صاحب الفضل في كشف أوراق (هيكل) وعمالته للمخابرات الأمريكية، لاسيما أنَّ -كاهن الناصرية الأكبر- درج على إخفاء ما يتعلق بعلاقة ثورة ٢٣ يوليو بالمخابرات الأمريكية! فكان يُغيِّر كلامه في الطبعة العربية لكتبه، ويقول بخلاف ما يكتبه للغربيين المتنوِّرين في «الطبعات الأجنبية»!

كان «جلال» من أشد الكارهين للدكتاتورية والاستبداد. لذا كان هجومه على «فتى بني مر» لا يتوقف، كما في كتبه (الماركسية والغزو الفكري، كلمتي للمغفلين، الناصريون قادمون، ثورة يوليو الأمريكية)!

عندما أصدر كتابه (كلمتي للمغفَّلين) انطلق «الناصريون» سِراعاً، وسحبوا جميع النسخ من الأسواق، حتى لا يعرف الناس جرائرهم، وصفحاتهم السود! فإذا بالطبعة الثانية تصدر في أقل من أسبوع، وقد صدَّرها «المؤلف» بعبارة ساخرة، يقول فيها: «ما كنَّا نريد أنْ نتكسَّب من هذه الكتب؛ ولكنَّ الله يرزق من يشاء بغير حساب»!!

وصف عبد الله الطنطاوي- مؤلفاته، فقال: «جاء جلال وجاءت كتبه على قدر، فسدَّتْ ثغرات كبيرة في حياتنا الثقافية والسياسية، ووقفتْ في وجه الغزو الفكري، في ظروف بالغة الدقة، تُرك فيها الحبل على الغارب للشيوعيين، والعلمانيين، ودعاة التغريب، وأدعياء القوميّة، وكمَّموا أفواه الإسلاميين، وكسروا أقلامهم، واحتزُّوا رقابهم، وكانت السجون والمعتقلات الرهيبة أماكن سكنهم، فانبرى الأستاذ كشك، وليس غيره، يفضح رفاق الأمس ومَنْ وراءهم، بقلم من نار، وعقل مستنير، وقلب مسكون بالقيم العربية الإسلامية، ووعي تام بما يجري في عالم اليوم، من تزييف الحقائق، ووأد القيم التي بنينا عليها الأمجاد...»!

أجل؛ انظر إلى مؤلفاته التي كان يتخطفها الناس فور صدورها، والتي أرَّختْ لحقبة فاصلة في الصراع الأيديولوجي المحتدم إلى يومنا هذا ... ومازلتُ أحتفظ بكتبه التي أهدانيها، مثل: (مصريون لا طوائف، النابالم الفكري، مِن بِدع ثورة مايو، تحرير المرأة المسلمة، خواطر مسلم عن الجهاد والأقليات والأناجيل، المؤامرة على القدس تنفَّذ في مكة، قيام وسقوط إمبراطورية النفط، طريق

المسلمين إلى الثورة الصناعية، الجهاد ثورتنا الدائمة، وغيرها)!

* * *

كان «جلال كشك» خبيراً ببواطن الأمور، لاسيما أنه خالط الملوك والأمراء والساسة، كما أفاد كثيراً من إقامته بين الأجانب، وكان من كُتَّاب «الجارديان» البريطانية!

قلتُ له -ذات مرة- ما هو تفسيرك للهجمة على شيخ الأزهر الدكتور/ محمد سيد طنطاوي؟! فقال: ليس المقصود بهذه الحملة الشيخ طنطاوي، فالجميع يعلم قدره وعِلمه ومكانته؛ إنما هي حملة مدفوعة الأجر مُقدَّماً، يقود زمامها غلمان الوهابية، وأدعياء السلفية، يشاركهم فيها؛ إعلاميون مأجورون، وأناسٌ من جلدتنا وأُناسٌ غرباء عنا، إنهم يريدون هدم الأزهر وتشويه سمعته .. ولنْ يستطيعوا أنْ يحجبوا الشمسَ بغربالهم الهزيل!

سألته -أيضاً: كيف استحوذ (الحداثيون والتغريبيون) على الصحافة والأندية الأدبية في السعودية؟! فقال: المملكة تكبح - من خلالهم- جماح التكفيريين والمغفَّلين من الأعراب!

مَن هو جلال كشك؟

ما عرفتُ أحداً شديد الاعتزاز بحسبه ونسبه مثل «جلال كشك»!

ولِمَ لا؟ فهو من أعرق أسرة أرستقراطية؛ كان أبوه قاضياً في المحاكم الشرعية، قال عنه في أحد كتبه: «إنه أول من أصدر حكماً شرعياً في مصر بتكفير البهائيين»!

لكن اعتزاز جلال بآرائه وأفكاره أشد وأعنف، فالويلُ الويلُ لمن يخالفه الرأي، بلْ الويل -كل الويل- لمن يقطع حديثه! أذكر أنني رأيته -أول مرة- في «دار الزهراء للإعلام العربي» يتحدث أمام نخبة من أعلام الفكر والأدب، منهم: أحمد رائف، وأحمد بهجت، وحسين مؤنس، وغيرهم، وكانوا مشدوهِين لحديثه

عن بلدته «المراغة» التي قال: إنها أعرق بلدة في الصعيد قاطبةً! فقلتُ: تقصد بعد (قوص) ملاذ العلماء والأولياء! فضحك كثيراً، ثم قال: ولولا رهطك لرجمناك!

منذ تلك الحادثة؛ توثَّقتْ علاقتي به، فكان أول شيء يفعله بعد عودته من «عاصمة الضباب» يتصل بي، وينهال عليّ بوابل من الأسئلة، مثل: ما هي الكتب التي اشتريتها لي؟ وأين الغداء الذي وعدتنا به؟! وماذا قال لك الشيخ الغزالي؟ وما هي أخبار الصعيد الجواني؟!

ذات مرة؛ قال لي -بحسرةٍ وألم-: سأموتُ قريباً يا قوصِي! فحزنتُ، وقلتُ: أبقاك الله يا أستاذنا .. وظننتُ أن سيموت بالفعل، لكنه لمْ يمت! بلْ فاجأنا بكتاب «جهالات عصر التنوير»!

التقيته بعد ذلك، فقال لي: سأموتُ قريباً. فأخذتُ الكلام على محمل الجد، فقلتُ: أطال الله عمرك يا أبا خالد. فإذا به يفاجئنا بالكتاب القنبلة «الحوار أوْ خراب الديار»!

ثم غاب بضعة أشهر .. وإذا به يصدر الكتاب الملتهِب «الجنازة حارة»!

وهكذا، كان كلما شعر بآلام القلب؛ يفزعني بشدة، ويقول لي: سأموتُ قريباً، لكنه لا يموت ولا يحيا .. بلْ نراه بعدها يرتدي بدلةً أنيقةً ما رأتْ عينٌ مثلها، ولا سمعتْ بمثلها أُذُنٌ! بلْ ويفاجئنا بمؤلفاتٍ رهيبة، أشبه ما تكون بالقنابل والمتفجرات!

أثناء لقائنا الأخير -قبل سفره إلى لندن- كرَّر ما كان يقوله كل مرة: سأموتُ قريباً .. فضحكتُ لكلامه، فصاح غاضباً: أقول لكَ: سأموتُ، وتضحك يا هذا؟! فأخذتني نوبة طويلة من الضحك!

لكن، بعد أيام قلائل؛ وعلى غير المتوقع، أعلنتْ إذاعة (الـB.B.C) نبأ وفاة الكاتب الكبير/ محمد جلال كشك!

فأصابتني صدمة مباغتة، وجثوتُ على قدمي، وأنا أُردِّد: آه!! عملتها يا جلال .. يا ابن الإيه؟!

صاحب التفسير الوسيط

إذا أراد الله أمـــراً يسَّـــر السبيل إليه، وقد أراد أن يكـون (محمد سيد طنطاوي) من علماء الإسـلام وأئمـة الـدِّين في عصـره، فيسَّر له السبيل إلى ذلك منذ ولِـد في ٢٨ أكتوبر عام ١٩٢٨م بقريـة سـليم التابعـــة لمركـــز طمـــا بســـوهاج، وأدلّ حظوظه المباركة في هذا السبيل أنْ نشـأ في أسـرة كريمة تحترم العلم، وتحرص على أن يكون وليـدها المتفـتِّح للمجد حافظاً لكتاب الله، فدفعته لشيخ (الكُتَّاب) لينهض برسالته القرآنية قدر مـا يستطيع، وقد وجد لدى تلميذه اسـتعداداً هيـأ لـه أن يسـتظهِر كتـاب الله في وقـتٍ يسير.

من محاسن الأقدار؛ أن يلتحق الطالب/ محمد سيد طنطاوي بقسم التفسـير وعلوم القرآن. كمـا أُعِيـر للعمـل بالجامعـة الإسـلامية بليبيـا مـن سـنة ١٩٧٢-١٩٧٦م أستاذاً للتفسير، ثم تجددت إعارته للجامعة الإسلامية بالمدينـة المنـورة رئيساً لقسم التفسير بالدراسات العليـا مـن سـنة ١٩٨٠- ١٩٨٤م، وكـأنَّ هـاتيْن الرحلتيْن قد أمدتاه بعزم ناهض على كتابه (التفسير العام للقـرآن الكـريم) إذْ كـان يشغل أوقات فراغه جميعها فيما انتُدِبَ إليه من أمور هـذا التفسـير، حتـى تـمَّ عـلى الوجه المرجو، والذي يقع في خمسة عشـر مجلـداً خاليـة مـن التكـرار، هادفـة إلى اللباب المنشود من إيضاح المعنى الشريف.

هذا التفسير كما سماه –رحمه الله- «التفسير الوسيط للقرآن الكـريم» يمتـاز بكونـه تفسيراً وسيطا. والوسيط هو ما بـين الكبيـر والـوجيز، وتفسـيراً وسـيطاً في المفـاهيم

والآراء والاجتهادات. ويمتاز بأنه تفسير سهل ميسور مبسط لفهم كتاب الله تعالى.

وقد حظيَ هذا التفسير بقبول الجمهرة الواعية من القرَّاء، وتعددت طبعاته في آماد متقاربة، وأخذ مكانه جوار ما كتبه أئمة العصر منذ عهد الإمام/ محمد عبده إلى عهد الشيخيْن/ محمد الغزالي، ومحمد متولي الشعراوي.

ذات مرة؛ سألتُ الدكتور/ عبد الله شحاته: ما هو التفسير الذي تنصح الناس بقراءته؟ فقال -بلا تردد: تفسير الشيخ سيد طنطاوي. قلتُ له لماذا؟ فقال: لأنه احتوى على جواهر التفاسير السابقة ومميزاتها؛ فهو خلاصة كنوز أكثر من مائة تفسير!

يقول الدكتور/ محمد رجب البيومي: إنَّ هذا التفسير يعدُّ واحداً من أهم التفاسير في القرن العشرين، وهو ما هيأه لمنصب الإفتاء على مدى عشرة أعوام، أبدى فيها ما شغل الذهن الإسلامي أمداً متصلاً، بلْ مازال يشغله إلى الآن!

منهجه في التفسير

قال -رحمه الله- في مقدمته للتفسير: «لقد بذلتُ فيه أقصى جهدي، ليكون تفسيراً علمياً محقَّقاً محرراً من الأقوال الضعيفة، والشبه الباطلة، والمعاني السقيمة. وستلاحظ خلال قراءتك أنني كثيراً ما أبدأ بشرح الألفاظ القرآنية، ثم أذكر سبب نزول الآية، عارضاً ما اشتملت عليه من وجوه البلاغة والبيان والعظات والآداب والأحكام، مدعماً ذلك بما يؤيد المعنى من آياتٍ أخرى، ومن الأحاديث النبوية، وأقوال السلف. وقد تجنبتُ التوسُّع في وجوه الإعراب، واكتفيتُ بالآراء الراجحة إذا تعددتْ الأقوال، لأني توخيتُ فيما كتبتُ إبراز ما اشتمل عليه القرآن من هدايات جامعة، وأحكام سامية، وتشريعات جليلة، وآداب فاضلة، وتوجيهات نافعة، وأساليب بليغة».

هذا من الأمور التي أشار إليها الشيخ/ طنطاوي عن منهجه في هذا التفسير، وقد اعتمد منهج الاختصار في ذكر الأخبار والروايات، مع إعراضه عن الروايات الإسرائيلية والأخبار المكذوبة، وقد جمع بين المنهجيْن الرئيسيْن في التفسير،

وهما: التفسير بالمأثور، والتفسير بالرأي؛ بشرط أنْ يكون مقبولاً مع استئناسه بآراء العلماء المعاصرين. لذا نراه رجع إلى مصادر متنوعة في تفسيره؛ كتفسير الطبري، وابن كثير، والقرطبي، والفخر الرازي، والزمخشري، والبحر المحيط، والألوسي، والقاسمي، والمنار، وأحكام القرآن لابن العربي، وفتح البيان للشيخ صدِّيق خان، وتفسير الإمام محمود شلتوت، وتفسير الشيخ محمد الخضر حسين، وتفسير آيات الأحكام للشيخ محمد علي السايس. كما اعتمد -الشيخ- على الأحاديث النبوية وآثار الصحابة، كما رجع إلى أقوال التابعين. وكتب الأحاديث والسنن، وغيرها من المراجع الأساسية في الحديث، وقد خاض الشيخ بعض المسائل العقدية، ودافع عن عقيدة أهل السنَّة، وردَّ على المعتزلة.

ترجيحاته التفسيرية

مما امتاز به (التفسير الوسيط) أن الشيخ طنطاوي أبدى رأيه بترجيح كثير من المسائل المختلف فيها مع بيان سبب الترجيح. وكان منهجه في ذلك اتباع الحق وتحري الصواب. وتتنوع المسائل التي صرح فيها الشيخ بالترجيح، منها مسائل لغوية، ومسائل فقهية، كما حصل الترجيح في بعض المسائل العقدية والمسائل الأخرى التي تتعلق بالقراءات والأخبار ... وفي هذا الصدد؛ نشير إلى نماذج من الترجيحات التي تناولها التفسير، كالآتي:

- الترجيحات في الحروف المقطعة

عند تفسيره للحروف المقطعة في أوائل سور القرآن، مثل: (ألم) (ألر) (طس) (حم) وغيرها، قال الشيخ ظنطاوي: إنَّ تصدير السور بمثل هذه الحروف المقطعة يجذب أنظار المعرِضين عن استماع القرآن حين يتلى عليهم إلى الإنصات والتدبر، لأنه يطرق أسماعهم في أول التلاوة ألفاظ غير مألوفة في مجاري كلامهم؛ مما يلفت أنظارهم ليتبينوا ما يراد منها، فيستمعوا حِكماً وحججا قد تكون سبباً في هدايتهم واستجابتهم للحق.

- الترجيحات في المسائل اللغوية

عند تفسير قوله تعالى ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾ تكلم الشيخ عن اشتقاق كلمة (الاسم) فذكر مذهب البصريين بأنَّ الاسم مشتق من السمو، وهو العلو والرفعة، ثمَّ ذكر مذهب الكوفيين بأنه مشتق من السمة وهي العلامة، لأنَّ الاسم علامة لمن وضع له، فأصل اسم على هذا (وسم). ثم قال الشيخ: ورأي البصريين أرجح، لأنه يقال في تصغير (اسم) سمى، وفي جمعه أسماء، والتصغير والجمع يردان الأشياء إلى أصولها. ولوْ كان أصله وسم -كما قال الكوفيون- لقيل في جمعه: أوسام، وفي تصغيره وسيم.

ومن المسائل اللغوية، تحديد معاني الكلمات أوْ الألفاظ. فعند تفسير قوله تعالى (الرحمن الرحيم) قال الشيخ: «والذي نراه أنَّ الصفتيْن ليستا بمعنى واحد، بلْ روعيَ في كل منهما معنى لم يراع في الآخر. فالرحمن بمعنى عظيم الرحمة، لأنَّ فعلان صيغة مبالغة في كثرة الشيء وعظمته، ويلزم منه الدوام. والرحيم بمعنى دائم الرحمة، لأنَّ صيغته فعيل تستعمل في الصفات الدائمة ككريم وظريف».

- الترجيحات في المسائل الفقهية

عند تحديد محل الهدي للمحصِر، في قوله تعالى: ﴿فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ﴾ [البقرة: ١٩٦]. رأى أنَّ محل الهدي للمحصِر هو المكان الذي حدث فيه الإحصار، لأنه أكثر اتفاقاً مع السنَّة النبوية، وفيه تسهيل على المحصرِين، وبذلك خالف رأي الأحناف القائلين بأنَّ محل الهدي هو البيت الحرام.

كما ذكر الشيخ طنطاوي اختلاف العلماء في مسألة الإحرام بالحج في غير أشهر الحج. وذلك عند تفسيره ﴿الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ﴾[البقرة: ١٩٧] فذهب إلى أنه لا يجوز الإحرام بالحج في غير أشهر الحج. لأنَّ الإحرام في غير أشهره يكون شروعاً في العبادة في غير وقتها؛ فلا تصح، ففقد جعل -سبحانه- هذه الأشهر وعاء لهذه الفريضة وظرفاً لها.

وعند تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَا تَنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكَٰتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ ۚ وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ﴾ [البقرة: ٢٢١] أورد الشيخ آراء العلماء بين المانعين والمجيزين حول مسألة زواج المسلم بالكتابية. ورجَّح الشيخ بجوازه؛ لأنَّ القرآن صريح في ذلك في قوله تعالى: ﴿وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾ [المائدة: ٥]، ولأنَّ عمر رضي الله عنه أقرَّ به.

- الترجيحات في المسائل العقدية

عند تفسير قوله تعالى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ﴾ [البقرة: ٢١٠]، قال الشيخ طنطاوي: «والمعنى: ما ينتظر أولئك الذين أبوا الدخول في الإسلام من بعد ما جاءهم البينات، إلاَّ أن يأتيهم الله يوم القيامة في ظلل كائنة من الغمام الكثيف العظيم ليحاسبهم على أعمالهم، وتأتيهم ملائكته الذين لا يعلم كثرتهم إلاَّ هو -سبحانه- وإتيان الله تعالى؛ إنما هو بالمعنى اللائق به -سبحانه- مع تنزيهه عن مشابهة الحوادث، وتفويض علم كيفيته إليه تعالى؛ وهذا رأي علماء السلف، ثم أردف -الشيخ- قول علماء الخلف بأنهم يؤولون إتيان الله بما يتناسب مع ذاته -سبحانه، ولذا فسَّروا إتيانه بأمره أوْ بأسه في الدنيا.

وهنا يُفهَم من طريقة الشيخ، أنه يرجِّح قول السلف على قول الخلف في ذلك. ولا غرابة في ذلك، فالشيخ نفسه قد فسَّر قوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ ۚ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٩] أيْ علا إليها وارتفع من غير تكييف ولا تحديد ولا تشبيه، مع كمال التنزيه عن سمات المحدثات.

وعند تفسير (الكرسي) عند قوله تعالى: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ [البقرة ٢٥٥] حيث يقول: وللعلماء اتجاهان مشهوران في تفسير معنى الكرسي في الجملة الكريمة، فالسلف يقولون: إن لله تعالى كرسيا، علينا أن نؤمن بوجوده، وإنْ كنا لا نعرف حقيقته، لأن ذلك ليس في مقدور البشر. والخلف يقولون: الكرسي

في الآية كناية عن عِظَم السلطان، ونفوذ القدرة، وسِعة العلم، وكمال الإحاطة. ثم قال: هذا وقد رويَ عن ابن عباس أنه قال (كرسيُّه: عِلْمه) ولعلَّ تفسير الكرسي بالعِلم كما قال حبر الأُمة؛ هو الصواب، لأنه هو المناسب لسياق الآية الكريمة.

- الترجيحات في الكلام عن المبهمات في القرآن الكريم

عندما تعرض الشيخ طنطاوي لبيان المراد من (مِصرا) عند تفسير قوله تعالى: ﴿ٱهۡبِطُواْ مِصۡرٗا﴾ [البقرة: ٦١] رجَّح بأنَّ المراد بالمصر مكان غير معيَّن.

كما أبدى ترجيحه في بعض المبهمات كما جاء عند تفسيره ﴿وَإِذۡ قُلۡنَا ٱدۡخُلُواْ هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةَ﴾ [البقرة: ٥٨] فقال: القرية هي لبلدة المشتملة على مساكن، والمراد أنها بيت المقدس.

- الترجيحات في المعاني التي يراد بها الآيات

عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِذِ ٱبۡتَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٖ فَأَتَمَّهُنَّ﴾[البقرة: ١٢٤] رجَّح الشيخ بأنَّ المراد من «الكلمات» الأوامر التي كلَّف الله إبراهيم عليه السلام، فأتمها على أتم وجه.

وفي تحديد معنى (الخمر) عند تفسير قوله تعالى: ﴿يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡخَمۡرِ وَٱلۡمَيۡسِرِ﴾[البقرة: ٢١٩] رجَّح أنَّ كلمة (خمر) تشمل كل شراب مسكر سواء أكان من عصير العنب أوْ من الشعير أوْ من التمر أوْ غير ذلك، وبذلك خالف رأي الأحناف ومَن وافقهم.

وفي مسألة تحديد معنى (الصلاة الوسطى) عند قوله تعالى : ﴿حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلۡوُسۡطَىٰ﴾ [البقرة: ٢٣٨] رجَّح أن المراد بالصلاة الوسطى هي صلاة العصر؛ لورود الأحاديث الصحيحة في ذلك، ولأنَّ صلاة العصر تقع في وسط الصلوات الخمس، إذْ قبلها اثنتان وبعدها اثنتان، ولأنها وسط بين صلاتي النهار، وصلاتي الليل.

الحقَّ أقول: إنَّ «التفسير الوسيط للقرآن الكريم» كتاب جميل، وسِفْر عجيب، وجوهرة نفيسة، وهو من أحسن ما كتب في التفسير في هذا القرن، وأجمل ما خطَّته أنامل بشر في علوم القرآن. وقد وّفق فيه الشيخ في إعداده وترتيبه؛ فقد بنى هذا التفسير على منهج علمي سليم رائق، وقد سار الشيخ على المنهج الذي رسمه في هذا التفسير، وطبّق ما قاله في مقدمة تفسيره.

ومن امتيازات هذا التفسير احتواؤه على جملة كبيرة من مصادر التفاسير القديمة والحديثة أو المعاصرة، واختياراته وترجيحاته التي تزيد تفسيره حسناً وجمالاً، وكذلك اشتماله على الفوائد والحكم الكثيرة؛ مما يجعل هذا التفسير مرجعاً لا يستغنى عنه بحالٍ من الأحوال.

مؤلفات الإمام

للشيخ طنطاوي مؤلفات عديدة، تجاوزتْ ستين كتاباً، منها: بنو إسرائيل في القرآن والسنة (وهو رسالته في الدكتوراه)، القصة في القرآن الكريم، أدب الحوار في الإسلام، الاجتهاد في الأحكام الشرعية، معاملات البنوك وأحكامها الشرعية، جوامع الدعاء من القرآن والسنَّة، أحكام الحج والعمرة، الصوم المقبول، السرايا الحربية في العهد النبوي، المرأة في الإسلام، حديث القرآن عن العواطف الإنسانية، الفقه الميسَّر، وغيرها.

معارك الإمام الفقهية

جدير بالذكر؛ أن حياة الشيخ طنطاوي شهدتْ معارك فقهية عنيفة بين المؤيدين له والمعارضين، لاسيما أن هذا العصر شهد أكبر ثورة معرفية وتكنولوجية في التاريخ، وقد جَدَّ من الأحداث ما لا يُعرَف له نظير فيما سلف من أقوال الفقهاء!

مما زاد من اشتعال تلك المعارك؛ أن «الشيخ» كان من دعاة الوسطية، وأحد الأزهريين الإصلاحيين، فلمْ يكن جامداً كالآخرين، ولا مُقلِّداً لأيّ مذهبٍ في

القديم أو الجديد!

لا ننسى -أيضاً- أن هذه المعارك الفقهية، كان وراءها خلفيات سياسية، وحساسيات مذهبية لا تخفى على أحد. إذْ انطلق أدعياء السلفية، والمغَّفلون من الأعراب يرمون الشيخ بوابل من السباب والشتيمة؛ كما فعل أسلافهم الخوارج القدامى الذين كفَّروا الإمام/ عليّ بن أبي طالب، ثمَّ قتلوه! ناسين أوْ متناسين أنَّ الرأي الاجتهادي الذي يعتمد على استشفاف النص والقياس على مدلوله قد يعارَض برأي مخالِف يعتمد على النص نفسه، ولكن بتأويل آخر، وتلك سُنَّة الفقه والفقهاء منذ ظهر أعلام التشريع!

وإلاَّ فبماذا نفسِّر موافقة مجمع البحوث الإسلامية بالإجماع على فتاوى الشيخ طنطاوي، لاسيما تلك التي أثارت معارك ضارية بين المؤيدين والمعارضين في حياته!

بين طنطاوي والقرضاوي

لعلَّ المقالة التي نعى بها الدكتور/ يوسف القرضاوي- صديقه الشيخ طنطاوي؛ تلخِّص طبيعة تلك المعارك التي خاض الشيخ غمارها، وتكشف عن أخلاق الإمام وتواضعه، قال القرضاوي: (لقد عرفتُ شيخ الأزهر منذ كان طالباً في كلية أصول الدين، وقد دخلها عقب تخرُّجي فيها سنة ١٩٥٣م. وقد أخبرني بأنه عرفني قبل أن أعرفه، حينما زرتُ معهد الإسكندرية، وكان طالباً فيه بالمرحلة الثانوية، وكنتُ طالباً في كلية أصول الدين ورئيساً لاتحاد طلاَّبها، وقد ألقيتُ خطبة أعجبت طلاَّب المعهد، ومنهم الطالب طُنطاوي. وكان بعد تخرُّجه يخطب في أحد جوامع منطقة شبرا، وكان يزورني بين الحين والحين، وأنا أسكن في حدائق شبرا، ويشاورني في بعض المسائل العلمية، وبعد زواجه اعتاد أن يزورني مع أهله، وتعرَّفتْ زوجته بزوجتي.

وأذكر أنِّي حين اعتقلتُ سنة ١٩٦٢م في قضية لا ناقة لي فيها ولا جمل، ذهب ليزورني، ففوجئ بأني معتقل، فعرض على زوجتي أن تكلِّفه بما شاءت من خدمات

ليقوم بها هو وزوجته. وحين كان يُحضِّر رسالته للدكتوراه، وموضوعها: (بنو إسرائيل في الكتاب والسنَّة) كان يتردَّد عليَّ، ويتناقش معي في بعض القضايا المتعلِّقة بالموضوع، حتى بعد إعارته إلى العراق ليخطب في أحد مساجد البصرة لعدَّة سنوات. وقد طلبتُه أستاذًا زائرًا بكلية الشريعة في جامعة قطر، حين كنتُ عميدها، ثمَّ بعدها بقليل عُيِّن مفتيًا للديار المصرية.

وظلَّت العلاقة بيننا على ما يرام، حتى بدأ الشيخ ينهج نهجاً جديداً في الإفتاء، لمْ أرضَ عنه، ولا سيما ما يتعلَّق بالبنوك وفوائدها، وهو ما اضطرَّني أن أردَّ عليه بقوَّة، وخصوصًا في كتابي: (فوائد البنوك هي الربا الحرام). فالحقُّ أقوى من الصداقات، والعلم فوق المودَّات .... وحدثت بيننا قطيعة فترة من الزمن.

وبعد أن عُيِّنَ الدكتور/ طنطاوي شيخاً للأزهر، تقابلنا في مؤتمر بالكويت، فبادرني الشيخ -رحمه الله- بالتحيَّة والمصافحة، ونسي ما وقع من خصومة، وأبى أن يتقدَّم عليَّ في دخول أو خروج، وكان هذا دأبه معي، حتى وافاه الأجل رحمه الله، أدبًا وتواضعًا منه.

قلتُ له ذات مرَّة: أنت شيخ الأزهر، أكبر وأشهر منصب علمي ديني في العالم الإسلامي، ومن واجبنا أن نحترم هذا المنصب، ونقدِّمه على كلِّ مقام آخر. فقال رحمه الله: أنا أستحي أن أتقدَّم عليك، وأنت طول عمرك أستاذنا! ولا ريب أن هذه المواقف؛ تعدُّ غاية في الأدب والتواضع، وحسن الخلق.

كان الشيخ طنطاوي دمث الخلق، لطيف المعشر، فكان ابن الصعيد حقًّا، لا يحسن التجمُّل ولا التكلُّف، بلْ يتعامل على السجيَّة، فهو طيب القلب، يألف ويؤلف، ما لم يستفزَّه أحد بالحقِّ أو بالباطل، فيثور ويخرج عن طوره!

وقد ظلَّ مدَّة يقول لي: لابد أن تكون معنا في (مجمع البحوث الإسلامية). قلتُ له: لعلَّ السياسة تمنعكم من هذا! قال: إذا صمَّمنا فلن يمنعونا. وعندما لقيني في السعودية، قال: أريد فقط أن توقِّع لي على ورقة بيضاء، وعليَّ أن أملأها، وأنْ أتولَّى

تقديمها للمجمع. وأنهى كلَّ الإجراءات بعد ذلك، وعرض الشيخ الطلب على المجمع، فوُفِقَ عليه بالإجماع!

كان -رحمه الله- أستاذا متميِّزا في التفسير، عاش عمره مشغولاً بتدريسه، وألَّف فيه تفسيره الوسيط، حتى إني رشَّحتُه ليكون بديلاً عني في تفسير القرآن الذي كان يشرف عليه الإذاعي المعروف الأستاذ/ محمد الطوخي، وكان فيه مجموعة من كبار المشايخ: كالشيخ الغزالي، والشيخ عبد المعز عبد الستار، والأحمدي أبو النور، وعبد الله شحاته، وحسن عيسى عبد الظاهر؛ ومحمد المهدي، والفقير إليه تعالى، وكنت قد اشتركتُ في تفسير الربع الأول من القرآن الكريم، ثم حدثتْ ظروف اقتضت أن أتخلف عن الربع الثاني والربع الثالث، وأن أشارك في الربع الأخير، فطلبوا مني أن أرشح لهم مفسراً بدلاً مني، فاقترحتُ عليهم اسم الدكتور طنطاوي، وقام بالمهمَّة على ما ينبغي.

وقد خالفتُ الشيخ في عدد من القضايا، وبخاصَّة تلك التي تتصل بشؤون الأمة، وعَلاقتها بالعالم من حولها، مثل استقباله لأكبر حاخامات إسرائيل في مكتبه، وتبريره لفرنسا في منع حجاب الطالبات المسلمات في المدارس، بناءً على أن كلَّ دولة حرَّة في اتخاذ ما ترى من قوانين، ناسيًا أنه ليس من حقِّ أيّ دولة أن تسنَّ قوانين تُلغي الحرية الشخصية، وتناقض الحرية الدينية، وهما من أقدس حقوق الإنسان. وغير ذلك من المواقف التي أثارت جدلاً واسعًا في مصر، وفي غيرها من بلاد العرب والإسلام.

واليوم فصل بيننا الموت، الذي يفصل بين الأخ وأخيه، وبين الإبن وأبيه، وبين الصديق وصديقه، كما يفصل بين المتجادلين بعضهم وبعض، وسيجمع الله بيننا في يومٍ لا ريب فيه، يوم تُبلى السرائر، ويحكم بيننا بالحقِّ، وهو خير الحاكمين. وقد شاء الله أن يأتيه أجله في الرياض، وأن يُدفن في (البقيع) بجوار قبور الصحابة والصالحين، وفي هذا بشارة خير.

إننا لنعزِّي أنفسنا، ونعزِّي الأزهر الشريف بمعاهده وجامعته ومجمع بحوثه، ونعزِّي الشعب المصري، ونعزِّي الأمة الإسلامية في شيخ أزهرها، وإمامه الأكبر، وندعو الله أن يأجرنا في مصيبتنا، ويخلفنا فيها خيرا.

ولا نملك لأخينا وصديقنا الشيخ محمد سيد طنطاوي؛ إلاَّ أن ندعو الله له أن يغفر له ويرحمه، ويعافيه ويعفو عنه، ويَسَعَه بعفوه ولطفه، وبره وإحسانه، ويغسله بالماء والثلج والبَرَد، وأن ينقِّيه من الخطايا كما ينقَّى الثوب الأبيض من الدنس، ويسكنه فسيح جنته، إنه هو الغفور الرحيم، الشكور الحليم، ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾.

بقلم/ الفقير إلى عفو ربه- يوسف القرضاوي.

طنطاوي ساكن البقيع

لقد كانت وفاة الدكتور/ محمد سيد طنطاوي- أشبه بزلزال عنيف؛ اهتزَّ له العالم العربي والإسلامي! لذا؛ فقد شهدت وسائل الإعلام سيلاً عارماً من المقالات والقصائد العصماء، التي تُعدِّد مآثر «الشيخ» ومناقبه. من ذلك ما قاله الشيخ/ علي عبد الباقي -أمين عام مجمع البحوث الإسلامية: «كان الشيخ/ سيد طنطاوي- مُحباً لآل البيت وصحابة رسول الله، وهو ما دعاه إلى تغيير موضوع مؤتمر مجمع البحوث الإسلامية الذي انعقد قبل وفاته، قائلاً: «نريد أن نبرز للعالم كله مكانة الصحابة وجهودهم في الدعوة .. ولعلَّ في دفن الشيخ في (البقيع) أعظم دلالة، وأفضل مكافأة على حبه لصحابة النبيّ الكريم».

وقد رثاه الدكتور/ محمد إبراهيم العشماوي -أستاذ الحديث بجامعة الأزهر- بقصيدةٍ شجية، عدَّدَ فيها مناقبه، وأشاد فيها بمآثره، قال فيها:

تهاوى شهابُ النورِ من أفقِ العلا ... وأضحى ربيعُ الأرض جدباً وماحلا
لِيَبْكِ على الإسلام في الأرض أهله ... فقد صار «شيخ الأزهر» اليوم راحلا

وداعاً إلى العلياءِ يا خير راحل ... فقد زفّتْ البشرى إليكَ رسائلا
فدفنكَ في أرض (البقيع) كرامةٌ ... بها ردَّ عنك الله زوراً وباطلا
ليعلم من آذاك قدرك عنده ... وأنكَ عند الله من أشرف الملا
لقد كنتَ محتاجاً إلى ثوبِ عفوه ... وها أنتَ قد أصبحتَ في الثوب رافلا
سيشفع عند الله فيك كلامه ... فقد كنتَ للقرآن دوماً مُرتِّلا
وكنتَ ذليلَ النفسِ لله خائفاً ... وكنتَ لفضل الله في الحشر آملا
لئنْ كنتَ قدْ أخطأتَ يوماً، فهلْ ترى ... مِن الناس معصوماً كمن كان مرسلا؟!

كما رثاه الشاعر/ السيد الصدِّيق حافظ، بقصيدة عنوانها «يا جار النبيّ» قال فيها:

جارَ النبيِّ أنعِم بخير جوارِ ... في صحبة الأطهارِ والأبرار
اللهُ قدَّرَ أن تُوارى في ثرى ... سجدت عليه مواكبُ الأنوار
وتنزلت سور الكتاب فمازجتْ ... طهرَ الثرى بأريجها المعطار
روض البقيع مباركٌ ومكرمٌ ... فيه من الرحمات نهرٌ جاري
وعلى الضِّفافِ صحابة وأئمة ... تعلو الوجوه ملاحةُ الأقمار
سترى (الغزالي) في لقائكَ باسماً ... وله الوقار ورقة الأزهار
ولقد دعاكَ كما دعاه مُبشّرٌ ... من قبل بالجناتِ للأخيار

رضيَ الله عن (الإمام) وسلامٌ عليه في «البقيع» وسلامٌ عليه في جنةٍ عاليةٍ، قطوفها دانية!

شاهد على أعلام العصر

إذا عرفته؛ فكأنك عرفتَ القرن العشرين كله!

فقد التقى بالساسة والأدباء والكتّاب باختلاف مشاربهم؛ فعمله بجريدة «المقطم» أتاح له فرصة اللقاء مع: الرئيس التونسي/ الحبيب بورقيبة، والمجاهد المغربي/ الأمير عبد الكريم خطابي، ومفتي فلسطين الحاج/ محمد أمين الحسيني، والزعيم الهندي/ نهرو، وغيرهم الكثير ممن زاروا مصر آنذاك.

ولعلَّ مشواره الحياتي يؤرخ لميلاد الصحافة الورقية ووفاتها –في آنٍ واحد– باعتباره شهد تأسيس كبرى المؤسسات الصحفية كالأهرام، ودار الهلال، والمقطم، والمقتطف، والرسالة، وغيرها. وقد عمل مع أرباب البيان، وعباقرة الفن والأدب، أمثال: جورجي زيدان، ويعقوب صروف، وشبلي شميل، وفارس نمر، والزيات، وزكي مبارك. كما عاصر جيل الرواد، وعمل معهم، أمثال: الرافعي، والمنفلوطي، والزيات، والعقاد، وطه حسين، وغيرهم من المشاهير.

وقد استطاع أن يكون حلقة وصل بين عدة أجيال من المبدعين والكُتّاب في مصر والعالم العربي والمهجر، وربط بين هؤلاء من خلال المراسلات والتراجم لأعمالهم الإبداعية .. وترجم لكثير منهم؛ الأمر الذي جعله نقطة ارتكاز لفك شفرة عصر الكتاب والأدباء الرواد؛ الذين أثروا حياتنا الفكرية بالروائع الأدبية والثقافية.

قالت عنه صافيناز كاظم: «هوايته الفكرية هي البحث عن تعبيرات علمية أغفلتها القواميس المتخصصة». كما وصفت استخدامه للغة العربية بأنه: «أنيق لدرجة أنه يجعل محبي تلك اللغة يشهقون من شدة إعجابهم». وأنَّ «أسلوبه الأنيق الظريف يصل إلى أعماق الشخصية التي يتحدث عنها مزيلاً الحواجز بين المؤلف والمؤلف عنه» .

أمَّا هو فيقول عن نفسه: (أنا المرجع الأول في الأدب المهجري؛ لعلاقاتي الوثيقة بهم، وصادقتُ الأضداد من الأدباء والمفكرين، ولم أتحزب لأحد، وألّفتُ عشرات الكتب، ولم أضع اسمي عليها، وعندي عشرة آلاف رسالة خطية لكبار العلماء والأدباء العرب)!

لقد عايش الزمن الجميل من الحرية والإبداع ... لذا؛ يقول: «لا أفهم للأدب حياة إلاَّ مع الحرية الكاملة، فإنْ كان هناك قيد واحد، فقل: على الأدب السلام».

بلْ يكشف عما يعانيه في الحقبة الأخيرة من مرارة الواقع الأدبي والثقافي، فيقول: «يكاد المرء يندم لأنه اختار الفكر مهنة له».

ويكشف عما يجيش بنفسه من فساد الحياة الثقافية، فيقول: «لا أجد ما يدعو إلى المتابعة في هذه الأيام، بسبب طغيان موجة الشِّعر الجديد التي أفسدت ذوق القارئ، وكادت تحيل الشِّعر الجميل بما فيه شعر المهجر، إلى «التقاعد»؛ فانصرف القراء عن الشِّعر الموزون المقفى، وبارتْ سوقه لدى الناشرين، وقد سئلتُ ذات مرة: هل تعرف الشاعر فلاناً -وهو ممن يكتبون كلاماً يفتقر إلى خصائص الشِّعر الحقيقية- فقلت للسائل: إنَّ من عرف خليل مطران، وإبراهيم ناجي، ومحمود حسن إسماعيل، وأبا شادي، والشاعريْن اللبنانيْن: بولس سلامة، وأمين نخلة، وكذلك صالح جودت، ومحمد مصطفى الماحي، ومحمود أبو الوفا، وكل شعراء المهجر، فهل يخسر شيئاً إذا لم يعرف صاحب هذا الشعر الهزيل»؟

* * *

إنه الأديب والكاتب الكبير/ وديع فلسطين- الذي ينحدر من أسرة قبطية، من (نقادة) بقنا، انتقلتْ بعد ذلك إلى مركز «أخميم». درس الصحافة بالجامعة الأمريكية بالقاهرة، وذلك في عام ١٩٣٥م، ثمَّ بدأ حياته المهنية بجريدة «الأهرام»، ثم في دار المقتطف، فالمقطم.

يقول: «إنني غيرتُ مسار حياتي أكثر من مرة؛ ففي فترة اتجهتُ بكليتي إلى الترجمة، وحين اعتقلني جمال عبد الناصر بقيتُ في البيت ثلاث سنوات بلا وظيفة، وكلما ذهبتُ إلى عمل ما، قالوا لي: أنت مغضوب عليك من الثورة، فلا يوظفونني، إلى أن بادرتْ دار المعارف بإرسال بعض الكتب إليّ لأترجمها، وكذلك فعلتْ أرامكو السعودية، وأذكر أنه حدث في إحدى المرات إشكال قانوني في أرامكو، بخصوص اتفاقية نقل البترول، واتُّفق على أن يُلجأ فيها إلى التحكيم الدولي في جنيف، فذهبتُ معهم كمترجم، ووجدتُ نفسي كبير المترجمين، وبقيتُ في هذه القضية ثمانية أشهر، نتنقل من مكان إلى مكان، وبعد ذلك عرضتْ عليَّ أرامكو أن أعمل في مكتبهم بالقاهرة، مديرًا للعلاقات العامة، فكنتُ مسئولاً عن مجلة «قافلة الزيت»، وبعد عشر سنوات حين ساءت العلاقة بين مصر والسعودية في أيام عبد الناصر والملك سعود، قرروا إغلاق المكتب في القاهرة، وتمَّ نقل النشاط إلى بيروت، فوجدتُ نفسي في الشارع من جديد، إلى أن وجدتُ وظيفة مترجم قانوني في شركة نفط أمريكية في ليبيا، وسافرتُ إلى هناك حتى حدثت ثورة القذافي، وخلال أربع وعشرين ساعة رحلوني من البلد، ولم أكن أعلم لماذا، مع أنني كنتُ أعرف أكثر زعماء ليبيا»!

* * *

تسعون عاماً؛ قضاها «وديع فلسطين» بين أروقة الأدب والصحافة، رأى فيها ما لم يراه غيره، وسمع فيها ما لم يسمعه سواه، يقول في ذلك: «مما أعتزُّ به في مسيرتي الأدبية، أنني تواصلتُ مع أعلام الشعر في المهاجر الأمريكية، وصارت لي صداقات حميمة مع

الشعراء الكبار، أمثال: جورج صيدح، والشاعر القروي رشيد سليم الخوري، وإلياس فرحات، وزكي قنصل، وشفيق معلوف، وغيرهم، وهم من شعراء أمريكا الجنوبية، وكذلك مع الشعراء: نعمة الحاج، ووديع رشيد الخوري، والدكتور سليمان داود، ومع الدكتور أحمد زكي أبى شادي بعد هجرته إلى أمريكا .. وهؤلاء من شعراء أمريكا الشمالية. ولم أحاول التواصل مع «إيليا أبى ماضي» حتى عندما زرتُ أمريكا في عام ١٩٥٥م، لأنني كنتُ واقعاً تحت تأثير صديقي «أبى شادي» الذي قال لي: إنه يعجب بشعر أبي ماضي، وينفر من شخصيته الشرسة!

من جوانب العبقرية في شخصية «وديع فلسطين» أنه كان متوازناً في عواطفه، ومتوسطاً في صداقاته، وفي علاقاته بالجميع، فلا يعرف للعداوة طريقا، ولا للخصومة سبيلا؛ ولقد عبَّر عن ذلك بقوله: «الحقيقة أنني كنتُ صديقاً للأضداد بسبب عدم انحيازي إلى أيّ اتجاه بعينه، أوْ تحزبي لأيّ شخصية أدبية، فمن أصدقائي باختلاف مشاربهم: الشيخ محمود محمد شاكر، وخالد محمد خالد، ومحمود أبو رية، وعبد الله القصيمي، وسيد قطب، وسلامة موسى، وإسماعيل مظهر، كما عرفتُ زكي مبارك، وطه حسين، والعقاد، والمازني. ولم أحاول تصنيف الأدباء إلى أشرار وصالحين كما فعل صديقي/ أنور الجندي في كتابه «الصحافة والأقلام المسمومة»!

«وديع فلسطين» وديع ومتواضع وخجول، هادئ الطبع، ليست له مطامع دنيوية، ولا مآرب حزبية، ولا شيء مما يتهافت عليه الناس، يقول: «لم يكن من مطامعي أنْ أُحشر بين من أعدهم من أساتذتي الكبار، ومع ذلك فعندما اختارني مجمع اللغة العربية بدمشق عضو مراسلاً في عام ١٩٨٦م ومجمع اللغة العربية الأردني عضواً مؤازراً في عام ١٩٨٨م؛ فقد تهيبتُ الموقف، ورجوتُ السادة أعضاء المجمعيْن أن يعتبروني تلميذاً في هاتيْن المؤسستيْن. وقد تنفستُ الصعداء بعد ذلك عندما رشحتُ من وراء ظهري مرتيْن لعضوية مجمع اللغة العربية بالقاهرة، وكان الرسوب من قسمتي! فليس لي صبر ولا أهلية للمشاركة في مجامع

الخالدين، لأنني أسكن في حي «مصر الجديدة» ويطلبون حضوري إلى المجمع بحي «الزمالك» لمناقشة (حرف الهمزة)!

أعلام عصر وديع فلسطين

كثيرة هي الكتب التي ألَّفها وديع فلسطين، وكثيرة تلك الكتب والدواوين التي قام بتحقيقها، وأكثر من ذلك الكتب التي ترجمها، مثل: «موسوعة كومبي المصورة» وهي موسوعة من ثمانية أجزاء، و«موسوعة أعلام مصر والعالم»، وموسوعة «القبط» التي صدرت باللغة الإنجليزية في ثمانية أجزاء في أمريكا، و«قاموس الأدب العربي الحديث»، وغيرها.

لكن أهم كتاب أصدره، هو: «وديع فلسطين يتحدث عن أعلام عصره» يقع في جزءيْن في نحو ٧٥٠ صفحة، إذْ يتحدث عن مائة شخصية من الأعلام الذين عرفهم. هذا الكتاب يعبّر عن سيرته الأدبية الذاتية من خلال هؤلاء الأعلام الذين تعامل معهم.

يمكن وصف هذا الكتاب؛ بأنه أبرع ألوان كتابة السير الذاتية، لأنه مبني على معلومات شخصية، وليس فقط معلومات وصفية وجافة. والذي يميز هذا الكتاب -أيضا- أن الشخصيات التي كتب عنها «المؤلف» هي تلك الشخصيات التي عاصرها وتعامل معها، وعرفها عن كثب، وقام بتقديمها من خلال منظوره الأدبي، وبأسلوبه الفني الرائع المعروف عنه؛ الذي أضفى على الكتاب جانباً من جوانب التشويق والمتعة.

إذْ نجح «المؤلف» في سرد رؤى موجزة عن مجموعة من الأعلام العرب الذين عرفهم من واقع تواصله الشخصي، واحتكاكه بهم، وما يأمله أنْ يتحقق من أجل توثيق إسهاماتهم، وتكريمهم، وإنصافهم في زمنٍ عزَّ فيه الإنصاف، وعزَّ الوفاء، وعزَّ الرجال .. كما عزَّت فيه الصداقة، والمرءوة، ومكارم الأخلاق!

أستاذ الأجيال

عندما فاز الأديب/ بهاء طاهر، بجائزة النيل للآداب؛ قال على الفور: «إنَّ أستاذي «**الطاهر مكّي**» كان أحقّ مني بالجائزة»!

إنَّ كل موقف من مواقف العلاّمة الدكتور/ **الطاهر أحمد مكي**- جدير بالإعجاب، وكل حكاية في حياته؛ تصلح أنْ تكون درساً في الأخلاق النبيلة، والوصايا الجميدة، فعلى سبيل المثال: اتصلتْ به إحدى الباحثات -ذات مرة- لتسأله عن هاتف لجنة الفتوى بالأزهر الشريف، بخصوص مسألة في الميراث، فردَّ عليها قائلاً: أنا أُجيبكِ على سؤالكِ. فتعجَّبتْ، قائلة: ولكنكَ لستَ فقيهاً يا أستاذنا، فقال لها: يا بُنيَّتي، أنا (أزهري ودرعمي) درستُ الفقه على المذاهب الأربعة، ثمَّ أجاب على فتواها!

أجلْ؛ هذا العِلْم، وهذه الثقافة؛ جلَّلتْ هامة (أستاذ الأجيال) وجعلته مثلاً يحتذى!

حكاية ثانية؛ تكشف عن كرم «الأستاذ» ووقوفه بجوار تلامذته؛ فقد زاره أحد تلاميذه، وعندما رآه كاسف البال، حزيناً مضطرباً، سأله عن السبب؟ فقال الطالب: سيؤجَّل زفافي لعامٍ آخر؛ لعدم مقدرتي على توفير النفقات! فلمْ يمضِ اليوم؛ فإذا بالأستاذ يأتي بالمبلغ المطلوب، ويعطيه لتلميذه، ليفرِّج عنه كُربته!

حكاية ثالثة؛ منذ بضع سنوات؛ نُوقشتْ رسالة علمية عنه بكلية البنات بجامعة عين شمس، فاعتذر عن عدم الحضور. ولمَّا سئلَ عن السبب، قال: «أردتُ أن

أترك حرية المناقشة والنقد للحاضرين، لأنهم بمثابة أبنائي وزملائي؛ حتى لا يتحرَّج أحد منهم في إبداء رأيه بصراحة»!

نعم؛ هذه الطباع، وهذه المشاعر؛ نَقَشَتْ اسم (أستاذ الأجيال) في ذاكرة التاريخ!

أجل؛ هذا الحياء، وهذا التواضع؛ زيَّنَ تاريخ (أستاذ الأجيال) وجعله أُسوةً حسنة!

من أجل ذلك؛ وصفه الدكتور/ عبد الصبور شاهين قائلاً: إنَّ «الطاهر مكي» عالِم كبير زاهد، يعمل في صمت، بعيداً عن الضجيج!

* * *

«الطاهر مكي» أديب موهوب بحق؛ فعندما يكتب في موضوع ما؛ يظل كتابه هو «العمدة» في هذا المجال، فكتابه (القصة القصيرة) ليس هو الأول فحسب، بلْ هو الأفضل أيضاً.

وكتابه (الشِّعر العربي روائعه ومدخل لقراءته) لا يزال هو الرقم الصعب في بابه.

كما يعدُّ كتابه (مقدمة في الأدب الإسلامي) أول دراسة في آداب الشعوب الإسلامية!

«الطاهر مكي» كاتب موسوعي، وصاحب مشروع نقدي فريد؛ يقوم على إبراز نفائس الحضارة الإسلامية، واستخراج بحوث الاستشراق الرصينة ونقدها.

مِن ذلك: كتابه «بابلو نيرودا شاعر الحب والنضال» وكتاب «الحب عند دانتي وابن حزم». فضلاً عن الدراسات الأندلسية، التي هي ميدانه الأول والأهم، مثل: «الأدب الأندلسي من منظور إسباني»، و«أصداء عربية وإسلامية في الفكر الأوربي الوسيط». ولعلَّ تحقيقه لمخطوطتَي (طوق الحمامة) و(الأخلاق والسِّيَر) لابن

حزم. وتحقيقه لكتاب (الوافي في العروض والقوافي) لأبي البقاء الرندي؛ شاهد على تفوقه في فن التحقيق. بلْ إنه أول من كشف عن رحلة المستشرق الإسباني دومينجو باديا، الذي أعلن إسلامه، وغيَّر اسمه إلى (علي بك العباسي) وتعلَّم العربية، وزار مكة والمدينة أثناء موسم الحج!

هناك الكثير والكثير مما جادت به قريحة «أستاذ الأجيال» من المؤلفات التي سارت بها الركبان، وتخطتْ اليابس والماء، منها: كتاب (امرؤ القيس حياته وشِعره)، و(مع شعراء الأندلس والمتنبي)، و(الأدب العربي المعاصر في مصر). كما ترجم عدة كتب، منها (الرمزية) و(مناهج النقد الأدبي) و(الشِّعر العربي في إسبانيا وصقلية) و(الحضارة العربية في إسبانيا) و(التربية الإسلامية في الأندلس) و(صلاح الدين الأيوبي في الأدب الشعبي الأوربي) وغيرها من المؤلفات التي لاقتْ قَبولاً حسناً بين الباحثين؛ فبايعه الباحث والأديب (وديع فلسطين) عميداً للأدب الأندلسي! وقال عنه المحقِّق/ عصام الشنطي: « إنَّ دراسات الطاهر مكي ومؤلفاته في التراث والتحقيق والحضارة تأتي في المرتبة الأولى»!

* * *

على الرغم من أنَّ مؤلفات «الأكاديميين» جافة وعقيمة، حتى إنَّ «الناشرين» لا يقبلون عليها؛ لأنها كريهة كالمحيض، أوْ كأرجل الفئران، ورءوس الشياطين! لكن (الطاهر مِكي) بخلاف هؤلاء الهامدين المحنَّطين؛ فدور النشر تتسابق على بيع كتبه وتوزيعها مرات ومرات! ففي مقدمة الطبعة السادسة لكتابه (دراسة في مصادر الأدب) يقول: «استطعتُ في هذه الطبعة أنْ أصمَّ أُذُنيَّ عن الإلحاح عليَّ في التعجيل بطباعته، بعد أنْ نفد تماماً، واشتدَّ الطلبُ عليَّ، إذْ رأيتُ أنني بحاجة ماسة إلى أنْ أُعيد النظر فيه .. وهذا ما حدث فعلاً»!

بالفعل؛ فـ«الطاهر مكي» عندما يشرع في التأليف، يرتفع به إلى درجة الرسائل المقدسة، فلا نجد في كتاباته الحشو ولا التكرار، ولا العبث والاستهبال، بلْ هي

كلمات موزونة بميزان الذهب، والفكرة عنده متسلسلة ينتظمها عقد فريد يربط بين المقدمات والنتائج برباط محكم بديع، فمثلاً يقول في مقدمة كتابه «الأدب المقارن أصول وتطوره ومناهجه»: «هذا كتاب أتعبني كثيراً، ومؤكد أنَّ قارئه سوف يتعب معي؛ إذْ كان عليَّ أنْ أطوف بأركان الدنيا بحثاً وراء الأدباء من كل الطبقات –عظاماً ومتوسطين ولا شيء. والرحَّالة والمؤلفين، والأنواع الأدبية، والمذاهب النقدية في لغات عديدة، وأسماء لا تنتهي .. وعلى امتداد مساحة من الزمان، تتجاوز آلاف الأعوام، ومع ذلك أحسستُ وأنا أعاني كتابته بلذة لا تعدلها لذة، ومتعة لا تعدلها متعة، وأثِق أنَّ متعة القارئ لن تقلّ عن متعتي بحال»!

* * *

خلاصة القول؛ إنه إذا ذُكِر روَّاد (دار العلوم) أمثال: علي مبارك، وحفني ناصف، وطنطاوي جوهري؛ ومحمد عبد المطلب، وحسين المرصفي، وتمَّام حسان؛ ذُكِرَ (الطاهر مكي) معهم جنباً إلى جنب؛ فطوال حياته لمْ ينافق مسئولاً قط، ولمْ يتقرَّب من السلطة أبداً، بلْ نأى بنفسه عن مواضع الشبهات، ومطامع الدنيا، وتفرَّغ للإبداع والبحث العلمي .. لذلك؛ استعانت به الجامعات لوضع مناهجها في الأدب والنقد، والإشراف على الدراست العليا.

منذ أكثر من ربع قرن؛ كتب مقالاً مدويًا في مجلة «الهلال» طالب فيه بضرورة فصل «دار الكتب المصرية» عن «هيئة الكتاب». وفعلاً استجابت الدولة لطلبه، وتمَّ الفصل بينهما، وبسبب ذلك؛ عاداه «رئيس الهيئة» -الذي كان يشغل رئيس الهيئتيْن في وقتٍ واحد- عداوةً شديدة!

«الطاهر مكي» شجاع لا يخشى في الحق لومة لائم، من ذلك اكتشافه سطو الدكتور/ محمد مندور في كتابه «نماذج بشرية» على كتاب (النماذج العالمية في الأدب الفرنسي والعالمي) للكاتب الفرنسي جان كالفيه!

في ذات الوقت؛ نرى «الطاهر مكي» ابن مدينة (إسنا) مثالاً رفيعاً للوفاء .. فما

من مرةٍ التقيته أوْ هاتفته؛ إلاَّ وذكر لي شيخه/ أحمد الشريف –عالِم (قوص) الذي تعلَّم على يديْه، وقال لي: إنه كثيراً ما يدعو له، ويقرأ على روحه الطاهرة من سور القرآن المجيد!

بلْ إنه عندما كتب مقدمة ديوان «مواكب الفجر» لصديقه الشَّاعر المرحوم/ محمد أمين الشيخ– لمْ ينسَ أيام الصِّبا التي قضاها بمدينة «قوص»، إذْ يقول: «بعد رحلةٍ من العمر طالتْ؛ عدتُ إلى مهبط صبانا الأولى في قوص أقفُ على أطلال الأمس، وأستروِح ذكريات الماضي، وأستروح شقاواتنا، وطموحاتنا؛ التي ذهب الزمن بأكثرها، وطامن غرورنا، وهدهدَ من أحلامنا، وأبقى في أعماقنا بقية جذوة حب لا تهدأ ولا تخمد بهذه البقعة الطيبة من أرض مصر؛ التي التقتْ على ثراها روائع حضاراتنا المتعاقبة .. فقد احتفظتْ في أعماقها بكل جلال الماضي، منطوية على نفسها في كبرياء دون أن تذهب الحسرة بطيبة أهلها، أوْ تفسِد أخلاقهم الوديعة، في انتظار اللحظة المواتية، يمسون على خيرٍ، ويصبحون في رجاء»!

من ذلك أيضاً؛ أنه ظلَّ وفيًّا لقصة حب عاشها في شبابه الباكر حينما كان في إسبانيا، وقد أشار إليها من طرف خفيٍّ في الإهداء الذي افتتح به كتابه (دراسة في مصادر الأدب) إذْ يقول: «إلى راهبة .. إلى قلبٍ كبير، وعقل ذكيّ وَسِعني ذات يوم حين ضاقت بي الدنيا».

* * *

لا جَرَمَ أنَّ الدنيا مازال فيها من الوفاء، والناس فيهم أوفياء .. فكما أنَّ الأزهر لنْ ينسى الشيخ المراغي، والجامعة لنْ تنسى طه حسين، كذلك لنْ تنسى «دار العلوم» ابنها البار، وأديبها الكبير «الطاهر مكي»!

لنْ تنسى «دار العلوم» تاريخه المُشرِّف، ومواقفه الشجاعة، ومؤلفاته الجادّة، ومحاضراته التي مازال يتردد صداها بالغدوّ والآصال!

إنه «أستاذ الأجيال» الذي تخرَّجَ على يديْه الأدباء، والعلماء، والشعراء، والكُتَّاب، والأساتذة الكبار، وأرباب البيان، وقادة الرأي العام، حسبنا في ذلك ما قاله المفكر الإسلامي الدكتور/ عبد الحليم عويس: «على كثرة أساتذتي؛ إلاَّ أنه لمْ يخلد في ذاكرتي، سوى أستاذي/ الطاهر مكي»!

من هنا أقول: إنَّ «الطاهر مكي» أحق مَنْ يُطلَق عليه لقب (الأستاذ) بعد عباس العقَّاد!

ولِمَ لا؟ ألمْ يكن عصامياً مثله؟ ألمْ يختر حياة «الرهبنة» مثله؟ ألمْ ينهج نهجه في التأليف والتصنيف؟ ألمْ ينذر حياته للعلم فقط؟ ألمْ يحاكيه في سيرة حياته طولاً وعرضاً؟

بلى! للعلم، ولا شيء سواه! ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾.

عروس النيل

عندما قدَّم الأديب الكبير/ أحمد حسن الزيات؛ كتاب «بلادي الجميلة» لـ(نعمات أحمد فؤاد) شَبَّهها بـ«مي زيادة»! بلْ أشار إلى تفوق نعمات في الأسلوب، فقال واصفاً إياها: «أنت من نعمات بين زوج وفية، وأم رءوم، وأخت مواسية، ومواطنة مخلصة، وعاشقة للنيل تنشد علي ضفافه الخضر أناشيدها المؤلفة من عبرات إيزيس وضحكات كليوباترا، وصلوات عمرو، وغزوات صلاح الدين، لتطوف بك في مجالي الطبيعة ومشاهد الكون»!

قبل مولدها بعدة أشهر، رأى والدها رؤية منامية، علِمَ أن المولود القادم فتاة، وأن اسمها نعمات، وسيكون لها شأن كبير في الحياة! وصدقتْ الرؤيا؛ وأتتْ للحياة صبية ذكية تمتلك من الهبات الكثير: قدرة علي الحفظ، وبلاغة في التعبير، وسِعة في الأفق، وشجاعة في الحق، وإحساس بالجمال يمنحها الإيمان بالله، والاعتزاز بالوطن!

لقد ظهرت عليها علامات النبوغ منذ طفولتها المبكرة، تروي جانباً منها، فتقول: «عندما كنتُ في الصف الثالث الابتدائي بمدرسة مغاغة بالمنيا، ذهبنا في رحلة لمصنع السكر، وبعد عودتنا طلب منا الأستاذ/ أحمد عطية -معلِّم اللغة العربية- كتابة موضوع تعبير من عدة جمل عما شاهدناه في الرحلة، فكتبتُ ١٢ صفحة، انبهر بها المعلِّم إلى حد أنه بكى من شدة التأثر! وذهب لوالدي يطلب منه معاونته في رعاية موهبتي الأدبية. يومها تأكدَّ لوالدي ما شعر به من قبل، وبدأ

الاثنان في إمدادي بالكتب والمجلات التي تنمِّي ملكة الكتابة، وزاد هذا من مكانتي لدى أستاذي؛ حتى إنني عندما كنتُ أذهب له لشأن ما أثناء تدريسه في فصل غير فصلنا، كان يطلب من البنات الوقوف لتحيتي من شدة فرحه بموهبتي، وكان عمري لمْ يتعدَّ العاشرة!

وعن فترة الدراسة بالمدرسة الثانوية، تقول: «كانت زميلتي في الدراسة المذيعة الرائعة «آمال فهمي» كانت خفيفة الظل وحلوة الصوت، وكثيراً ما كانت تطلب مني أن أكتب لها موضوع التعبير الذي طلبه منا المعلِّم، وكنتُ أوافق بشرط أن تغنِّي لي إحدى روائع أم كلثوم التي كنتُ أعشقها، وأسمع صوتها في الظلام حتى لا تشغلني عنه أيّ رؤية! وبعد نهاية الدراسة؛ كنتُ أقرأ ما أحضره لي أبي من كتب، وأستزيد من تعلم اللغات التي أقبلتُ علي تعلمها بدأب، إلى جانب القرآن الكريم الذي حفظته بأكمله؛ وهو ما منحني القدرة على امتلاك مفاتيح اللغة العربية، وفتح أمامي باب الاستزادة من الفنون والآداب».

وعن مرحلة فاصلة في حياتها، تقول: «جاءت وفاة أبي –وأنا في الرابعة عشرة من عمري– صادمة لي، كنتُ كمن كان يستند على جدار، وفجأة انهار من خلفه! لذا؛ أهديتُ له أول كتاباتي قائلة: إلى الذي تمنى أن يراني صاحبة قلم، فأتمنى أن يشعر بما صرتُ فيه»!

لقد كان رحيل الأب سبباً في توطد علاقة «نعمات» بكل ما يستطيع منحها مشاعر الأبوة، ولهذا كانت صلتها بالأديب الكبير/ أحمد حسن الزيات –صاحب مجلة الرسالة– الذي كان يراها امتداداً له، وكذلك صلتها بعباس العقَّاد الذي ألَّفتْ كتاباً رائعاً عن أدبه، وغيرهما من جيل العمالقة، وهو ما قالت عنه: «عندما اختفى الأب البطل من أمام الصغيرة توطدتْ علاقتي بآباء غيره، ولعلَّ هذا سر ارتباطي بالنيل الذي اعتبرته الأب الأكبر منذ أن تفتحتْ عينايَ على الحياة، وزادت صلتي به عندما كنتُ أصحب والدي في مسيرته الصباحية المبكرة بجوار

شاطئ النيل للمرور على أرضه»!

* * *

لمْ نعرف في العصر الحديث مَنْ تغنَّى بمصر وحضارتها، وعشِق النيل إلى حد الفناء؛ مثل «نعمات فؤاد» مما جعلها تتذكر نشيد الصباح عندما كانت في المدرسة الابتدائية، تقول: ما زالت كلمات النشيد تتردد في ذهني، وهي: (النيل العذب هو الكوثر، والجنة شاطئه الأخضر، ريَّان الصفحة والمنظر، ما أبهى الخلد وما أنضر)!

لذا؛ رأيناها تقتحم الصِّعاب، وتخوض المعارك الضارية دفاعاً عن مصر وحضارتها، ومن أشهر هذه المعارك: معركة قضية هضبة الأهرام، وقضية دفن النفايات الذرية، وقضية الدفاع عن قبة الحسيْن، وقضية الدفاع عن الآثار الإسلامية، وقضية أبي الهول، وقضية الآثار المصرية التي استولت عليها إسرائيل أثناء احتلالها سيناء .. وغيرها من المعارك التي خرجت منها منتصرة على الفساد والمفسدين، والمتاجرين بثروات الوطن!

حتى قيل عنها: إنها تكاد لا تخرج من معركة إلاَّ لتدخل معركة جديدة، لا يعنيها الجهد بقدر ما تعنيها النتيجة. فتارةً تحارب الفساد الذي أراد يوماً بيع هضبة الأهرام لمستثمر كندي لبناء منتجع سكني بها، وتارة تحارب الجهل الذي لم يمانع في أن تكون مصر مدفناً للنفايات النووية، وتارة تعادي الأمية التعليمية والثقافية، رافضةً بيع العقل والموروث المصري.

وتقول عن نفسها: «لمْ أختر يوماً معركتي، بلْ كانت معاركي هي التي تختارني، ولم أظن أنني في يومٍ ما سأخوضُ أيّ معركة!! كانت البداية في منتصف السبعينيات عندما أرسل لي أحدُ تلامذتي المبتعثين في كندا، مجلة كندية على غلافها صورة لرجل على هيئة صقر يفرِد جناحيْه على الأهرامات، وعنوان الغلاف «عودة بيتر

مونك»، وتروي صفحات المجلة من الداخل كارثة بيع عشرة آلاف فدان من هضبة الأهرامات لهذا المستثمر الكندي مقابل نحو مليوني دولاراً، بالمشاركة مع شركة مصر لتنمية السياحة، وهو رجل كما قالت المجلة سبق طرده من إحدى الولايات الكندية وتغريمه مبلغ طائل لخداعه لهم!!

هنا؛ جُنَّ جنوني حين علمتُ الخبر، فسألتُ عن الشركة وعنوانها، وتتبعتُ أساس الموضوع، ووجدتُ أن صحيفة «التايمز» أطلقت صيحة في عام ١٩٧٥ لحماية الأهرامات وهضبتها من تلك الصفقة -أيْ قبل معرفتنا بهذه الكارثة بنحو عامين- ولمَّا تأكدتُ من المعلومات التي جمعتها؛ بدأتُ معركتي بمقال في جريدة الأهرام بتاريخ السابع من يوليو عام ١٩٧٧ بعنوان «مدينة سياحية عند الهرم»! أكدتُ فيه رغبتي في إعمار كل شبر في مصرنا، خاصة بعد أن كثر الحديث عن المدن والقرى السياحية، ولكن هذا لا يعني أن نأتي بمن يدك ويحفر ويوصِّل أنابيب المياه والصرف إلى منطقة الأهرامات؛ لأن أصحاب الأموال غير أصحاب الحضارة.

وقد اختتمتُ مقالي بعبارة «إنَّ الآثار أعراضنا، فابقوا لنا الماضي .. ابقوا لنا شيئاً».

لمْ يأتِ المقال بالنتيجة التي رجوتها، فلم يتحرك أحد، فسارعتُ لكتابة سلسلة من المقالات؛ أكدتُ فيها أن وزارة السياحة تستخف بعقلية المصريين وبرلمانهم بعد موافقتها على مشروع كهذا، دون الرجوع إليه! وقد كان لهذا المقال دوره في تدخل مجلس الشعب بعد تكاتف الرأي العام والمثقفين مع مقالاتي؛ فصدر قرار رئاسي بوقف المشروع!!

* * *

قبل أن تنطفئ نيران هذه المعركة؛ خاضت «نعمات فؤاد» معركة جديدة، بدأت بعدما نما لعلمها عن توقيع مصر والنمسا لبروتوكول اتفاقية في عام ١٩٧٨

يقضي باستقبال أول شحنة نفايات ذرية كانت قادمة من النمسا لدفنها في صحراء مصر الشرقية. وهي المعركة التي كتبتُ فيها المقالات وحاضرت في الندوات! تقول عنها: «وقع تحت يدي بنود الاتفاقية فوجدتها يشوبها حالة من الغموض والتنازلات من الجانب المصري بلا أيّ مقابل، وكأنه من دواعي سرورنا وإحساسنا بالمكانة الدولية أن نتقبل نفايات النمسا الذرية! بينما تدل القراءة الجيدة للاتفاقية على أن بنودها لا تعدو إلاَّ أن تكون تأجير لبعض الأراضي المصرية لصالح الطرف النمساوي!!

بهذا وجدتني وقد دخلتُ معركة جديدة لَمْ أسعَ لها، فكنتُ أصوِّر الأوراق والمستندات وأوزِّعها على الحاضرين لإطلاعهم على خطورة الاتفاقية، وهو ما أثار الرأي العام العالمي، وبالطبع وصل الأمر للرأي العام في النمسا، حتى فوجئت في أحد الأيام بسفير النمسا في القاهرة يأتي لزيارتي في منزلي مقدِّماً اعتذار بلاده، ومؤكداً عدم المضي في المشروع من قبل حكومته»!

وتضيف: «كان لمناهضتي لمشروعي: الهضبة، واتفاقية دفن النفايات في مصر، أثرهما في وضع اسمي في قائمة الاعتقالات التي طالت مصر في سبتمبر ١٩٨١، وكنت أتوقع ذلك، إلاَّ أن اسمي رفع في اللحظة الأخيرة بعد زوال أسباب الصدام!

كما خاضت «نعمات فؤاد» معارك عديدة ضد وزير الثقافة السابق/ فاروق حسني- معترضة على ما يقيمه من معارض للآثار المصرية خارج مصر، مؤكدةً أن في سفر الآثار الكثير من الأخطار عليها، وأن مَنْ يريد رؤية آثارنا فعليه المجيء إليها، وأنه لا توجد دولة في العالم تفعل ما نفعله مقابل حفنة من الجنيهات!

* * *

الحق أقول: إنَّ الدكتورة/ نعمات فؤاد- لا تكتب لمجرد الكتابة، ككثير ممن يحترفون الكتابة، إنما تكتب في موضوعات ذات دلالات معينة .. لذا؛ لَمْ تكن

كلماتها مجرد عبارات تخطُّها يداها، إنما تسكب على الورق من روحها، وتضيف من ثقافتها المتنوعة، وخبراتها الحياتية وتجاربها الطويلة!

يتضح ذلك جيداً، منذ إعدادها لنيل درجة الماجستير عن «أدب المازني» التي تعد أول رسالة في الجامعات المصرية تتناول شخصية من الأدب الحديث، حيث كان الجميع يركن إلى البحث في الأدب العربي القديم أو الآداب الأخرى. أمَّا رسالة الدكتوراه فكانت عن «النيل في الأدب العربي» وهي الدراسة التي أكدتْ فيها أن النيل جزء من تراث المصري وحياته اليومية، من خلال ترحال دام شهوراً طويلة بين مدن وقرى مصر، شمالها وجنوبها، غربها وشرقها، تجلس وتستمع، تسأل وتنتظر الإجابة، لتخرج في بدايات الستينيات برسالتها عن النيل.

وللدكتورة/ نعمات- العديد من المؤلفات التي تقترب من الأربعين كتاباً في الأدب والنقد والسياسة والدين والفن، منها: أزمة الشباب، الأدب والحضارة، دراسة في أدب الرافعي، أدب المازني، الأخطل الصغير، ناجي الشاعر، النيل في الأدب المصري، قمم أدبية، شخصية مصر، خصائص الشعر الحديث، النيل في الأدب الفني، أعيدوا كتابة التاريخ، وغيرها.

لعلَّ من روائعها، كتاب (الجمال والحرية والشخصية الإنسانية في أدب العقاد) الذي تحدثتْ فيه عن شخصية هذا المبدع الذي عاش حياته بين الكتب بمفرده، بلا زوجة تؤنس وحدته. وهو ما عبَّرت عنه بقولها: «وكأنه منذور للمعبد! فقد وهب نفسه للكتابة ووهبتْ نفسها له»! وتقول في موضع آخر: «مسكين الكاتب العملاق في توحده .. نخلة سامقة وسط الحجر»! وتصف أسلوبه المحكم، فتقول: «هو خير من تتمثل عنده دقة اللفظ العربي ومطابقته للفكرة .. الكلمة عنده قفاز محبوك»!

وعن كتابها (أم كلثوم وعصر من الفن) تقول عنه: «عند انتهائي من إنجاز هذا الكتاب؛ الذي لم أكتبه كسيرة ذاتية فقط، لكن كتأريخ لعصر شامل، ذهبتُ إلى

(الست أم كلثوم) كيْ أعرضه عليها قبل طبعه، فقرأته ونال إعجابها، لكنها تحفظتْ على بعض نقاط وردتْ به، أذكر منها ما كتبته عن مكانتها وقت أن كانت منيرة المهدية سلطانة الطرب! واحتكمنا لشاعر الشباب/ أحمد رامي؛ فوافقني وجاء في صفي»!

من مؤلفاتها المميزة، كتاب (من عبقرية الإسلام) الذي تقول في مقدمته: «كمْ قرأتُ لأكتب هذا الكتاب عن الإسلام، كمْ تأملتُ وكمْ تمليت، كمْ وعيتُ وكمْ استوحيت، وبعد هذا كله جاء مجرد لمحة من نوره، ونفحة من هداه». وتقول في موضع آخر عن شخصية المجتمع في الإسلام: «إذا ضممنا آيات الشورى في القرآن إلى آيات المجادلة الحسنة، فإننا نلمح حض القرآن على وجوب دور الرأي العام، وأن الرأي العام له رقابة نفسية بمعنى أنه إذا صلح هذَّب الآحاد والجموع، وإذا فسد وتقاعس فسد المجتمع، ووسيلة المجتمع إلى إيجاد مجتمع فاضل هو الحياء والاستتار، فالحياء قيد اجتماعي، والاستتار حصر للشر».

* * *

لا يفتونا في هذا الصدد؛ أن نشير إلى كتابها (رسائل إلي ابنتي) الذي بدأتْ فيه منذ عام ١٩٥٢، ولم يظهر إلاَّ في عام ١٩٨٤م، إذْ انتظرتْ حتى تكتب مشاعرها تجاه ابنتها الثانية «فينان» وولدها الوحيد ذي الاسم المركب «أحمد فؤاد»، الذي يحمل اسم والدها.

وقد حاز –هذا الكتاب– على جائزة اليونسكو، كواحد من أفضل عشرة كتب على مستوى العالم كُتِبتْ في الأمومة! إذْ يحوي إلى جانب المشاعر الحانية؛ المعلومات التي تزرع في النفس الانتماء، وتنشط في الروح العزة، وتفتح للعقل الآفاق.

يقول عنه فاروق جويدة: «هذا الكتاب أجمل ما أعطت أم مصرية».

ويقول محمد سلماوي: «في هذا الكتاب خلاصة تجربة سيدة عظيمة احتلت مكانة خاصة، عادة ما يحفظها الشعب لمن تتحول إلى رمز شامخ للبلاد، فتحتل في القلوب موقع أم المصريين جميعاً .. إنه مكانة أم كلثوم .. مكانة صفية زغلول .. من هنا؛ فإنَّ هذا الكتاب، وإنْ كانت كتبته الدكتورة/ نعمات فؤاد لابنتها، إلاَّ أنه في الحقيقة كُتِبَ للأبناء جميعاً».

لقد عرضت –المؤلفة– آراءها بطريقة ساحرة؛ فتنتقل بالحديث من الفلاحة المصرية إلى المرأة العربية، وتحكي عن قيمة المال، وقيمة الصداقة، ومعنى الدِّين، والثقافة، وفن اختيار الزوج.

ومن كلماتها في فصل الكفاح، تقول: «الحصول على ورقة (يانصيب) قيمتها بضعة آلاف من الجنيهات لذيذ ومريح، ولكني لا أتمنى لكِ يا ابنتي أن تربحي ورقة يانصيب، فمثل هذا المال يذهب بسهولة كما جاء، وإنْ مكث فلا طعم له ولا بركة فيه، إنَّ خير المال المُندَّى بالعرق».

وتهدي كلماتها للفلاحة المصرية، قائلة: «إلى تلك التي امتزجت بوادينا وحملت طابعه، فجمعت في كيانها النحيل طِيبة الأرض، وعذوبة السماء، وصبر الصحراء الذي لا ينفد».

وتعرِّف الصداقة، فتقول: «الإنسان خامة .. وتشغيل الخامة هو الصداقة»!

ثم تقول في موضع آخر عن الإيمان وأثره: «علَّمتني الحياة؛ أن الإيمان مرفأ ترسو عليه بشرية الإنسان بأوهامه ومخاوفه وأحلامه أيضاً، ولا يؤنس الإنسان شئ كصلته بربه، مهما حلَّق في الفضاء وهبط على سطح كوكبٍ آخر، فما أوتي من العلم إلاَّ قليلا».

ليس هذا فحسب؛ بلْ إنَّ الكتاب كله حِكَم رفيعة، ومواعظ بليغة، كأنه نشيد شِعري؛ ينقصه الوزن والقافية، ولا ينقصه الصدق والشعور!

لذا؛ ينبغي أن تقتنيه كل أسرة، ويجب أن يقرأه كل إنسان؛ فمن تلك الدرر الكثيرة التي احتواها الكتاب، ننقل هذه العبارات:

- إني أخشى يا ابنتي من إقبالك إلى المثل الأعلى بين رجال السياسة والفكر؛ يدفعك لأنْ تبحثين عنه بين رجال الفن!

- إني أخشى يا ابنتي أن تأتي وتكبري ثم تلتفتي من حولك متطلعة إلى المثل الأعلى بين الرجال، وتجهدي نفسك في البحث فيرتد إليك طرفك خاسئاً وهو حسير!

- إني أخشى يا ابنتي أن تدخلين المدرسة فيدسُّون عليك تاريخاً مزيفاً لبلادك .. فقد جارى المربون لنا الفساد المستشري، فمسخوا الحقائق، وشوهوا الوقائع، وافتروا على التاريخ!

- ابنتي؛ امنحي الحنان من قلبك الكبير ولا تنتظري الجزاء، فإنَّ فعل الخير في ذاته يحمل جزاءه بما يضفيه على فاعله من السعادة وراحة الضمير، ثم إنَّ التجرد للمثل الأعلى بدون مقابل هو ارتفاع بالإنسانية إلى أوج رفيع يسمو على الجزاء، بلْ لعله يترفع عنه!

- علِّمي أطفالك يا ابنتي أن الصناعة مجد باذخ حرمنا الاستعمار منه؛ إذْ أوهمنا أن بلادنا زراعية؛ لنزرع له وتجني الخير دوننا يداه. لنزرع القطن لمصانعه، ثم يجعل من بلدنا بعد نسجه سوقاً يضاعف فيه الثمن أضعافاً كما يشتهي دون حساب!

- إنَّ الأيام يا ابنتي كالأفراد؛ تتفاوت في المظهر والخطر والأثر.

- إنَّ الأيام والحوادث التي تصنع التاريخ؛ إنما هي ملك الوطن كله. فالوطن يا صغيرتي ماض وحاضر ومستقبل.

- إنَّ الأمومة يا ابنتي ليست مجرد حمل ووضع ورضاع. لأنَّ هذا تتساوى فيه الأنثى من كل نوع. وهي عملية دنيا فائدتها للنوع أكثر منها للفرد، ولكن الأمومة في جوهرها بناء وإنشاء وغرس. فإذا سَمَقَ علا وارتفع البناء، وأعجب الإنشاء وازدهر الغراس، انتصرت الأمومة في المرأة واحتفلت بيوم عيدها.

- فن الأمومة كفن الصياغة في الأدب، له أسرار ولفتات ولمحات ولمسات هنا وهناك.

- لذة هذه الحياة في الكفاح، في الكبد؛ الذي يزيد صاحبه كل يوم جديداً في ماله ونفسه وتفكيره وتجاربه ورصيده من معرفة الحياة والناس.

- إنَّ العيش يا ابنتي؛ إنْ بلغ حد الرخاوة والطراوة قتل صاحبه! أعني وأد طموحه وتحفزه وتحمسه ونشاطه. فيورثه بلادة الحس والخمول وقصور الآمال. وما أتعس الحياة بلا أمل، بلا عمل، بلا غاية، بلا هدف نحلم به، ثم نصحو لنسعى إليه، ثم نفرح إذْ ندنو منه، ثم ننتشي من الراحة إذْ نظفر به، ثم نحلم بهدف جديد.

- إذا رأتْ عينيكِ رجلاً يرتاد المقهى بإصرار؛ فاعلمي أنَّ الرابطة العائلية في بيته مفقودة! واعلمي أن بيته أشبه بفندق يجمعه به الأكل والنوم! وهذا حال بعض البيوت؛ حيث تكون السيدة تافهة الحديث، متشابهة الأيام، محدودة الآفاق قليلة الوسائل!

- حذارِ حَذارِ؛ أن تتخذي العلم سلاحاً أو تتوسلي به الوظيفة فحسب! إنك بصفتك مثقفة -لا متعلمة فقط- لابد أن يكون لك أهداف إنسانية، تفيد هذه المعمورة من حولك!

- من أسباب التفاهة: الغرور؛ فالمغرور تنكمش الدنيا في نظره حتى تصير في حجم المرآة، فلا يرى فيها إلاَّ نفسه! ثم يعميه الغرور مرة أخرى، فلا يرى في

صورته إلاَّ مزايا خالصة. هيهات أن يبدو معها عيب واحد وواحد فقط!

– من عوامل التفاهة: افتقاد الهدف، فالذي يعيش تائهاً بلا غاية، بلا رسالة، بلا هدف؛ إنسان تافه لا يستحق الحياة! لأنَّ الحياة نعمة يجب أن يشمل خيرها الفرد والمجتمع.

– الغنية التافهة مهمتها لف ودوران في محلات الأزياء، لف ودوران في البحث عن الأنباء. فإذا احتواها مجلس كان حديثها غثاً لا فكرة فيه ولا عمقاً. ونقد رخيص للزيجات الجديدة، وإطراف ثقيل بحوادث الطلاق الأخيرة.

– إنَّ تفاهة المتعلمة تعدُّ مشكلة جسيمة في مجتمعنا العربي؛ لأنها بمثلها السيئ تنفِّر الشباب من الزواج. وليت الأمر اقتصر عليها إذن لكان أقل الجزاء، ولكنه – للأسف– يسيء إلى المتعلمات عامة، ويزري بهن ولا جريرة. فالمتعلمة التافهة تغدو برزائلها القاعدة التي تطبق بلا عناء على الباقيات لأنَّ الشر أسرع مساراً بين الناس. فإذا اقتصد منصف في التعميم، انطوى بلا مراء على شك يدفعه إلى الاحتراس المتهيب عند الاختيار والتفضيل.

مَن هي نعمات فؤاد؟

إنها بنت التاجر الثري/ أحمد فؤاد، وعمها العلاَّمة/ فؤاد عبد الباقي –صاحب المعجم المفهرس لكلمات القرآن الكريم. ولدت بمدينة «مغاغة» بمحافظة المنيا، وتخرجت في كلية الآداب جامعة القاهرة، وحصلت على الماجستير، فالدكتوراه، ثمَّ وهبتْ حياتها للقراء والبحث والاطلاع، لدرجة أنها يزعجها لهاث المصريين وراء دراما التليفزيون، متسائلة: أمَا في البيت من كتاب أوْ جريدة؟! وهو ما دفع بها للتضحية بميراثها، وبناء مكتبة ضخمة على الطراز العربي في طريق الهرم، حفاظاً على ذلك التراث النادر الذي ضاق به منزلها. وقد سجلتها مؤسسة الأغاخان الثقافية كإحدى المكتبات النادرة التي أسسها فرد.

هذا؛ وقد شغلت «نعمات» عضوية المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، وعضو اللجنة الدائمة للآثار الإسلامية والقبطية، ورئيس الجمعية العلمية للمحافظة على التراث والآثار التاريخية. كما شغلت عدة مناصب أخرى، منها: أمين عام المجلس الأعلى للثقافة، وأستاذ الدراسات العليا بجامعة حلوان، وأستاذ بالمعهد الدولي للاقتصاد والبنوك الإسلامية. كما قامت بالتدريس بالعديد من الجامعات، مثل: جامعة استانبول، جامعة نيويورك، جامعة جورج تاون بواشنطن، جامعة طرابلس بليبيا، وجامعة الأزهر الشريف، وأكاديمية الفنون بالقاهرة.

أخيراً؛ يمكن تلخيص شخصية الدكتورة/ نعمات أحمد فؤاد- في مقولتها: «شيء كبير أن يكون للإنسان قلم، ولكن شيئاً نفيساً أن يكون للإنسان موقف، ومن نِعم الله عليَّ أن وهبني الكلمة والقرار، أعني القدرة على الاختيار الصعب، فعرفتُ المواقف، وتحملتُ في سبيلها الكثير، وعلوتُ على الإغراءات والعروض والمناصب والبريق، فأعزّ منها جميعا تراب هذا البلد، بلْ كل ذرة من هذا التراب»!!

شيخ المطاعنة

في مقدمة كتابه (شرح قصيدة الهمزية في مدح خير البرية للبوصيري) روى الدكتور/ عبد العظيم المطعني- حكاية لطيفة، قال فيها: «نِمتُ مهموماً عصر يوم، فرأيتُ في المنام رجلاً يرتدي ثوباً أبيض، يضع يده على صدري، ويقول: «الرسول ﷺ يريد منك كتاباً»! وكانت هذه الرؤيا؛ سبباً في تأليف هذا الكتاب»!

من هنا نعلم؛ أن مؤلفات (المطعني) لمْ تكن وليدة الصدفة، أوْ إضافة كمية أوْ تراكمية، ككثير من مؤلفات هذا الزمان، إنما كانت إضافة نوعية، أحوج ما تكون إليها المكتبة؛ فقد حملت مؤلفاته بصمته، كما كانت مرآةً لطبيعة عصره؛ ذلك العصر الذي اتسم باحتدام المعارك الفكرية والأدبية؛ فخاض «المطعني» غمار هذه المعارك، وأدلى بدلوه، وأفحم المعاندين والمكابرين، والمتاجرين بالمذاهب والفلسفات، وقد سجَّل كثيراً من أحداث هذه المعارك في مؤلفاته؛ فكتابه (الإسلام في مواجهة الاستشراق العالمي) كان رداً على غلاة المستشرقين الذين أرادوا تشويه الحضارة الإسلامية. وكتابه (الإسلام في مواجهة الأيديولوجيات المعاصرة) جاء رداً على الشيوعيين والعلمانيين! ونظراً لقيمة هذا الكتاب العلمية؛ قررته جامعة الأزهر على طلاَّب قسم الصحافة والإعلام بكلية اللغة العربية. أمَّا كتابه (الشبهات الثلاثون المثارة حول إنكار السنَّة النبوية) فقد أفحم به منكري الحديث النبوي. كما خصص كتاب (حقائق القرآن وأباطيل خصومه) لدحض افتراءات خصوم الإسلام، وقد نشره المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، وترجمه

إلى اللغات الأجنبية. وجاء كتاب (أسباب زواج النبيّ بأمهات المؤمنين) رداً على مغالطات المستشرقين حول هذه المسألة.

* * *

من الكتب المهمة للشيخ/ المطعني (المجاز في اللغة والقرآن الكريم) وهو في جزأيْن كبيريْن، تجاوز ألف صفحة، استطاع -من خلاله- أن يرد على كثير من الأوهام والموروثات التي ترسَّخت في الأذهان بسبب التلقّي الفج؛ الذي يفتقر إلى التحقيق والتدقيق العلمي!

كما يعدّ هذا الكتاب من أهم الكتب التي عالجت أطول معركة، احتدم حولها الجدل بين القدماء والمحدثين، وهي قضية (المجاز في القرآن)!

يقول المطعني: لقد بدأت فكرة هذا الكتاب؛ عندما ألقيتُ محاضرة بنادي مكة الأدبي عام ١٩٩٥م بعنوان (المجاز عند ابن تيمية وتلاميذه بين الإنكار والإقرار) فكان لهذه المحاضرة، أكبر الأثر في الفكر الأكاديمي والديني؛ لدرجة أن مفتي المملكة -آنذاك- الشيخ/ ابن باز- سأل عن المجاز والخلاف حوله، بعد حديث وسائل الإعلام عن المحاضرة، فقال الشيخ/ ابن باز: «إنَّ الخلاف بين السلف والخلف حول المجاز خلاف لفظي، فالسلف يسمونه أسلوباً من أساليب اللغة، أمَّا الخلف فيسمونه المجاز»!

ويمضي المطعني قائلاً: لقد تتبعتُ الخلاف التاريخي حول قضية المجاز منذ نشأتها، فرصدتُ مراحله، وتطوره عبر الزمن، حتى العصر الحديث، وقد انتهيتُ إلى نتيجة حاسمة، مفادها: «أن قضية إنكار المجاز في اللغة وفي القرآن الكريم، قضية كُتِبتْ لها الشهرة، ولكن لمْ يكتب لها النجاح!

وقد حقق «هذا الكتاب» المراد منه، حيث أخذتْ ظاهرة إنكار المجاز في القرآن المجيد تتراجع شيئاً فشيئاً، وتلتئم حولها وحدة الفكر الإسلامي في كل

مكان.

في مقدمة الكتاب؛ تساءل المطعني: هلْ المجاز واقع في اللغة العربية أمْ غير واقع؟ وإذا كان واقعاً فيها، فهلْ يجوز وقوعه في القرآن الكريم، وفي أحاديث النبيّ عليه السلام؟

أجاب: لقد اختلفتْ وجهات النظر حول هذه القضية، على ثلاث شعب.

- فريق يقول بوقوعه في اللغة وفي القرآن الكريم وفي الأحاديث الشريفة.
- وفريق يرى أنه غير واقع، لا في اللغة ولا في القرآن ولا في الأحاديث.
- وفريق آخر يذهب إلى نفيه عن القرآن وعن الأحاديث، لكن يثبته في اللغة.

يرى المطعني؛ أنَّ القول بنفيه عن اللغة والقرآن والأحاديث، هو جملة منسوبة للأستاذ/ أبي إسحاق الإسفرائيني، وأبي عليّ الفارسي، من القدماء. أمَّا نفيه عن القرآن خاصة، فهو منسوب إلى داود الظاهري -إمام مذهب الظاهرية- وإلى ابنه أبي بكر. أمَّا من جوَّز وقوعه في اللغة، وفي القرآن وفي الأحاديث فلا ينسب إلى أفراد، وإنما هو مذهب الجمهور، أوْ مذهب العامة والكثرة الكاثرة؛ التي لا تحصى عدداً من علماء الأمة في كل فروع البحث والتأليف.

وقد تبارى الفريقان: مُجوّزو المجاز، ومانعوه، وكل منهما يدفع ما يراه الآخر!

ومن هنا وضع المانعون مصنفات في إنكار المجاز: كمنذر بن سعيد البلوطي؛ الذي وضع رسالة في إنكار المجاز.

فردَّ عليهم بعض المُجوّزين، فوضعوا مصنفات في الرد على منكري المجاز، مثل: أبي الفيد مؤرّج السدوسي، والحسن بن جعفر، وغيرهما ممن وضع رسالات في الرد على منكري المجاز!

ولعلَّ منشأ الخلاف هو البحث في أسماء الله وصفاته، فقد وردتْ في القرآن

نصوص، يُوهِم ظاهرها المشابهة بالحوادث، مثل: إثبات اليد، والوجه، والعين، والمعيَّة، والقرب، والمجيء، والاستواء لله سبحانه وتعالى.

وفي الحديث الشريف، وردتْ نسبة القَدَم، والإصبع، والصورة، والنزول، والضحك، والكف لله سبحانه أيضاً. مع أنَّ في القرآن نصاً عاصماً من اعتقاد التشبيه والتجسيم، وأية مماثلة، وهو قوله تعالى ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ﴾ [الشورى: ١١].

وعلى ضوء هذا؛ أجرى فريق من العلماء هذه الأمور على ظواهرها، وأبقاها على مدلولاتها، لأنَّ الله وصف بها نفسه، وكذلك رسوله الكريم، ولا يستطيع أحدٌ أن يصف اللهَ بأفضل مما وصفه به رسوله الأمين؛ الذي لا ينطق عن الهوى، وهو أعرف الخلق بالله سبحانه وتعالى، وأعلمهم بما يجب له من كمالات، وما يُنزَّه عنه من نقائص!

أجل؛ أقروا هذه العقيدة على ما هي عليه من غير تأويل، ولا تمثيل، ولا تعطيل.

وهناك فريق توقف، ولمْ يقل في ذلك شيئاً. وهذان يُعرفان بأنهما مذهب السلف.

بينما وقف آخرون موقفاً آخر؛ فأوّلوا كل ما أوهم ظاهره تمثيلاً أوْ تجسيماً، فأوّلوا اليد بالقدرة والقوة والنعمة. والإصبع بالأثر، والوجه بالذات، والاستواء على العرش بالهيمنة، والمجيء بمجيء الأمر، والنزول والقرب والمعية: باستجابة الدعاء ومنح النفحات وقرب العلم، ومعية العلم والنصر والتأييد.

ولكل من الفريقيْن أدلة يعتمد عليها، ومما تجب إليه الإشارة أن من السلف من شارك المؤولين في تأويلهم!

كما بيّن «المطعني» أن بعض المواضع والنصوص أجمع السلف والخلف على صرفها عن ظاهرها، وتأويلها بمعانٍ مجازية.

وإذا كان الاتجاه الأول قد عُرِفَ بأنه (مذهب السلف) فالاتجاه الثاني الذي آثر التوقف منسوب أيضاً إلى السلف؛ وهو مذهب الآحاد! فإنَّ مذهب الصرف والتأويل أوْ التفسير المجازي لبعض الأسماء والصفات الإلهية قد عُرِفَ بأنه مذهب الخلف، وهو مذهب جمهور الأمة!

وهكذا أخذ (المجاز) ينمو ويزدهر بمرور الأيام، وتعترك حوله الأذهان في ظلال العقيدة والتوحيد. على أنَّ المتتبِّع لسير النزاع بين الفريقين، يرى أن الخلاف بينهما كان هادئاً طوال القرون الأولى، حتى جاء (النصف الثاني من القرن السابع، والربع الأول من القرن الثامن) فقد اتجه الخلاف إلى الشدة والعنف، وكانت الشدة من جانب المنكرِين وحدهم، فقد برز الإمام ابن تيمية (٦٦١ - ٧٢٨هـ) فتبنى مذهب السلف، وتصدى لأقاويل كثير من الفِرق، وكان مما أدلى فيه بدلوه موضوع المجاز، فاختار مذهب المنع والإنكار! وقد كتب فصلاً كاملاً في كتابه «الإيمان» أنكر فيه المجاز، وحشد فيه من الأدلة النقلية، والعقلية، والواقعية، وشدد النكير على مجوِّزيه، فرماهم بالكذب حيناً، وبالجهل حيناً آخر!

وكان السبب المباشر لهذه الحملة القاسية؛ أن فريقاً من العلماء، قال: إن الإيمان هو التصديق القلبي، أمَّا الأعمال فلا تدخلْ في الإيمان حقيقة، وإنما تدخل فيه مجازاً. حتى جاء ابن تيمية فرأى أن الإيمان هو التصديق والعمل معاً، ولكيْ يصح له ما أراد؛ أجهد نفسه وعقله في إنكار المجاز بهذه الصورة!

ومن بعده حمل لواء المنع تلميذه «ابن قيِّم الجوزية» فكان أقسى وأعنف من شيخه! وكتابه الذي ضمنه الرد على مجوّزي المجاز يشهد عنوانه على ذلك، فقد سمّاه «الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطِّلة» كما سمَّى المجاز بـ«الطاغوت»! وبذل طاقة ذهنية هائلة، ليتوصل إلى إنكار المجاز!

على أننا إذا وجهنا أنظارنا باتجاه علماء الأمة، فالنحاة واللغويون، والأدباء والنقاد، والإعجازيون والبلاغيون، والمفسرون والمحدثون، والأصوليون

والفقهاء، كل هؤلاء لهم مسلك آخر، ومنهج آخر، أطلقوا عليه (العمل بالمجاز) كل في دائرة اختصاصه!!

الملاحظ أن قوماً لا يُحصون عدداً من علماء المسلمين، منذ القرن الثاني الهجري إلى عصر ابن تيمية، وما بعد عصر ابن تيمية؛ قد استثمروا المجاز في أعمالهم الفكرية والعلمية، فكشفوا عن سر جمال اللغة من جهة المجاز لغةً وعقلاً، وخاضوا معارك جِد خطيرة، كان المجاز واحداً من أسلحتهم التي لا تُفلّ، ومواردهم التي لا تجف ولا تنضب!

بينما الذين قالوا بالمنع، وذهبوا إلى أن القول بالمجاز بدعة؛ لا يتجاوز عددهم أصابع اليديْن، كما أنهم -جميعاً- بما فيهم ابن تيمية وتلميذه ابن القيم- لم يقدِّموا أية أدلة على صحة رأيهم بالمنع!!

بلْ من المفارقات العجيبة؛ أنَّ (ابن تيمية وتلميذه) من القائلين بالمجاز، خلافاً لِما يشاع عنهما من أدعياء السلفية. أمّا حالة إنكارهما للمجاز؛ فهو موقف طارئ منهما، أرادا به مواجهة تطرف المغالين في القول بالمجاز عند بعض الفرق الكلامية كالمعتزلة!

جدير بالذكر؛ أنه بالرغم من تشبع «المطعني» وإفادته من تراث ابن تيمية؛ إلاَّ أنه اختلف معه، وأبرز ما اختلف فيه: إنكار ابن تيمية للمجاز في القرآن واللغة. يقول المطعني: إنَّ الدراسة التي قمتُ بها أكدتُ فيها أن المجاز حقيقة في اللغة، وحقيقة كذلك في القرآن الكريم، وقد يكون هذا مذهب علماء الأمة سلفاً وخلفاً، ومنهم ابن تيمية وتلميذه ابن القيم، لأن إنكارهما للمجاز لم يكن عن عقيدة راسخة عندهما، يدينان بها، ولكن كان لهذه الظاهرة أسباب في عصرهما، وقبل عصرهما، لاسيما كتاب «فصوص الحِكم» لابن عربي، حيث رأى ابن تيمية أن فوضى التأويل امتدت، وربما تصل إلى القرآن الكريم فتسيء فهمه! ومن ثَمَّ تبنى قضية إنكار المجاز، لأنه يرى أن المجاز إحدى الذرائع التي أدت إلى تصدع وحدة فكر

الأمة، وتغيير حقائق الإسلام، فرأى أن ضرر القول بإنكار المجاز عند مختلف الفرق الكلامية أكثر من نفعه، فتبنى فكرة إنكار المجاز سداً للذرائع!!

فمشكلة ابن تيمية –كما يقول الإمام/ أبو زهرة– إنه وصل إلى درجة الاجتهاد المطلَق، فأنكر المجاز سداً للذرائع، وليس كما يعتقد أنَّ المجاز منكر فعلاً في القرآن المجيد، وفي اللغة.

في ظني؛ أنَّ «الاجتهاد المطلَق» أوْ إطلاق الرأي بدون تقييد، لاسيما في الفتاوى، توسُّعاً في قاعدة «سد الذرائع» كتحريمه زيارة قبور الصالحين، بما في ذلك زيارة «الروضة الشريفة»، والنهي عن التوسل بالرسول، وغير ذلك، من أكبر الأخطاء التي وقع فيها ابن تيمية، وجعلته تحت مرمى الردود العنيفة طوال القرون الماضية! وقد فصَّلنا القول في هذه المسائل في كتابنا (ابن تيمية في الميزان)!

* * *

عندما كان «المطعني» طالباً بالأزهر؛ دارت بينه وبين (عباس العقاد) مراسلات، فكان ينشرها العقاد في «يومياته» بجريدة الأخبار، ويسارع بالتعليق عليها؛ إذْ كانت تحظى عنده بكل تقدير، وقد ضمنها العقاد في (يومياته)!

وبعد رحيل العقاد؛ طلب المطعني من «الزيات» أن يعمل إحصاء بمؤلفات العقاد، لنشره في مجلة «الرسالة» فوافق الزيات، ونشر المطعني الإحصاء، الذي ضم جميع مؤلفات العقاد!

عندما مات الدكتور/ عبد العظيم المطعني؛ رثاه المفكر الإسلامي الدكتور/ محمد عمارة– فقال فيه: «لقد كان علمه وخلقه الجناحيْن الذيْن حلَّق بهما في سماء العلم والفكر على امتداد سنوات عطائه العلمي، في رحاب جامعة الأزهر، وفي ساحة الفكر الإسلامي العام»!

كما رثاه سماحة الشيخ/ محمد المُسيَّر– بمقالة بعنوان (فقيد الدين واللغة)

قال فيها: «كان المطعني مجاهداً ناصراً للدين واللغة، وكان يلجأ إليه العلماء في المعضلات، وانتفع به طلاب العلم في أرجاء العالم الإسلامي، وتحمل عبء الدعوة إلى الله في ميادين وعرة، فطارد أكاذيب المستشرقين»!

وكتب الدكتور/ عبد الله مبروك النجار- مقالة بعنوان «كانت الدعوة قضيته» قال فيها: «لقد استوفى الداعية الإسلامي الكبير الدكتور/ المطعني- كافة الشروط التي تؤهله لدخول الجنة! وذلك ما نفهمه مما أتاحه الله لنا من العلم الظاهر بمبادئ الدين. ولا أبالغ إذا قلتُ: إن لي معرفة بهذا العالِم الكبير الذي بلغت قامته عنان السماء. لقد أفنى المطعني حياته كاملة في خدمة الدعوة الإسلامية، فجعلها قضية حياته، حتى فاقت اهتمامه بأموره الاجتماعية وحظوظ نفسه، وكان متواضعاً بسيطاً، يحب الناس ويتعاطف معهم، ويصادقهم ويسأل عن أحوالهم، فكان حبه متجدداً دائماً لكل من يعرفهم، وكان مخلصاً صادقاً، لا يتلون، ولا ينافق»!

وقال عنه مؤمن الهبّاء –مدير تحرير جريدة المساء-: «كان المطعني نموذجاً للعالِم العامل الذي يجاهد بالكلمة الودودة، ويجاهر بالعلم الصادق، الذي لا يحيد عن الصراط المستقيم، ويجادل بالتي هي أحسن، ولا يخشى في الحق لومة لائم! وكان دائماً خفيض الصوت، عفيف النفس، قنوعاً بما قسم الله له! لم يتوقف أبداً عن العطاء العلمي حتى وهو في شيخوخته! وكان يكتب المقالات في مختلف الصحف، ويؤلف الكتب العلمية حتى آخر يوم في حياته .. فلم ينشغل بالمكايد التي يثيرها الصغار، فاحتفظ دائماً بسموّ النفس، وعلوّ الهمة، ونقاء السريرة .. ولهذا كان ذهنه حاضراً متقداً، وكان علمه فياضاً رقراقاً».

وقد رثاه الشاعر/ ياسر أنور بقصيدة بعنوان «فارس بلا جواد» قال فيها:

فارسٌ أنتَ في زمان التخاذل   وجوابٌ يروي صهيل التساؤل!
تمتطي صهوة الجهاد وتمضي   لا تبالي بمن غفا وتخاذل!

وجهك الياسمينُ يقطر نوراً وضلوعٌ تحوي حقول السنابل
خالدٌ أنت كالمدى، لا تبالي وسيفنى الذي علينا يقاول!

كما رثاه الشيخ/ معوض إبراهيم- فقال:

لبَّى نداء الله «عبدُ العظيم» لكنه بالعلم فينا مقيمْ!
قد شاقه القرآن منذ الصِّبا وفي سناه راح يشدو العلومْ
فكان بحراً أين من كنهِهِ ما شعشعَ الروح، وأشجى الحلوم
وأبرز الضاد وأسرارها مما حوتْ آيُ الكتاب الكريم
والسنَّةَ الغرَّا، وكمْ فضَّ من أبكارها المعنى اللطيف الحميم
ومن تراث العُربِ أبدى لنا ما كان حتى جاءها كالجسوم!

ذلكم شيخ «المطاعنة» ومفخرتها؛ العالِم الأزهري الجليل؛ الذي لمْ يألُ جهداً في الدفاع عن الإسلام وحضارته، حتى أتاه اليقين!

عميد أدب الأطفال

ذات مرة؛ قلتُ له: إنك «رائد أدب الطفل في الوطن العربي».

فلوَّح بيده، وقال منزعجاً: أنا لستُ رائدًا، إنما الرائد الحقيقي هو «كامل كيلاني»، وقد سرتُ على دربه، وأنا أعدُّه أهم من «أندرسون» لأنه قام بابتكار عشر قنوات لثقافة الأطفال، ففي المرح ألَّف قصصاً حول جحا، وقام بتأليف قصص دينية كثيرة، فألف قصصًا عن السيرة النبوية في ٣٠ كتابًا، واهتم بالحيوانات والنباتات، وأنا أؤمن بمقولة شهيرة لـ«برنارد شو»، إذْ يقول: «إنني لا أشبه شكسبير، لكنني أقف على أكتافه».

فأنا طوَّرتُ بعد كامل كيلاني، وبيني وبينه خمسين عامًا، ومما ساعدني على التطوير؛ أنني عرفتُ أدب الأطفال العالمي ومستجداته، وتواكبتُ معه لحظة بلحظة، وقمتُ بترجمة قمم أدب الأطفال إلى اللغة العربية؛ حتى نتعرف على هذا الأدب».

هذا الكلام يدل على تواضع هذا الأديب العظيم، وتقديره لأساتذته!

إنه الكاتب الذي تعدُّ مكتبته من كبرَيات المكتبات الخاصَّة بكتب الأطفال، ضمَّت حوالي (خمسين ألف كتابا) وقد أخلص في رسالته لأدب الأطفال العرب؛ فكتب لهم قرابة ٨٠٠ كتاباً وقصَّة، طُبع منها ملايين النسخ، وتُرجمتْ معظمها إلى لغات شتَّى، وأعدَّ وقدَّم مئات البرامج الإذاعيَّة والتلفزيونية للأطفال، كما أنشأ

أول جمعيَّة ثقافة الأطفال بمصر عام ١٩٦٨م، وهو صاحبُ فكرة إصدار أوَّل مجلَّة إسلاميَّة للأطفال «الفردوس» التي تصدر منذ عام ١٩٦٦م.

فهو رائد بلا منازع .. وعميد «أدب الطفل»!

بلْ هو صاحب أرقام قياسية في إنتاجه الأدبي؛ له ٥٩٥ كتاباً للأطفال طبعتْ في مصر، وله ١٢٥ كتاباً للأطفال طبعتْ في البلدان العربية، وله ٤٠ كتاباً للكبار.

كما يعدُّ الكاتب الأكثر مبيعاً في الشرق الأوسط، فكتابه: (حياة مُحمّد) الذي يقع في عشرين قصة) طبع منها سبعة مليون نسخة! وقصته «خيال الحقل» طبع منها ثلاثة مليون نسخة!

شارك بفاعلية في كثيرٍ من المؤسسات، والهيئات، والجمعيات الأدبية والثقافية؛ فقد أسَّس ورأس جمعية ثقافة الأطفال منذ عام ١٩٦٨م، وهو عضو لجنة ثقافة الأطفال بالمجلس الأعلى للثقافة منذ إنشائها، وعضو لجنة الأسرة والطفل بالمجلس الأعلى للشئون الإسلامية، وأحد مؤسسي اتحاد كتاب مصر، وظلَّ عضو مجلس إدارة لمدة عشرين عاما، وشغل منصب الأمين العام ثلاث سنوات، وغير ذلك من الهيئات الثقافية.

هذا؛ وقد زار معظم الأقطار العربية، حتى بلغت زياراته التي قام بها ١١٧ رحلة، كما زار الولايات المتحدة الأميركية عشر مرات، وزار كثيراً من الدول الأوربية، والشرق الأقصى، كانت هذه الرحلات ضمن برامج محو الأمية، أوْ لحضور فاعليات مهرجانات ثقافة الأطفال، وأدب الأطفال، وما يتعلق بالطفولة!

بعد حصوله على بكالوريوس علوم سياسية بجامعة القاهرة، عمل مشرفًا على برامج الإذاعة المدرسية بوزارة التربية، ثم رأس قسم الصحافة والإذاعة والتليفزيون بهما ... ثمَّ تفرغ للكتابة للأطفال منذ عام ١٩٧٥م، حتى أصبح أبرز رواد أدب الأطفال في العالم العربي.

إنه المبدع الكبير (عبد التواب يوسف) المولود في الأول من أكتوبر عام ١٩٢٨م في قرية شنرا بمدينة الفشْن، بمحافظة بني سويف.

* * *

يقول عبد التواب يوسف: إنَّ العناية بأدب الطفل سِمة حضارية؛ لأنها تعني التعامل مع «عِلم المستقبل» والتخطيط له.

ويقول أيضاً: منهجي في الكتابة للأطفال يبدأ بترسيخ العقيدة ثمَّ تحبيب القرآن الكريم لهم، فحفظ الأطفال لآيات القرآن ترتقي بهم لأسلوب القرآن الراقي والمعجِز، وقد ركزتُ في قصصي على الطيور والحيوانات التي ذُكرتْ في القرآن الكريم ومجموعها ٣٠ طائرًا وحيوانًا. وبدأتُ بقصة عن «الحوت» فقلت: [أنا حوت يصل وزني إلى ٧٥ طنًا، مع أنَّ بيضتي لا يمكن أن تُرى بالعين المجردة]. وكان هذا أسلوبي؛ الدمج بين المعلومة العلمية والدينية في آنٍ واحد. بعد ذلك قمتُ بكتابة المكتبة القرآنية. فالقصص القديمة أخذت القصص من القرآن، أمَّا هذه المجموعة فكانت حول قصص القرآن، وهناك فرق كبير، وسأذكر نموذجًا:

معلِّمة تقول للتلاميذ: اكتبوا لنا قصة «أصحاب الفيل» في ٢٦ كلمة، فالقصة طويلة، ولا يستطيعون تلخيصها في ٢٦ كلمة. فشل الطلاب في اختصارها، فقالت لهم المدرِّسة: لا تقلقوا سأعرِّفكم لماذا اخترتُ ٢٦ كلمة، لأنَّ القرآن الكريم أورد هذه القصة في ٢٦ كلمة، ومن خلال هذه القصة نبيِّن للأطفال عظمة القرآن الكريم ومعجزته!!

حياة (محمَّد) ﷺ

بأسلوب طريف ومبتكر؛ يحكي «عبد التواب يوسف» للأطفال الصغار سيرة خاتم الأنبياء، وذلك من خلال جوانب متفرقة، كان لكل جانب فيها متحدث متميز وكان له دور أساسي فيها، يتحدث عنها بلسان حاله. وربما جاءت القصة

على لسان حيوان أوْ شجرة أوْ ليلة أوْ حجر أوْ بئر أوْ دينار أوْ راية ... وغيرها من الأشياء التي جاءت على ألسنة الحيوانات والأشياء، التي يحب القارئ الصغير أن يسمع الحكايات على ألسنها، إلا أنها حكايات واقعية حقيقية، حدثت كلها، وجميع ما فيها صِدق، وإنَّ ما فيها قد جاء في القرآن الكريم، أو في كتب الأحاديث النبوية الشريفة، أو في الكتب التي تحكي حياة النبيّ الكريم، وهي كتب كثيرة قام المؤلف بقراءتها وهضمها، ليقدم للأطفال قصة حياة النبيّ بهذه الطريقة الجديدة!

اللقاء الفريد بين علماء العرب وعلماء الغرب

هذا الكتاب؛ عبارة عن مجموعة قصصية مكونة من عشرة أجزاء، تحكي للأطفال عن علماء غربيين أشتهروا بمكتشفات ومخترعات؛ فكانوا في نظر العالم من الأوائل في مجالاتهم، ففي هذه المجموعة يعرض «المؤلف» حوارات تخيلية بين هؤلاء العلماء وبين علماء عرب ومسلمين، الذين سبقوهم في تلك الاكتشافات، علي نحو موثق بالتواريخ والأرقام، وذلك لمساعدة الطفل على استيعاب الأحداث والأسماء وإنجازات هؤلاء العلماء. وهي المجموعة الفائزة بأول جائزة للدولة في ثقافة الأطفال، فهي مجموعة قصصية متميزة تمثل التقابل بين علماء العرب والغرب، وتبين جهد العالم العربي بمقابله الغربي في الموضوع نفسه.

* * *

«عبدالتواب يوسف» كاتب نذر حياته لأدب الأطفال مبدعًا ودارسًا -كما وصفه الأستاذ/ محمد عباس عرابي- وقدَّم لهم بالإضافة إلى كتبه الكثيرة بضع مئات من البرامج الإذاعية وهو كاتب يمتلك أدواته: فكرا وإبداعا، لغة وأسلوبا، يدرك تأثير أعماله على الأطفال، ويعرف عن يقين أنه يشارك في تثقيف الأطفال، وفي تربيتهم على قيم ومثل آمن بها، وعمل من أجلها.

ولقد قدم أعماله بأسلوبه السهل البسيط في مخاطبة الأطفال، إذْ يختار مفرداته

ببراعة ودقة ليكوّن لديهم ثروة لغوية، ومن ثمّ فلم يهتم فقط بالمضمون، بلْ اهتم بالعناصر الفنية كافة في أعماله. وقد اهتم اهتماماً خاصاً بالموضوعات التاريخية لتقديم صفحة من صفحات تاريخنا المشرق، وإلقاء الضوء على قصص وأبطال من التاريخ؛ لتكون قدوة للأطفال والناشئين، وتأكيداً لقيم الوطنية والانتماء، وحب السلام، ونبذ الحرب والدمار، إلى جانب اهتمامه بالموضوعات الدينية، وتقديم قصص دينية للأطفال من أجل إثراء وجدانهم الديني، وثقافتهم الروحية.

لقد أدرك «عبدالتواب يوسف» أهمية هذه القيم في حياة الطفل، وأدرك الأنواع المختلفة من القيم الاجتماعية والدينية والأخلاقية، وأنها ضرورة تربوية، لذلك أولاها دوراً مهماً في ثنايا إبداعاته القصصية؛ يقول في كتابه «حول أدب الأطفال وكتبهم»: (القيم الدينية والأخلاقية تعتبر المحور الأساسي لجميع ما أقدّمه للأطفال في جميع المجالات العلمية والثقافية والفنية، أنا لا أجذب الطفل من أذنه بعنف إلى مجالات التربية والأخلاق، بلْ أعتمد على القصص التي قد تكون حقيقية مستمدة من التجربة الذاتية أوْ مما قرأتُ أوْ سمعت).

وقد تعددت القيم التربوية التي دارت حولها قصصه، منها: قيمة الاستقلال وتحمل المسؤولية، قيمة الطموح، قيمة حب القراءة والاطلاع، قيمة التعاون، قيمة حب الاستطلاع، قيمة النظام، قيمة التواضع، قيمة الشجاعة، قيمة الصداقة، قيمة الثواب والعقاب، قيمة الحب والسلام، قيمة التسامح، قيمة النجاح، وقيمة التفاؤل.

قيمة الاستقلال وتحمل المسؤولية

يقصد بهذه القيمة: الاعتماد على الذات (تحمل المسؤولية) -حرية التصرف دون الاعتماد على الآخرين- نقد الأفكار الأخرى- اتخاذ القرار، وقد ظهرت هذه القيمة في قصص: عم نعناع، المعلم النبيل، ليلى عروستي آخر شقاوة، السندباد يقابل «كينج كونج»، أشبال ٦ أكتوبر، بامبي، خيال الحقل، صديقي فوق الشجرة،

سيف الله خالد بن الوليد.

ففي قصة «المعلم النبيل» بدأ الطفل مشوار التعلم والعمل معا، واعتمد اعتمادًا كاملًا على نفسه، فكان يعمل وينفق على دراسته في الأزهر. وفي قصة «صديقي فوق الشجرة» تقول الأم: يجب أن نعتمد على أنفسنا، وبدأ كل واحد من أفراد الأسرة يقوم بعمله .. وتؤكد الأم على قيمة هذا العمل فتعود وتقول: إن هذا العمل هو متعتنا .. العمل ليس شيئا مملًّا أوْ واجباً يقوم به الفرد، ولكن لابد أن يؤدي هذا العمل بحب وسعادة.

ومن خلال قيمة الاستقلال وتحمل المسؤولية؛ يحاول «الكاتب» أن يبث الشعور لدى الأطفال بالقدرة على تحمل المسؤولية، ومواجهة العقبات والصمود في المواقف الصعبة حتى يستطيع أن يواجه الحياة بما فيها من مشاكل.

قيمة الطموح

تشير إلى المستوى الذي يطمح الفرد إلى أن يصل إليه أو يتوقعه لنفسه سواء في تحصيله الدراسي أو في إنجازه العلمي أو في مهنته، وهي قيمة تربوية مهمة ظهرت في معظم قصصه، منها: قصة «المعلم النبيل»، وقصة «الشجرة المنتصرة»، ففي قصة «المعلم النبيل» نجد أنَّ «يوسف» كان إنسانًا طموحًا يسعى إلى أن يصل إلى كل ما يتمناه، فكان يحلم بأن يتعلم، ويكون له شأن عظيم، واستطاع بالجهد والإصرار أن يتعلم وأن يعمل معلماً، وأن يعلم الأطفال قيماً مهمة في الحياة، وأن يكون له دور في الدفاع عن وطنه.

قيمة حب القراءة والاطلاع

تعبِّر عن أهمية القراءة والاطلاع على أنواع الكتب، والبحث عن الكتاب سواء في مكتبة المدرسة أو في مكتبة عامة، ولهذه القيمة اهتمام خاص لدى عبدالتواب يوسف؛ حيث تناولها في قصة «عم نعناع» و«السندباد يقابل كينج كونج» و«المعلم النبيل» و«ليلى عروستي آخر شقاوة» و«حكايات توشكى» و«أشبال ٦ أكتوبر».

ففي رواية «ليلى عروستي آخر شقاوة» تقول الأم: إن الصغيرة ريم تحب الناس، وتحب أن تعيش بينهم ومعهم ولهم، وهي قارئة ممتازة، تترد على المكتبات، ويطيب لها الجلوس حول الموائد فيها بين زميلاتها، وهن جميعاً صامتات، فهنا لا يعلِّم «الكاتب» الطفل حب القراءة والتردد على المكتبات فقط، ولكنه يعلمه أيضاً آداب القراءة في المكتبة حيث الهدوء والصمت للاستمتاع الجيد بما يقرأه.

قيمة التعاون

قيمة تشمل تقديم المساعدة للمحتاجين والعطف عليهم، وتشمل العمل الجماعي والاتحاد؛ لإنقاذ عمل ما، أوْ لدفع الخطر، وتجنب الاختلاف في الرأي للمحافظة على وحدة الجماعة، وقد ظهرت قيمة التعاون في قصة «عم نعناع» و«أشبال ٦ أكتوبر» و«سيف الله خالد بن الوليد» و«المعلم النبيل» و«السندباد يقابل كينج كونج» و«ليلى عروستي آخر شقاوة» و«خيال الحقل»، ففي قصة «سيف الله خالد بن الوليد» تظهر قيمة التعاون عندما تحمس المؤمنون للحفر، وكان الرسول ﷺ يعمل مثلهم، وفي رواية «عم نعناع» تعاون الأطفال معاً في فتح مكتبة عم نعناع، وتمَّ تقسيم الأدوار بينهم، كما تعاون الأطفال في عمل فريق كرة ليلعبوا على كأس العم نعناع، وعملوا فريق تمثيل ومسرحية، وكان دخل كل من الكأس والمسرحية لصالح العم نعناع؛ حتى يستطيع إجراء العملية في عينيه، وبالفعل نجحوا في ذلك، وعاد العم نعناع إلى مكتبته مرة ثانية؛ نتيجة تعاون الأطفال معًا وإصرارهم على عودة عم نعناع.

قيمة حب الاستطلاع

للقصة دور كبير في تنمية حب الاستطلاع، والفضول المعرفي لدى الطفل وتشجيعه على التساؤل والاستفهام عما لا يعرفه، وقد اهتم «عبدالتواب يوسف» بهذه القيمة من خلال بعض قصصه، مثل: قصة «بامبي» و«المعلم النبيل» و«السندباد يقابل كينج كونج» و«ليلى عروستي آخر شقاوة» و«خيال الحقل»

و«رحلات سندباد الجديدة» و«الربان الجريء»، ففي قصة «الربان الجريء» كان «رحمة» يحاول في دأبٍ شديد أن يعرف كل شيء وأن يلم بما يجري حوله .. فقد كان شغوفًا ومهتمًا بالبحر والسفن، فلم يكن «رحمة» يكف عن السؤال عن حكايات كل من (العثمانيين- الفرس- الهنود- أوروبا ممثلة في البرتغال وفرنسا وهولندا وإنجلترا).

قيمة النظام

يقصد بها الاهتمام بالترتيب والنظام في كل أمور الحياة، وقد ظهرت هذه القيمة في قصة «عم نعناع» و«المعلم النبيل» و«الشجرة المنتصرة» و«صديقي فوق الشجرة»، ففي قصة «الشجرة المنتصرة» يُظهر «الكاتب» أهمية النظام في تحقيق الهدف، فعندما تجمع تلاميذ المدرسة، وقفوا بنظام، متشابكي الأيدي؛ ليكونوا سورًا حول الحديقة .. وارتفعت الأصوات تهتف وتنشد .. ساد النظام، وأقبل الناس يشهدون المنظر، وانضم بعضهم إليهم.

قيمة التواضع

يقصد بها عدم التمادي في تقدير الذات (البعد عن الغرور)، وعدم الميل إلى فرض الشخصية، وظهرت هذه القيمة في حكايات «توشكى» و«المعلم النبيل» و«الربان الجريء» و«سيف الله خالد بن الوليد» وفيها رأينا كيف كان رسول الله ﷺ يعمل بنفسه مع الصحابة في حفر الخندق، وينقل التراب معهم، وفي هذا دلالة على تواضع الرسول، فالإسلام يدعو إلى المساواة بين الناس، لا فضل لعربي على عجمي إلا بالتقوى والعمل الصالح.

قيمة النجاح

تشمل التفوق في الدراسة والعمل ومختلف مجالات الحياة الأخرى، وتحقيق الأهداف المرسومة في الحياة، ولقد ظهرت في قصة «أشبال ٦ أكتوبر» و«خيال

الحقل» و«عم نعناع» و«ليلى عروستى آخر شقاوة» و«المعلم النبيل» و«سيف الله خالد بن الوليد»، ففى قصة «ليلى عروستى آخر شقاوة» نجحت «ريم» في تحويل الفشل إلى نجاح، فقد انشغلت بعض الشيء عن دراستها وعن دروس الكمبيوتر، ولكنها قررت ألاَّ تفشل واستكملت دراستها المتأخرة حتى تنجح.

* * *

هذا هو «عبد التواب يوسف» رائد أدب الطفل في العالم العربي من أقصاه إلى أقصاه ... لقد أدرك مبكراً أنَّ «أدب الأطفال» يقع موقع القلب من منظومة التنشئة الاجتماعية؛ لِما يحفل به هذا الأدب من قيم ومبادئ وأفكار تتسرب إلى وجدان الأطفال فتسهم في تشكيل شخصياتهم ورؤاهم ومعتقداتهم ... فشمَّر عن ساعده، وأبلى بلاءً حسناً، وجنى ثمرة كفاحه وهو على قيد الحياة ... فقد حصد كثيراً من الجوائز، منها: جائزة الدولة في أدب الأطفال ١٩٧٥م، وجائزة الدولة في ثقافة الطفل ١٩٨١م، وجائزة القوات المسلحة عن أدب أكتوبر ١٩٩٢م، وجائزة أحسن كاتب للأطفال ١٩٩٨م، وجائزة سوزان مبارك ١٩٩٩م، وقد حاز على عديد من النياشين والأوسمة خارج مصر كجائزة معرض بولينيا الدولي، وجائزة المجلس العالمي لكتب الأطفال، وجائزة منظمة الثقافة العربية ١٩٩٠م، وجائزة فيصل العالمية ١٩٩١م.

وجائزته الكبرى –كما يقول– حب الناس الذين قرأوا له، وتأثروا بأدبه وثقافته!

ولعلَّ الجائزة الكبرى التي سينالها في الآخرة: مغفرةٌ من الله ورضوان ... والله لا يضيع أجر المحسنين!

مَلِك الإنشاد الديني

لا تعجب إذا سمعتَ أنَّ
الباحث الأمريكي/ مايكل
فروشكوف- أعدَّ دراسة كاملة
عن الأداء الصوتي للمُنشِد الديني؛
الشيخ/ ياسين التهامي!
ولا تعجب إذا علمتَ أنَّ
المستشرق الألماني/ ب. كولن- خصَّص
فصلاً مستقلاً عن حنجرة «التهامي» في كتابه عن
الموسيقى الشرقية؛ باعتباره مرتجِلاً لنغم صوفي جديد، بدون
تعليم أوْ دراسة أكاديمية!

ولا تعجب إذا قرأتَ ما قالته «الصحافة الأسبانية» بأنه: ظاهرة فريدة في عالم الغناء والطرب، وفي عالم الإنشاد الديني خاصة، وأطلقت عليه (ياسين العظيم ظاهرة الشرق).

ولا تعجب أبداً؛ إذا رأيتَ أهم ثلاث رسائل علمية لنيل الماجستير والدكتوراه عن ياسين التهامي؛ أنجزها باحثون أجانب!

فالتهامي؛ امتدتْ شهرته خارج مصر والعالم العربي؛ فقد أحيا حفلات دينية ومناسبات إسلامية عديدة في لندن، وباريس، وألمانيا، وهولندا، وإسبانيا، وفنلندا، وغيرها من العواصم الأجنبية، خاصة في مهرجانات الموسيقى الروحية!

منذ بضع سنوات؛ أحيا أمسية في «مهرجان الموسيقى الروحية» الذي تستضيفه العاصمة البريطانية لندن كل عام، فقال مقدِّم الحفل ليلتها: «ياسين شيء مختلف لا نستطيع تقديمه؛ لذا فمن الأفضل أن نتركه يقدِّم نفسه من خلال غنائه

وموسيقاه، وشكل أدائه الذي يشبه البوح»!

وقد علَّقَ أحد الحاضرين، قائلاً: «صوته وألحانه تفتح في النفوس طرقًا من النور والإيمان»!

بلْ أعدَّتْ هيئة الإذاعة البريطانية الـ B.B.C حلقة خاصة عنه، فوصفته بأنه: «صاحب صوت إنساني فضفاض يستوعب أيّ إنسان على اختلاف لغته وموسيقاه»!

وقد سئل «التهامي» عن سبب محافظته على الحضور لهذا المهرجان، فقال: «إنها لحظات سعيدة تجمع شعوباً مختلفة على المحبة والسلام». وأضاف أن فرقته تقدِّم الإنشاد الديني والموسيقى الروحية التي تعبِّر عن السمو في الروح والترويض للنفس، إذْ تُنشِد لعمالقة الشعراء، أمثال: ابن الفارض، وابن عربي، والحلاَّج، وأبي فراس الحمداني، والسهروردي، والإمام الشافعي، ورابعة العدوية، وغيرهم!

بالفعل؛ لقد قدَّم «التهامي» إنشاداً دينياً، تفاعل معه الجمهور بطريقة مدهشة، لدرجة أنَّ سيدة أوروبية -كانت بين الجالسين في الصفوف الأمامية بالقرب من خشبة المسرح- لمْ تطِق صبراً حين وقف أحدهم أمامها ليلتقط صورة للفرقة؛ فنهرتْ المصوِّر؛ لأنه حجب عنها الرؤية لحظة لا تتجاوز الدقيقة والنصف! وقالت لل(بي. بي. سي): إنها لا تريد أن تنقطع عنها حركة يدي الشيخ التهامي أثناء أدائه المتميز!

هكذا، كان الجمهور -في كل مكان- يتجاوب مع الفن الصوفي الرفيع!

أجل؛ فالصوت عنده يبلغ قمته، وتمتد طاقته ومساحته الهائلة في التأثير حين يتكامل مع شكل أدائه المميز الذي يتفرد به؛ مما أغرى الباحثة البريطانية (ف. جوانا) التي تدير مركزاً للعلاج النفسي في لندن؛ لتزور مصر من أجل إعداد

«دراسة سيكولوجية» عن إنشاد الشيخ/ ياسين كطريقة من طرق العلاج النفسي؛ تسعى لتطبيقها في مركزها الخاص للعلاج النفسي!

وقد حضرت ليلة مولد العارف بالله/ عمر بن الفارض- وأخذتْ مكاناً قريباً من الشيخ ياسين، وهي تستمع له بشغفٍ وإعجاب شديد! مع أنها لا تعرف من اللغة العربية شيئًا. فسألوها: هلْ تفهمين ما ينشده ياسين أوْ يقصده؟ فأجابت: لا، ولا أحتاج فهمه؛ لأنِّي أشعرُ به وجدانياً، وهذا يكفي!

* * *

من هنا؛ لا نكون مبالغين إذا قلنا: إنَّ «ياسين التهامي» هو الملِك المتوَّج على عرش (مملكة الإنشاد الديني) بلا منازع؛ تلك المملكة الروحية التي تمتد باتساع العالم العربي والإسلامي. وقد أُعِدَّتْ عنه -مؤخراً- رسالة ماجستير في كلية اللغة العربية بجامعة الأزهر؛ ونسبتْ إليه الفضل في إحياء الشِّعر الصوفي، وترديده على ألسنة العامة!

لقد حقق «التهامي» معادلة صعبة في عالم الفن والغناء؛ إذْ بلغ ذروة النجاح، وحقق من الشهرة منتهاها. واستطاع المحافظة على هذا النجاح، وتلك الشهرة الواسعة.

فمن ذا الذي يقدر على صنع أرضية ثابتة يجتمع عليها المثقفون، والأميُّون، وعامة الناس؟ ومن ذا الذي يستطع أن يقدِّم فناً تتفق عليه كل الأذواق؟!

هذه المعادلة الصعبة لم تتحقق إلاَّ مع «ياسين التهامي» صاحب الصوت الدافئ، وعاشق التراث الإسلامي، والمغرد للأرواح العطشى للرحيل خلف صبابة الحب الإلهي!

بلْ يرجع للتهامي الفضل في فض مغاليق أسرار المتصوفة، واستخراج كنوز قصائدهم، الكامنة في بطون الكتب، وأحشاء المراجع القديمة، وراح ينشدها في

الهواء الطلق!

فلا تعجب -إذن- عندما تسمع عامل بسيط، أثقله حمل متاعه، وراح يردد بعفوية: «ما حيلتي والعجز غاية قوتي»!

وأحياناً تشكر من أسدى إليك خدمة، فيرد عليك: «لم أفعل شيئًا... أنا قلم والاقتداء أصابع»! وربما سمعتَ في الطريق من يعاتبك قائلاً: «قلبي يحدثني بأنك متلفي»! ثم لا يلبث أن يداعبك فيقول: «روحي فداكَ عرفتَ أمْ لمْ تعرفِ!

هكذا صار الناس يرددون مثل هذه الكلمات المقتطعة، وهذه الإشارات الصوفية بعفوية، دون إدراك لمعانيها الحقيقية، بلْ إن البعض يكاد يحفظ قصائد بأكملها لأقطاب المتصوفة يعجز عنها كبار الأدباء والمثقفين، والفضل في ذلك كله؛ يرجع إلى «ياسين التهامي»!

من أول جملة يبوح بها «التهامي» تدرك أن هذا البلبل صوفيٌّ كبير، وعاشق لا ريب فيه، إذْ تقطر حفلاته عشقاً ووجداً؛ من أرواح عبد القادر الجيلاني، وعبد الكريم الجيلي، وأبو معين الغوث، وعمر بن الفارض -الذي أنشد تائيته الشهيرة (٥٣٧ بيتا) على مراحل عمره الفني المختلفة الذي تجاوز ثلاثين عاما. ولا يخرج «التهامي» عن عيون الشِّعر الصوفي إلاَّ نادرًا، وإذا ما أنشد لغير المتصوفة فلشعراء لهم نفس الروح والمشاعر والعاطفة القوية؛ مثل: عبد الله البردوني، وأحمد شوقي، وعليَّة الجعار، والأخطل الصغير (بشارة الخوري)، وطاهر أبو فاشا، وإيليا أبي ماضي .. ومن القدماء المتنبي وأبي فراس الحمداني، ولعنترة بن شداد من الجاهليين أيضا؛ فالمبدأ عنده هو روح القصيدة، وليس شخص صاحبها.

* * *

المفارقة أن القصائد التي ينشدها «ياسين» على مستوى عال جدًا من حيث معانيها وأفكارها وما فيها من روح وفلسفة، ورغم ذلك يتجاوب معها الجمهور

الكبير الذي يتكون معظمه من غير المثقفين بلْ ومن الأميين.

وقد يكثِر في إنشاد المعاني والمصطلحات الصوفية التي يرفضها الفقهاء المتشددون، ويرون أنها تدعو إلى وحدة الوجود أو تقديس الأولياء وأهل البيت، والاستغاثة بهم وطلب العون منهم والمدد؛ وما ذلك إلاَّ لضيق أفقهم، وقصور عقولهم!

الملاحظ أنَّ جمهور «التهامي» ذو تركيبة فريدة، تماماً مثل شكل وطريقة إنشاده؛ فهو يضم شرائح متنوعة ومتناقضة تشْمل كل درجات السلُّم الاجتماعي والثقافي، بداية من جمهور الموالد والطرق الصوفية وهم القطاع الأكبر، انتهاء بشريحة من أبناء النخبة الباحثين عن الروحانيات أو الغرائبية أو الجذور في مواجهة تيار العولمة الجارف. لكن القاسم المشترك بينهم هو الإحساس العميق بالكلمة، والإحساس بالشيء نصف فهمه، أمَّا النصف الآخر للفهم فيأتي من المشاركة في الغناء كجزء من «الحالة»؛ لذلك كان لياسين جمهور كبير في حفلاته بالبلاد الأجنبية من خلال مهرجانات الموسيقى الروحية، ورغم أن الغالبية العظمى من الحضور كانوا أجانب لا يعرفون العربية، فضلاً عن فهم معاني الشعر الصوفي ... فإنه كان هناك تركيز وإنصات؛ فهم لا يبحثون في معنى ما ينشده بقدر ما يحسونه ويشعرونه!

إنَّ علاقة ياسين بجمهوره التفاعلية هي التي تصنع خصوصيته، أو ما يسميه بالحالة التي يشاركه فيها الجمهور بالإنشاد أقرب إلى جلسات العلاج النفسي أوْ رحلات السمو الروحاني؛ لذلك يخشى المطربون من الغناء معه أو بعده؛ لأن طريقته تجذب الجمهور وترهقه، وتسيطر عليه تماما طوال عدة ساعات تحول دون إمكانية تواصله مع من يأتي للإنشاد أو الطرب بعده، ولهذا السبب دائمًا ما ينشد منفردًا أو في نهاية الحفلات.

* * *

العجيب حقاً؛ أن «ياسين التهامي» بالرغم أنه لم يحصل على دراسات أكاديمية أو علمية؛ إلاَّ أنه يعد أفضل منشِد عربي في علاقته مع الموسيقى وتوظيفه لها في الإنشاد؛ فهو يتعامل مع المقامات الموسيقية بحساسية نادرة، يتنقل فيها، ويزاوج بينها بمهارة لم يعرفها المنشدون الدينيون، وربما لا يوازيه في هذه الموهبة سوى المطرب العملاق صباح فخري!

لقد أبدع «ياسين» بهذه الموهبة لونًا جديدًا في الإنشاد الديني لم يكن موجودًا من قبل، يزاوج فيه بين إيقاعات النغم الشرقي الأصيل والنغم الشعبي، وأدخل فيه الآلات الموسيقية على اختلاف أنواعها، ونوَّع في المقامات الموسيقية المتعارف عليها؛ فطوّر بذلك في الإنشاد الديني، وميزه عن أنواع مختلفة قد تتداخل معه؛ مثل الابتهال الديني الذي قدَّمه كبار المنشدين، أمثال: النقشبندي، ونصر الدين طوبار، وطه الفشني، ليس على مستوى الكلمة فقط .. ولكن في اللحن، وشكل الأداء! فقد ظل الابتهال أقرب للدعاء والمناجاة، ولا يرتبط فيه المبتهل بإيقاع بعينه، بلْ هو حر في أغلب الأحيان، وتصاحبه دائمًا بطانة تردد خلفه من دون موسيقى غالبا.

بينما طوَّر «التهامي» لوناً من الإنشاد، يعتمد على إدخال المقامات الشرقية - بما فيها المقامات المهجورة- على القصائد الدينية والتنويع بينها، وكذلك الآلات الموسيقية على اختلافها من (كمان، وناي، وقانون، وأكورديون ...) ومزج بين إيقاعات النغم الصعيدي، وإيقاعات النغم الشرقي الأصيل، كما اختلف -أيضاً- في طريقة الأداء التي تعتمد أساساً على العلاقة مع الجمهور، وتقوم على التفاعل والتأثير المتبادل، خاصة أنه يقدم في الميادين والموالد والشوارع مباشرة إلى الجمهور!!

من جمال موسيقاه في الاستهلال؛ تبدو وكأنها تسير على غير قاعدة، وأحياناً متشابهة في أغلب ما ينشده، لكن فيما بعد الاستهلال تكون أكثر انتظاما، ولكل

قصيدة موسيقاها الخاصة بها، حتى إنْ بدتْ للوهلة الأولى متشابهة، وفي معظم الأحيان تفرض القصيدة المقام الموسيقي الخاص بها، والذي قد يتغير في القصيدة الواحدة ... فهناك قصائد تغير مقامها ولحنها الآن من مرحلة عمرية لأخرى ومن مكان لآخر، وكثيراً ما يُدخِل تغييرًا ليس على المقام الموسيقي فقط، بلْ على كلمات وأبيات القصيدة نفسها.

كما أن الصوت الفضفاض الذي يتمتع به «التهامي» هو ما أتاح له إنشاد أصعب القصائد بمقامات لم يؤدِّ عليها إلاَّ كبار الفنانين، من أمثال: ناظم الغزالي، وصباح فخري، وأم كلثوم، وهو أقرب إلى البوح الذي يخوض في مساحات واسعة في النفس الإنسانية تجعله يؤثر في ذاته دون معرفة معنى الكلمات أو حتى اللغة العربية نفسها؛ فهو صوت إنساني بامتياز يحسه كل من يسمعه، حتى ولو لم يكن يفهمه!!

قال العارفون بعلوم الموسيقا: إنَّ طريقة ياسين في الإنشاد فريدة ولها خصوصيتها؛ إذْ تعتمد على التواصل المستمر بينه وبين فريق اللحن، والجمهور، وطبيعة وأجواء الزمان والمكان .. أو استحضار ما يسميه «الحالة»؛ حيث التفاعل المستمر، وتبادل المشاعر والأحاسيس مع الجمهور وانفعالاته؛ لذلك فهو لا يقوم بالإنشاد -مثلا- داخل أستوديو، وإنما في الموالد واللقاءات المفتوحة مع الجمهور؛ لأن التسجيل في الأستوديو -برأيه- أقرب إلى الغناء «الاستهلاكي» الذي يُعد مسبقًا للجمهور!

وهو -أيضا- لا يقوم بأيّ بروفة للحن أو لكلمات ما ينشده من قصائد، بلْ يأتي عفوًا ومن تلقاء نفسه أوْ حسب ما يسميه «الحالة»! فهو يرتقي المسرح، ويحاول أن يختار من قصائد الصوفية أنسبها بالمقام. لكن الذي يحدث غالباً أن «الحالة» هي التي تلهمه اختيار القصيدة، وكذلك اللحن، وهما متغيران بحسب «الحالة»!

يبدو ذلك واضحاً من تغير لحن وكلمات القصيدة الواحدة؛ فكثيراً ما أنشد القصيدة الواحدة على أكثر من لحن أو مقام، وربما أنشد على المقام الواحد أكثر من قصيدة، وربما غيّر في القصيدة الواحدة والمقام الواحد بحسب الحالة التي ينشد فيها، والتي يخلقها الزمان والمكان والحدث والناس من حوله أو حالته الشخصية أيضًا التي تتدخل في ذلك، لذلك تأتي القصيدة –أحياناً– ترقص طربًا، ومرات أخرى تأتي هي نفسها تقطر حزنًا كالنشيد الجنائزي!!

من هو (ياسين التهامي)؟

تهيأتْ للتهامي كل الأسباب، وتوافرتْ له كل الظروف التي كانت تدفع به لأنْ يتربع على عرش الإنشاد الديني قرابة نصف قرن من الزمان؛ فقد ولِدَ في أخصب فترة ثقافية، وأنقى حقبة نفسية في القرن العشرين، ونشأ في جو روحاني في عائلة متديِّنة، بقرية محافظة جداً، تابعة لأرقى مدن الصعيد الجواني، حيث تنتهي الفروع والأصول إلى أقطاب التصوف، والعارفين، وآل البيت الكرام!

فهو من مواليد عام ١٩٤٩م بقرية «الحواتكة» بمركز منفلوط؛ تلك القرية التي قال عنها علي باشا مبارك –في الخطط التوفيقية: «إنها قرية كبيرة من مديرية أسيوط بقسم منفلوط، على الشاطئ الغربي للنيل في شرقي الإبراهيمية في جنوب منفلوط بأقل من ساعة، وأبنيتها من أحسن الأبنية الريفية، وفيها قصور مشيدة، وبها نخيل وأشجار وجنات، وأطيانها جيدة المحصول»!

تلقى «التهامي» تعليمه بالمعاهد الأزهرية، ثم انقطع عن الدراسة الأكاديمية؛ ليعيش في أجواء معطرة بالأذكار، والنفحات الصوفية، فاستهوته روائع الشِّعر الصوفي، للعمالقة الكبار، أمثال: الحلاج، والسهروردي، والجنيْد، والجيلاني، وابن عربي، وابن الفارض، وغيرهم، ممن ملأوا الدنيا وشغلوا الناس!

لعلَّ أهم ما يميز التهامى عن غيره؛ إحساسه بحرارة القصائد وتفاعله مع معانيها الوجدانية الشفّافة! إنه إحساس ممزوج بحالة خاصة؛ اجتمع فيها

الصوت، والكلمة، واللحن، والأداء المسرحي، والزى الشعبي المتمثل في العمامة التي تميزه دون سواه، والملامح العربية الصريحة، فضلاً عن وسامته؛ التي جعلته زعيماً دينياً، وقطباً صوفياً –شكلاً وموضوعاً– فهو شيخ ابن شيخ .. يتغنى بكلام السادة الأشراف، والأولياء الأطهار!

مما جعل له تلامذة ومريدين من شمال الدلتا إلى جنوب الوادي، وأصبح حضوره في ليالي الإسكندرية والمحلة والقاهرة وطنطا لا يقل عن حضوره في ليالي سوهاج وقنا وأسوان! ولا يوجد مولد لأحد الأولياء في أيّ مدينة صغيرة أو كبيرة إلاَّ شارك فيه «التهامي» بإحياء الليلة الختامية، حتى إن وزارة الثقافة المصرية دعته للغناء ضمن برامج وزارة الثقافة في مصر وفى العواصم الأوروبية، لاسيما أن المثقفين وجدوا فيه صوتاً وإحساساً لم يجدوه في مطرب أو منشد قبله ولا بعده؛ حتى اتسعت دائرة جماهيره بين الأدباء والمثقفين والعاشقين!

هذا؛ وقد بزغ نجم «التهامي» منذ منتصف السبعينيات؛ كمنشد ديني متمكن، أكثر مما كان عليه السابقون له؛ الذين اكتفوا بالآلات الإيقاعية، واعتمدوا على الناى والنقارة والصفارة فقط! أمَّا «ياسين» فقد بلغ أفضل مما بلغه الشيخ/ أحمد سمور –نجم الأربعينات، ثم صار منافساً للشيخ «أحمد التوني» سيد هذا الفن آنذاك، واستطاع «ياسين» التربع على عرش الإنشاد الديني إلى الآن، كما استطاع الارتقاء بالإنشاد من الأسلوب الدارج والكلمات العامية إلى تطعيمه بأرقى وأجمل ألوان الشعر الصوفي الفصيح؛ وذلك لما يتمتع به من معرفة موسيقية عالية، وتنقل مَرِن وسلِس جداً بين المقامات .... يدركها من كان له قلبٌ أوْ ألقى السمعَ وهو شهيد!

الإمام الأكبر

ذات مرة؛ قال لي أحد
الأصدقاء: هيّا نصلِّي الجمعة
عند الإمام (الجُنيْد)!

فتفاءلتُ بدعوته، لِعِلمي أنه
سيأخذني -كعادته- إلى أحد
الصالحين، وما هي إلاَّ لحظات حتى
وجدتُ نفسي أمام مَلَكٍ من ملائكة البشر!
فاهتزَّ كياني من شدة الأنوار المتفجِّرة من وجهه!

نعم، لقد وجدتُ نفسي أمام العارف بالله الشيخ/ مُحَمَّد الطيِّب -قدَّسَ الله سِرَّه- ذلكم القطب الربّاني؛ الذي قال عنه الناس -عند وفاته: مات الذي كان يرحمنا الله من أجله!

نعم، لقد كان هذا الزاهد الورع تؤمُّه الناس من بلادٍ بعيدةٍ، وقد ترك بصمةً واضحةً في رواد ساحته، وَخلَّفَ جيلاً من المثقفين ثقافةً نوعية، بلْ أنشأ مدرسةً من الدعاة والمُصلِحين!

لذا أقول: إذا أكرمكَ الله بزيارة (ساحة آل الطيِّب) فاعلمْ أنَّك جئتَ على قَدَرٍ بدعوةٍ صالحةٍ من وراء الغيب، وهناك سترى العجب العجاب ...!

في ذلك البيت الطيِّب، وفي تلك الساحة العامرة -المملوءة بالبركات، والمفروشة بالكرامات- نشأ الدكتور «أحمد الطيِّب» فهو وريث بيتٍ شامخٍ من بيوت العلم، وسليل أسرةٍ طاهرةٍ مطهرة، موشَّحةٍ بالهدى والتقى .. فأبوه العالِم الجليل الذي طلَّق الدنيا وما فيها، وَغَلَبَ عليه الورع إلى الحد الذي يعجزُ القلم عن التعبير عنه. بلْ إنَّ جَدَّه مازال مضرب الأمثال!

من عادة آل الطيِّب؛ ألاَّ يفعل أحد شيئاً، ولا يقضي أمراً؛ حتى يأخذ إذناً ممن هو أكبر منه! من ذلك؛ أن الدكتور/ أحمد- عندما فكر في السفر إلى «السوربون» استأذن والده .. فقال له: أمهلني حتى الصباح، فرأى له رؤيا في المنام، فسمح له بعدها بالسفر!

وعندما اختيرَ (مُفتياً) للديار المصرية؛ أسرع، واستشار والده، فقال له: لقد رأيتُ ذلك ليلة أول أمس، فاقبلها يا ولدي ولنْ تمكث فيها كثيراً، وقد حدث بالفعل!

لكن بعد وفاة والده؛ صار «الإمامُ» يذهب إلى أخيه الأكبر الشيخ/ محمد بن محمد الطيّب- يُقبِّل يديْه، ويستشيره في كل أمرٍ يجدّ له، كبيراً كان أوْ صغيراً. من ذلك، أنه عندما اختيرَ «رئيساً لجامعة الأزهر» انطلق إلى الصعيد الجواني، ليأخذ موافقة أخيه، فصلّى، ونام ... ثم استيقظ، ونادى عليه .. وأذِنَ له بقبول ذلك المنصب!

وقد ترجم هذه المعاني، الشَّاعر الإسلامي/ سيد سليم- في قصيدته «تحية إلى الإمام الأكبر الطيّب» التي هنّأ بها «الشيخ» فور توليه مشيخة الأزهر؛ فقال في مطلعها:

هو أحمدٌ هو طيّبٌ من طيّبٍ ... وَرِثَ العلومَ وزاد فرعاً طاهرا
يا مرحباً بقدومهِ متوشّحاً ... بالعِلم يهدي مستنيراً نيّرا
إنّا لنأملُ أنْ نرى بِفِعالهِ ... الأزهرَ المعمورَ قد بلغ الذرا
يا سيدي جَدِّد عهوداً رادها ... أعلام فكرٍ لا يزال معمرا
ملكوا القلوب محبةً ومهابةً ... أنعِمْ بهم من سادةٍ سادوا الورى!

يقول الدكتور/ أحمد الطيِّب: إنَّ «مصر» هي المؤهلة لجمع كلمة المسلمين، وقيادة الأمة، وذلك بحكم وجود الأزهر بها؛ فهو المعهد الوحيد الباقي للحفاظ على القرآن الكريم وعلومه، والسنة النبوية وتراثها. وعلى الرغم من وجود الأزهر

جغرافياً على أرض مصر؛ إلاَّ أنه موجود في كل شبرٍ من بلدان العالم؛ لأنه يمثل المنارة التي تهفوا إليها أفئدة المسلمين من كل أرجاء الدنيا، ومازال هو المدرسة الحقيقية التي يلجأ إليها المسلمون في الداخل والخارج، لاسيما أن وحدة الأمة باتت الهدف والغاية، ولنا الأسوة الحسنة في الرسول الأكرم الذي أسَّسَ دولته على المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار»!

وعن رسالة الأزهر الحضارية، يقول الطيِّب: «سيبقى (الأزهر) أشعري المذهب، وسطي المنهج، محافظاً على فقه الأئمة الأربعة، وتصوف الإمام الجنيْد، ومدافعاً عن الفكر المعتدل الصحيح الذي سار عليه لأكثر من ألف عام، والذي انتمى إليه سائر شيوخ الأزهر على مدى تاريخه، ولوْ أنَّ الأزهر تخندق في مذهب واحد؛ لجفَّتْ منابعه، ومات موتاً أبديا، لكنه ظلَّ باقياً لأنه حافظ على التعددية، فمن يذهب إلى «تركيا» سيرى هناك مذهباً واحداً هو المذهب الحنفي، وفي «إيران» المذهب الجعفري والباقي مستبعَد! وفي «الخليج» المذهب الحنبلي، ويعملون على إقصاء باقي المذاهب! لكن «مصر» احتضنتْ سائر المذاهب الإسلامية؛ وهذا ببركة الأزهر الشريف، بطبيعة تكوينه ومنهجه الوسطي الذي يجمع كل المذاهب الإسلامية في رحابه، دون إقصاء لمذهب منها.

من هذا الكلام؛ نشتم رداً قوياً على «أدعياء السلفية» و«قباقيب الوهابية»؛ الذين أكل الدهرُ عليهم وشرِب، وتمضمضَ واستنشق عليهم أيضاً !

أولئك الذين وصفهم «الإمام» أصدق توصيف، حين قال: «السلفيون الجدد هم خوارجْ العصر»!

من هنا نعلم؛ أنه بوصول «الطيِّب» إلى مشيخة الأزهر؛ أُوصِدتْ الأبوابُ أمام تهافت السلفيين! فلنْ يقربوا الأزهر، ولنْ يصلوا «المشيخة» حتى يلجَ الجملُ في سم الخياط!

وقد أدرك «الأعراب» ذلك جيداً؛ فأعلنوا الحرب على «الإمام» بضراوة، لاسيما بعد ثورة ٢٥ يناير! ظناً منهم أنَّ الفرصةَ سانحةً لنشر الخطاب التكفيري، وثقافة الكراهية!

ولمَّا اشتدتْ مضايقات (يتامى الوهابية) قدَّم «الإمام» استقالته مرتين؛ درءاً للفتنة، وطلباً للسلامة، لكنَّ طلبه قُوبِل بالرفض؛ لثقة الأزهر فيه، وتمسّك هيئة كبار العلماء به!

* * *

لقد ارتبط «الأزهر» عبر تاريخه الذي تجاوز الألف عام، بالعديد مِن الأسماء والرموز التي قامت على أكتافها رسالة الجامع السِّياسيَّة والعلميَّة والدَّعويَّة والفكريَّة، ومن هؤلاء الرجال العظام: الشَّيخ/ عبدُ اللهِ الشَّرقاوي؛ الذي ساند المشروع الإصلاحيِّ لعلي بِك الكبير في أواخر القرن الثَّامن عشر. والشَّيْخ/ حسن العطَّار؛ الذي قاد الثورات ضد الفرنسيين. والشَّيْخ/ المراغيُّ، الذي ردَّ للأزهر اعتباره. والشَّيْخ/ محمود شلتوت، والدُّكتور/ عبد الحليم محمود، وجاد الحقِّ علي جاد الحق. ومنهم -أيضاً- الشيخ الدُّكتور/ أحمد الطَّيْب -الإمام الثَّامن والأربعين للجامع الأزهر؛ الذي واجه العواصف المذهبية، والمؤامرات السياسية بحنكة وذكاء، ورباطة جأش. حسبه أنَّ الجماهير الغفيرة خرجت تؤازره عندما شعروا أنَّه يتعرض لضغوط سياسية، ومكائد إبليسية!!

لذا؛ يرى كثير من المُراقبين في السِّياسة والإعلام والأوساط الدَّعويَّة؛ أنَّه أكثر شيوخ الأزهر حِنكةً، وأنه سياسيٌّ من طرازٍ فريد، وأنَّ التاريخ سوف يذكره ضمن الشَّخصيَّات التي أعادت للمُؤسَّسة والجامعة دورها الريادي بعد سنواتِ التَّراجُع، إذْ تتشابه تجربة «الطَّيِّب» وخلفيَّاته العلميَّة مع الكثير من تجارب رموز التَّنوير الفكريِّ والدِّيني، أمثال: الإمام/ مُحَمَّد عبده، ومصطفى عبد الرازق، ومحمد عبد الله دراز، وغيرهم ممَّن مزجوا ما بين خلفياتهم الأزهريَّة، وبين

تعليمهم ودراستهم في الجامعات الأوروبيَّة، فاستطاعوا خلق مرونـة فكريـة وِفـق ثوابت الشرع، ومقتضيات العصر!

هذا؛ ويبدو الجانب الانفتاحيّ لدى «الطيِّب» في تفاعله مع العالم الخارجيّ فيما يخص مختلف قضايا الإسلام والمسلمين، وهو ما بـدا مـن قبـل تولِّيـه مشيخة الأزهر، فمُنذُ أنْ كان رئيساً للجامعة، وقَّع العديـد مِـن الاتفاقيَّـات للانفتـاح عـلى العالم الإسلاميّ. كما اندمج في الكثير مِن القضـايا الخارجيَّـة، وأدلى فيهـا بـدلوه، ومن بين أهمِّ ما أعاد التَّأكيد فيه على نظرةِ المُؤسَّسة الدِّينيَّة الأكبر والأقدم والأهم في العالَم؛ هو قضيَّة العلاقة ما بين الإسلام والغرب، ودور الصُّهيونيَّة العالميَّـة في تكدير هذه العلاقات، ورؤيته حول ضرورة تطوير آليات العمل الدَّعويّ والفكريّ والسِّياسيّ الإسلاميّ في العالم، وكذلك الرَّدُّ على العديد مِن الافتراءات التـي تُقـال عن الإسلام والمسلمين من بعد أحداث الحادي عشـر مِـن سـبتمبر. كمـا طَـرَحَ «الطَّيِّب» العديد من الأفكار مِن أجل تطوير العلاقة ما بين الأزهر وخرِّيجيه حول العالم، في إطار تدعيم المكانة العالميَّة للجامع الأزهر؛ حيث تـمَّ في عهـده تدشـين الرَّابطة العالميَّة لخرِّيجي الأزهر، من أجل مَدِّ أواصر التَّعاون مع خرِّيجي الأزهـر في الخارج.

أيضاً؛ قام بعمل انفتاح بين جامعة الأزهر والجامعات الأوربية عن طريق عقود شراكة علمية بين جامعة الأزهر وجامعات بريطانيا وألمانيا وفرنسا وايطاليا، وقـام بإرسـال بعثـات علميـة للجامعـات الأوربيـة مـن خريجـي الأزهـر في مختلـف التخصصـات.

كما يظهر الطَّابع المُنفَتِحُ للدكتور/ الطَّيِّب في كثير من فتاواه -أيْ خـلال فتـرة تولِّيه مسـئولية الإفتـاء- فقـد أَصْـدَرَ حـوالي ٢٨٣٥ فتـوى، تتسـم بمرونـة الفقـه الإسلامي، وإعمال العقل، والأخذ بمبدأ التيسير، ورفـع الحـرج، وفقـه الواقـع، وفقه الأولويات، والمصالح المرسَلَة، إلى غير ذلك مما تصبو إليه مقاصد الشريعة

السمحة.

بينما يبدو الطَّابع المُحافِظ في قراراته ومواقفه المُتعلِّقة بقضيَّتَيْن أساسيَّتَيْن، هما: قضيَّة فلسطين، وحوار الأديان. فقد ظهرت حنكته السياسية في ردِّه على «بابا الفاتيكان» حينما طالب بـ«حماية المسيحيين في مصر» بعد حادث تفجير كنيسة «القديسيْن» بالإسكندرية، فانبرى شيخ الأزهر بالرد عليه؛ معلناً أنه لا يجوز للفاتيكان، ولا لغيره التدخل في شئون الوطن؛ لأنَّ حماية «الأقباط» شأن داخلي، تتولاه الدولة، وأنَّ المسيحيين مواطنون مثل غيرهم من الطوائف الأخرى.

ومن قبل ذلك؛ جمَّد الحوار مع الفاتيكان إلى أجل غير مسمى؛ رداً على تهجم (بابا الفاتيكان السابق/ بنديكت السادس عشر) على الإسلام، ورفض «الشيخ» إعادة العلاقات مع الفاتيكان إلاَّ بعد اعتذار صريح من البابا.

* * *

ذات مرة؛ سألتُ الدكتور/ الطيِّب: مَنْ الشيخ الذي تعتبره قدوتك في هذا المقام؟

ففكَّر، ثم قال: يمكن أن تُلتمَس القدوة من كل العلماء الأجلاء، فعلى سبيل المثال؛ لا أستطيعُ مفارقة كتب الشيخ الغزالي، ومنذ قرأتُ مؤلفات عباس العقاد، ومحمد عبد الله دراز؛ لا أخشى أيّ مناظرة علمية في الشرق أوْ في الغرب، لكنني لا أستطيع أنْ أكتم إعجابي بالإمام/ محمود شلتوت؛ ذلك الفقيه الذي مكَّنته مَلَكة الاجتهاد التي اكتسبها من مدرسة الإمام/ محمد عبده، والشيخ/ المراغي- من الدفاع عن الإسلام في الداخل والخارج، وبخاصة في المؤتمرات العالمية الكبرى. ولعلَّ المتأمل في اجتهادات محمود شلتوت يكتشف قوة مَلَكته الفقهية والأصولية في مختلف المذاهب والمدارس، فلا يتوقف عند المذاهب الأربعة المعروفة، بلْ يتخطاها إلى مذاهب أخرى كالإمامية، والزيدية، وغيرهما، باحثاً عن الحق، وباحثاً عن الدليل الذي لا يرضى به بديلا. وتبدو عبقرية الشيخ شلتوت في

كتابه «الإسلام عقيدة وشريعة» الذي طبع حوالي ٣٠ مرة، وأتمنى لوْ أن هذا الكتاب أصبح مقرراً إجبارياً على كل طلاب جامعة الأزهر، كما أتمنى لو تُرجِم إلى كل اللغات الحية».

بالرغم من إعجاب «الطيب» بمنزلة الشيخ شلتوت الفقهية؛ إلاَّ أنه يسير على خطى الإمام/ المراغي، وله في ذلك مواقف جليلة، ومآثر عديدة ... حسبه أنه من أوائل المنادين بجعل منصب «شيخ الأزهر» بالانتخاب، وليس بالتعيين، بلْ اقترح أن يكون العمل في «مشيخة الأزهر» تطوعاً، واحتساباً لوجه الله تعالى. وبالفعل؛ فقد سَنَّ «الإمام» سُنَّةً حسنة، وبادر في أبريل ٢٠١١م برد المبالغ المالية التي تقاضاها منذ توليه المسؤولية، إلى خزينة الدولة، وقرر أنْ يعمل محتسِباً!

هذا؛ وعندما زار الرئيس الإيراني السابق/ أحمدي نجاد- مشيخة الأزهر؛ كان أول شيءٍ يطلبه منه «الإمام» أنْ يصدر مرسوماً في بلده؛ يحظر التطاول على مقام صحابة النبيّ الكِرام، وألاَّ تتدخل دولته -إيران- في شئون الخليج العربي من قريبٍ ولا بعيد.

ويبدو حزمه وعزمه؛ عندما رفض اقتراح السلطة السياسة بألاَّ يعدُّ الطلاق واقعاً إلاَّ إذا كان في حضرة «مأذون الشرعي»، وقال: يقع الطلاق مشافهة!

ولا نعجب من انسحاب «شيخ الأزهر» وعدم مشاركته في حفل تنصيب رئيس الجمهورية السابق «محمد مرسي» بجامعة القاهرة؛ بسبب عدم الاستقبال الملائم للشيخ والوفد المرافق له. لذلك؛ اعتذرتْ له الرئاسة في اليوم التالي مباشرة!

ولا نعجب أيضاً؛ من مغادرة «الإمام» مكتبه، وعدم انتظاره لوزير الخارجية البريطاني؛ بسبب تأخر الوزير ربع ساعة عن موعده، فاضطرَّ الوزير لزيارة الإمام في بيته!

ولا نعجب -كذلك- مِن غضب «الإمام» وإلغاء السفر للسعودية، لاستلام

جائزة الملك فيصل التي مُنِحتْ للأزهر الشريف؛ احتجاجاً منه على الحجز له بالدرجة الأولى، بينما تمَّ الحجز للوفد المرافق له في درجة عادية، قائلاً: إنَّ هذا لا يليق بمكانة العلماء الأدبية والعلمية. فاعتذرت السعودية في اليوم التالي على الفور!

مَنْ هو أحمد الطيِّب؟

إنه الابن الثاني للعارف بالله الشيخ/ محمد الطيِّب ﷺ ولِدَ عام ١٩٤٦م «بالقُرنة» الواقعة بالبر الغربي بمدينة الأقصر، تخرج في كلية أصول الدين عام ١٩٦٩، ونال درجة الماجستير في العقيدة والفلسفة عام ١٩٧١م، ثُمَّ حصل على الدُّكتوراه عام ١٩٧٧م، كما نال درجة دكتوراه أخرى من جامعة «السوربون» ما بين عامَيْ ١٩٧٧م و١٩٧٨م، وهو ما ساهم في إعطائه الرُّؤية التَّنويريَّة الضَّروريَّة للتَّفاعُل مع روح العصر وقضاياه.

ومن عجب؛ أن تتشابه أطوار الدكتور/ الطيب، مع كثير من أطوار وحوادث أستاذه/ عبد الحليم محمود، فكلاهما غاص في بحار التصوف؛ فاستخرجا الكنوز واللآلئ النفيسة! وكلاهما زهدا في الدنيا، ومع ذلك بلغا أعلى درجات الشهرة والمجد، وكلاهما درسا في «السوربون» وصنعا الأعاجيب! فالشيخ/ عبد الحليم محمود أحبه أستاذه المستشرق اليهودي/ رينيه جينيو- فأسلم على يديْه، بلْ جاء يقتفي أثره بمصر. والدكتور/ الطيب؛ أحبته الأسرة التي أقام عندها بباريس؛ فأسلمت كلها، لِمَا لمسوه من سموّ أخلاقه، وكريم طباعه!

تدرج «الطيِّب» من أستاذ إلى رئيس قسم إلى عميد، حتى صدر قرارٌ عام ٢٠٠٢م بتعيينه مُفتيًا للديار المصريَّة، خلفًا للدُّكتور/ نصر فريد واصل. وظلَّ في منصبه هذا حتى عام ٢٠٠٣م؛ عندما تمَّ تعيينه رئيسًا للجامعة خَلفًا للدُّكتور/ أحمد عُمر هاشم، وظلَّ في هذا المَنْصَب حتى صَار شيخاً للأزهر في مارس ٢٠١٠م. وقد شارك في العديد من المؤتمرات الدَّوليَّة للحوار والتَّقارُب بين الأديان والحضارات، ومن بينها: مُؤتمر القِمَّة للاحترام المُتبادَل بين الأديان، الذي نظَّمَتْه

جامعة هارفارد الأمريكيَّة، ومؤتمر الأديان والثَّقافات «شجاعة الإنسانيَّة الحديثة» الذي نظَّمته جامعة بيروتشيا الإيطاليَّة، ومؤتمر الثَّقافة والأديان في مِنطقة البحر المُتوسِّط الذي نظمته الجامعة الثَّالثة في روما، كما ترأَّس وفدًا مِن الصحافة المصريَّة ومجلس الشَّعب لإجراء حوارٍ مع البرلمان الألمانيِّ «البوندستاج» ووسائل الإعلام ومجلس الكنائس في ألمانيا.

كما قدَّم أبحاثاً غاية في الأهمية، منها بحث بعنوان «الشَّيْخ مُصطفى عبد الرَّازق المُفترى عليه»، ألقاه في ندوةٍ عقدها معهد العالم العربي «LIMA» بباريس. والثَّاني بعنوان «ضرورة التَّجديد» ألقاه في المؤتمر العالميِّ للمجلس الأعلى للشُّئون الإسلاميَّة بالقاهرة عام ٢٠٠١م.

وللدكتور/ الطيب مؤلفات ودراسات عديدة في مجال العقيدة والفلسفة الإسلامية، منها: الجانب النقدي في فلسفة أبي البركات البغدادي، ومدخل لدراسة المنطق القديم، وأصول نظرية العلم عند الأشعري، ومفهوم الحركة بين الفلسفة الإسلامية والفلسفة الماركسية. كما قام بتحقيق بعض الكتب، مثل: مباحث الوجود والماهية من كتاب المواقف، ومباحث العلة والمعلول من كتاب المواقف، وتعليق على قسم الإلهيات من كتاب تهذيب الكلام للتفتازاني.

وقام بترجمة بعض الكتب من الفرنسية إلى العربية، مثل: (Chodkiewiez، Ibn Arabi،Prophetie et Sainteté dans la doctrine d) أيْ: الولاية والنبوة عند الشيخ محيي الدين بن عربي. وكتاب:، Histoire et classification Ibn Arabi (volumes،de loeuvre d) أيْ: مؤلفات ابن عربي تاريخها وتصنيفها. كما قام بترجمة المقدمات الفرنسية للمعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوي، ونظرات في قضية تحريف القرآن المنسوبة للشيعة الإمامية. وقام بتحقيق رسالة (صحيح أدلة النقل في ماهية العقل) لأبي البركات البغدادي، مع مقدمة باللغة الفرنسية. وغيرها.

هذا؛ ولا تزال الآمال معلقة على «شيخ الأزهر» الذي يرونه قدوةً صالحة، كما يرون منصب «المشيخة» أرفع مكانةً وأجلّ قدراً من أيّ منصبٍ آخر!

فالدِّينُ وُجِدَ قبل وجود الأوطان، والأنبياء قبل الزعماء، والعلماء فوق الساسة .. والأزهر سيظلُّ حتى بعد هلاك الحكّام ... وأبصِر فسوف يُبصِرون!

صاحب الحنجرة الذهبية

سبحان الذي أبدع كتابه وفصّله، وجعله معجزةً دونها كل معجزة، فمن دلائل إعجازه أنَّ يحفظه الطفل الصغير قبل غيره؛ لأنَّ الطفل قريب العهد بربه! ولِمَ لا؟ فالدِّينُ وجِد قبل وجود الأوطان﴿ٱلرَّحْمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ۝٢ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ۝٣ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ۝٤﴾. فتبارك الذي جمع القلوب على حب كتابه؛ واصطفى القُرّاء والعلماء، وجعلهم شامةً بين الناس، حتى صارت أسماؤهم أوضح من الشمس في ضحاها، والقمر إذا تلاها!

وقد انقسم الناس -منذ نزول القرآن- أحزاباً وشِيَعاً في ترتيب أعلام القُرّاء وذِكر منازلهم .. ففي العصر الحديث، قالوا: إنَّ «القُرّاء» عِيَالٌ على «عبد الباسط» في التجويد!

وقيل: إنَّ القُرّاء في حياتنا كالمصابيح، و«عبد الباسط» النجم الثاقب!

أجل، فلمْ يعرف الناس قارئاً يفري فريّه، أوْ يطاول قامته، فهو القارئ الذي سبقه صوته، وغطّتْ شهرته على أيْ مِلِكٍ أوْ أمير! بلْ كان الواحد منهم يقترب منه أكثر وأكثر ليشنِّفَ آذانه بآيات الذكر الحكيم، ومنهم مَنْ يسترقِ السمعَ ليتلذَّذَ بِسِحر التلاوة، وعبقرية الأداء!

* * *

ولقد عَلِمَ المستقدمون منهم والمستأخرون مكانة الشيخ، فأنزلوه منزلته،

وقدّروه حق قدره. حسبه أنه إذا حلَّ بدولةٍ ما؛ كان يُستقبَلُ فيها استقبالاً رسمياً، وتتسابق وسائل الإعلام لتعلن عن قدوم (الضيف الكبير)! فالمِلك فيصل يكون أول مستقبليه بالرياض، وملك الأردن وحاشيته ينتظرونه بالمطار، أمّا في باكستان فكان الرئيس ضياء الحق يتأهّبُ لمعانقته فور نزوله من الطائرة، بلْ إنَّ الملك محمد الخامس؛ ينحني مُقبِّلاً يد الشيخ الجليل، أمّا الهند والكويت وسوريا ولبنان وليبيا وتشاد وغيرها؛ فكانت تتحول إلى أعيادٍ ومهرجانات شعبية احتفاءً بالقارئ الكبير؛ الذي هو أزكى عند الناس من سادتهم وكبرائهم، وأرقى مقاماً وأحسن قيلا!

نعم؛ إنه القارئ الوحيد الذي سافرتْ نحو صوته الجماهير، فتزاحموا حوله، وجلسوا مدّ بصره، وكأنَّ على رءوسهم الطير، حباً جماً في كلام ربهم، وإعجاباً بالصوت الذي يُرقّق المشاعر، ويُهذّب النفوس، ويُذهِب الهمّ والحَزَن، والعجز والكسل!

ذات مرة؛ دخلتُ الجامع الأزهر، فوجدتُ «الشيخ» يصدح بآي الذِّكر الحكيم، وقد أحاط به بحرٌ من البشر، وقد اشرأبّتْ أعناقهم نحو المقرأة، كأنهم ينتظرون أنْ يُنادَى على أسمائهم! وأبصرتُ وجوههم وقد غمرتها الأنوار، وكانت أرواحهم تُحلّق مع نغمات الصوت، وترانيم التلاوة التي تتصاعد رويداً رويداً في الأفق الأعلى، حتى تعانق السماء ذات البروج!

ألَم تروا كيف فعل الأداء الجميل بوجدان الحاضرين والغائبين، والذين جاءوا من بعدهم بإحسان؟ فمازال صوته يجري في الأوردة والشرايين، ويتخلّل شغاف القلب وحناياه، ثمَّ يصبُّ في الذاكرة، فترتوي منه النفوس والأفئدة ... ولطالما يجد المرء نفسه يمشي على إيقاع صوته، ويترنم بترانيمه، ويتمايل من فرط إعجابه بنشوة التلاوة؛ حتى يشقّ على السامع مغادرة الصوت، مهما راودته نفسه الأمّارة!

* * *

لا جَرَمَ أنَّ القُرّاء يجيئون ويذهبون، وتأتي أجيال وأجيال .. لكن يبقى «عبد الباسط» علامةً بارزةً في مسيرة سفراء القرآن، فلمْ يدركه منهم سابقٌ ولا لاحِق!

ولا غرو في ذلك؛ فهو صاحب «الحنجرة الذهبية» التي دونها معامل الصوتيات بعلومها الحديثة، وأجهزتها المبتكرة، تلك الحنجرة التي هاجرت بالذِّكر الحكيم إلى ما وراء المشرق والمغرب، وتخطّتْ بالنور المبين اليابس والماء .. وقد سُجّلتْ جميع قراءته سواء كانت في بواطن المدن أوْ حافات البوادي، وصُنّفتْ قراءاته بأسماء مختلفة، وأوصاف عديدة، مثل: «تسجيلات الاستديو»، و«الحفلات الخاصة»، و«الحفلات الخارجية»، و«التسجيلات النادرة»، و«أمسيات الإمام الشافعي»، و«تسجيلات الحرم»، و«تسجيلات المسجد الأموي»، و«حفلات جنوب إفريقيا» إلى غير ذلك من المسميات التي تعرفها شركات الصوتيات!

وبذلك يكون «عبد الباسط» القارئ الأوحد الذي خلّفَ وراءه أكثر من تسجيل كاملٍ للمصحف «المجوّد» بمزامير مختلفة، أذرفتْ دموع المحبين، وسَلَبَتْ النومَ من العارفين!

لقد كان «الشيخ» حريصاً على القرآن وقدسيَّته .. فكان أول قارئ في العالم الإسلامي يُسجِّل القرآن بالقراءات السبع، وكان أول من دعا إلى إنشاء «نقابة» تحتضن القراء، وتكتشف المواهب المؤهلة للقيام بتلك المهمة الجليلة، وقد اختير الشيخ نقيباً للقرّاء بالتزكية، وظلّ راعياً لهذه النقابة حتى آخر يوم في حياته!

فوربِّ المشرقيْن وربِّ المغربيْن؛ لقد رأيتُ أُناساً ما سمعوا (عبد الباسط) إلاَّ وانهمرتْ دموعهم مدراراً، بلْ رأيتُ أُناساً إذا سمعوه توقفوا عن الحركة، ولا يبرحون مكانهم، وشاهدتُ من تعروه هزَّةٌ كالطير بلّله القطر، والتقيتُ بمن يحفظ أيَّ سورةٍ مادامت بصوته، وأخبرني بعضهم أنهم يستمعون «السورة» مرات عديدة، وفي كل مرة يُخيّل إليهم أنهم يسمعونها لأول مرة، وقد سمعتُ الكثير والكثير،

ورأيتُ ما لا عين رأتْ، ولا أُذن سمعت!

* * *

لعلَّ هذا الذي جعل الشيخ «الشعراوي» يقول في ثنايا حديثه عن مشاهير القُرّاء: «إذا أردتُ أنْ أسمعَ جماليات القرآن؛ فإنِّي أستمعُ إلى عبد الباسط عبد الصمد». وقال الإمام/ عبد الحليم محمود: «لقد أُوتيَ عبد الباسط مزموراً من مزامير آل داود»! وكان الشيخ جاد الحق- يرى أنَّ تجويده لونٌ من ألوان التفسير. بلْ كان الشيخ «الباقوري» يقول لمن حوله: «خذوا مني كل شيء، واتركوا لي صوت الحاج عبد الباسط». وكان الكاتب القبطي «موسى صبري» كلما لقيَ الشيخ يقول له: «صوتكَ يا مولايَ يحرمني النوم»!

يقول الشيخ/ رِزق خليل حبَّة: «كانت الملك محمد الخامس من أشد المعجبين بفن وتلاوة الشيخ/ عبد الباسط، فتمنى أنْ يكون الشيخ (مغربياً) ليقرأ أمامه القرآن في كل الأوقات!

ذات مرة؛ طلب منه الملك أن يسجِّل القرآن كاملاً بطريقة (ورش عن نافع) فلمْ يتردد الشيخ في قبول الدعوة، لكنه طلب إحضار الشيخ/ رزق خليل حبَّة – شيخ عموم المقارئ المصرية- وبالفعل حضر الشيخ رزق- الذي روى هذه الواقعة، فقال: «بدأ عبد الباسط التسجيل، وسط جو مهيب من العناية والتقدير .. وحدثت المعجزة؛ التي أظهرت أنَّ الشيخ/ عبد الباسط موهبة ومعجزة في آنٍ واحد؛ لأنه أنهى تسجيل المصحف كاملاً في أحد عشر يوماً، مما جعلني أردِّد قول الله تعالى ﴿مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾ وأقرأ المعوَّذتيْن؛ ليحفظ اللهُ بهما هذا القارئ الفريد. فالشيخ قد حقق إعجازاً؛ لأنَّ طريقة «ورش» تحتاج إلى وقت وجهد وصبر، لن يتحقق قبل ستة أشهر على الأقل»!

فوربِّ المشارق والمغارب؛ لقد أراد الله بنا خيراً أننا أدركنا «الشيخ» الذي جاء على قَدَرٍ ليملأ الدنيا بهجةً وحبوراً، وقرآناً يتلى آناء الليل وأطراف النهار.

لقد كانت حياة «الشيخ» زاخرةً بالمواعظ والعِبَر، ومملوءةً بروائع القصص؛ من ذلك؛ أنه لمْ تمضِ بضعة أشهر على إقامته بالقاهرة، حتى بلغ صوته كافة أنحاء المعمورة، ومن يومئذ؛ ظلَّ –رحمه الله– أهم ظاهرة في عالم التلاوة والتجويد. وكان أصغر قارئ التحق بالإذاعة المصرية، بلْ تمَّ اعتماده دون أنْ يُعقَد له امتحان! ورفض احتكار صوته لجهة بعينها، وذلك عندما حاولت معه «إذاعة صوت القاهرة» معتبراً أنَّ تلاوته هدية لجميع الإذاعات، وصدقة للناس كافة!

وقد كانت الدعوات تأتي للشيخ بدون مناسبة، فتحتشد له الجماهير، فإذا سألتهم عن المناسبة التي حضر من أجلها؟ كان ردهم: بأن المناسبة هي وجود الشيخ/ عبد الباسط!

هناك واقعة رواها لي أحد أصدقاء الشيخ الذي حظيَ بالسفر معه إلى بلدان كثيرة، فقال: «بينما كان الشيخ يقرأ في (السنغال) فإذا بحوالي سبعين رجلاً يشهِرون إسلامهم، لجماليات الصوت فقط، دون أنْ يفقهوا العربية أوْ يتعلموها!

وفي «جوهانسبرج» كان الناس يتشوَّقون إلى زيارة الشيخ لهم، فلمَّا زارهم استقبلوه بحفاوة بالغة، لدرجة أنهم تجمعوا حول السيارة التي كانت تقلّه، وحملوها فوق أكتافهم؛ الأمر الذي جعل الحكومة العنصرية البيضاء بجنوب أفريقيا، ترفع مذكرة عاجلة إلى الجامعة العربية، تطالب بـ«منع دخول الشيخ أراضيها؛ لأنَّ صوته الساحر يُحرِّض السود على الثورة ضد السلطات»!

بلْ أكثر من ذلك غرابةً؛ أنه عندما ذهب إلى إحياء إحدى المناسبات الإسلامية بالهند، لمْ تتسع القاعات المخصصة للحفل، حيث تجاوز العدد ثلاثة ملايين! فاضطروا لنقل الاحتفال إلى «الإستاد» كيْ يستمتع الحضور بحلاوة الأداء القرآني، وظلوا طوال الليلة وقوفاً يستمعون إليه، وهم حُفاة الأقدام!

* * *

لقد أنعم الله على «الشيخ» بنعمة الصوت الرائق العذب الجميل الذي شنّف آذان الملايين؛ كذلك مَنَّ الله عليه بحسن الخُلُق، فكان يجلِّله التواضع، ولا يتكلم في أمور الدنيا إلاّ قليلا، وكان طويل الصمت، كثير الذِّكر، شديد الحياء، دائم التأمل، يصافح الناس في الطريق ويعانقهم بحرارة، وكانوا يعرفونه عن بُعد، فمن رآه أحبه، ومن خالطه ازداد محبةً له .. إلى الحد الذي جعل الناس -كل الناس- أصدقاء له ومقربين منه. ولطالما سافر إلى أميركا ودول أوربا، فكانوا يدعونه عند افتتاح المؤسسات والمراكز الإسلامية، لدرجة أنه قرر أن يتعلم «الإنجليزية» كيْ يتجاوب مع تلك الأقليات، فالتحق بأحد مراكز تعليم اللغات، ودفع مبلغاً يعادل قيمة أجر ثلاثين محاضرة، وطلب أنْ يتم التدريس له بمفرده .. ولكنه لم يحضر سوى ثلاث محاضرات؛ لكثرة أسفاره التي قد تصل إلى شهور في بعض الأحيان!

وقد حكى لنا أنه لمَّا سافر إلى «باريس» اشترى له بدلة؛ حتى لا يلفِتْ الانتباه بجلبابه، لكنَّ الجاليات العربية والإسلامية عرفته، فعدل عن ارتدائها، وفضَّل البقاء بزيه الأزهري.

ولعلَّ روحه الوثَّابة؛ جعلته يعشق التجديد والتغيير المستمر .. فكثيراً ما غيّر محل إقامته، فمن السيدة زينبْ، إلى جاردن سيتي، ثمَّ إلى المنيل، فإلى العجوزة!

في طفولته، كان «الشيخ» مولعاً بصوت الشيخ/ رفعت، لدرجة أنه كان يقطع مسافة تتجاوز خمسة كيلو مترات، من أجل استماعه. وكان لا يكفّ من الثناء على الشيخ مصطفى إسماعيل، الذي ربطته به صداقة متينة، واصطحبه في بعض أسفاره!

وكان -رحمه الله- مداوماً على قراءة الصحف، وعازفاً عن مشاهدة التلفاز، بيد أنه كان يحب المسرحيات الكوميدية، وكان «فؤاد المهندس» نجمه المفضَّل، وكانت هوايته «السباحة»، فاشترى «فيلا» بالإسكندرية! وكان يعشق اللون الأخضر؛ فمسبحته خضراء، ولون مكتبه أخضر، وعندما اشترى سيارة فضَّل أن

يكون لونها أخضر أيضاً!

ولا أنسى عندما كنتُ طالباً، وأجريتُ معه حواراً لمجلة الجامعة، وكتبتُ مقدِّمةً أدبيةً بديعة .. فلمَّا قرأها؛ راح يضحك، ويقول: «يبدو أنكَ كاتبٌ مُترَف الخواطر»!

* * *

أمَّا عن «السمات الفنية» التي تميز بها صوت قارئنا الكبير، أذكر منها على سبيل المثال:

- معايشته المعاني القرآنية معايشة روحية وجدانية، فكأنه يتمثَّلُ نفسه في ذاك الموقف أوْ المشهد القرآني، بمعنى أنه يتقمَّص دور «الشخصية» التي قامت بأداء الفعل، واستمع إليه في قوله تعالى: ﴿ وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُم بِسِيمَىٰهُمْ ﴾. أوْ قوله تعالى: ﴿ وَجَآءُوٓ أَبَاهُمْ عِشَآءً يَبْكُونَ ﴾.أوْ ﴿إِنَّ أَبِى يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا ﴾ . إلى غير ذلك من الآيات التي جاءت في سياق القصص القرآني.

- وهناك ظاهرة «الاغتراب» الصوتي التي تجعل المستمِع المجاور للشيخ يظن أن الصوت قادم من بعيد! وكأنَّ «الشيخ» يستنزِل الجمل القرآنية من أعالي الجبال أوْ يأتي بها من وراء البحار، ونلمس ذلك في قراءته من سورة القصص ﴿وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ إِنِّى لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴾.

- أيضاً، تجد المرونة والانسيابية والاسترسال، والتنوّع الموسيقي «المقامات» المصحوبة بذبذبات متباينة؛ تهدأ حيناً، وتعلو حيناً آخر ... كما نلمس ذلك في القصص القرآني، مثل سور: «هود، ويونس، ومريم، وطه، والأنبياء، وغيرها.

- وهناك ميزة عجيبة من مزايا صوته؛ ألاَ وهي وقوفه في الوقت الذي يُخيَّل

للمستمع أنه سيواصِل القراءة، بينما يُواصِل في وقت يُخيَّل أنه سيقف! وأوضح مثال على ذلك تسجيلات الحرم، التي يأتي في مقدمتها سور: التوبة، والحج، وإبراهيم، وغيرها.

- لكن أبرز ما اشتهر عن الشيخ في تلاوته: جمال الصوت، وطول النفس، ووصل الآيات ببعضها، دونما إرهاق أوْ تكلّف على الإطلاق، فقوة صوته في أواخر الآيات، يربو على صوته في مطلعها ... ولعلَّ تألقه في قصار السور أبلغ دليل، وأصدق شاهد على ذلك!

معروف أنه كلما كبر الإنسان، تهدَّلَتْ حنجرته، وتحشرج صوته، لكن العجيب أن صوت «الشيخ» ازداد طلاوةً، فحملتْ قراءاته الأخيرة نكهةً ومذاقاً يجلّ عن الوصف والتقدير!

* * *

يقول الدكتور/ محمد سيد طنطاوي –شيخ الأزهر السابق–: «لقد ربطتني بالشيخ عبد الباسط علاقة طيبة، فكان رضيّ النفس، طيِّب الخُلق، هادئ الطباع، تغمره عزَّة القرآن، وجهه دائماً مليء بالبِشر والتفاؤل، وكان مُنفِقاً سِراً وعلانية، فأتذكَّر أنني عندما كنتُ طالباً بالمرحلة الثانوية؛ كنتُ أستمع إليه يتلو القرآن بطريقة مؤثِّرة في النفوس. وكنا نجتمع وقتها يوم السبت من كل أسبوع؛ للاستماع إليه في الراديو، فكان عيداً أسبوعياً لنا جميعاً. ومرت الأيام، وشاء الله أنْ نتصادق، وأنْ نتزاور، وأنْ نتدارس القرآن معاً، وكن نستفيد من مجالسه استفادة كبيرة؛ لأنه كان على دراية كاملة بعلم التجويد ومخارج الحروف».

من هنا؛ نستطيع القول بأنَّ الشيخ ﷺ مِمَّنْ وضِعَ لهم القبول، فقد حظيَ بإعجاب الأعارب والأعاجم، ونال من الأوسمة والجوائز والنياشين ما لمْ ينله سواه؛ فقد كرمته سائر الدول العربية والإسلامية بلا استثناء، لكن أكبر الأوسمة، وأعظم النياشين التي حازها –قارئنا الكبير– هو انجذاب الناس نحو بدائع قراءته

والْتفافِهم حول صوته، كالطير صافات في مشهدها العجيب بين السماء والأرض!

سيقول المغفلون من الأعراب: أليس كله (قرآن) سواء قرأه من جاء من أقصى المدينة يسعى، أوْ قرأه من جاء من أقصى الصعيد خائفاً يترقَّبْ؟!

كلاًّ، وألف كلاًّ .. فقد أوصى «نبيّ الحب» صلوات الله عليه- بتجويده بأعذب الأصوات وأرقّ الحناجر، فقال: «زيّنوا القرآن بأصواتكم»، و«مَنْ لم يتغنّ بالقرآن فليس منا»!

* * *

كان الشيخ «عبد الباسط» جميلاً كصوته، وسيماً كأخلاقه، فلقَّبته الصحافة العربية في بداية حياته بالشيخ «براندو» لأناقته، تشبيهاً بالممثل الأميركي «مارلون براندو»! كما وصفته الصحافة الفرنسية بصاحب الصوت الأسطوري!

رضيَ الله عن «شيخنا» الذي نذر حياته كلها سفيراً -فوق العادة- للقرآن، مُرتّلاً تارة، ومُجوّداً تارة أخرى. وبينما هو في غمرة أسفاره التي امتدت من سواحل الهادي إلى شواطئ الأطلسي ... فجأة؛ لَبَّى نداء السماء، مغادراً تلامذته ومريديه، ومُودّعاً حنجرته الذهبية؛ التي دونها معامل الصوتيات الحديثة. وصعدتْ روحه إلى أعلى عليين عن عمر يناهز الثانية والستين، مُوصِياً أن يُوارى جثمانه بمسقط رأسه «أرمنت» التي ولد بها عام ١٩٢٧م؛ تاركاً للناس -كل الناس- ميراثاً أعزّ وأغلى من أيّ ميراث، وثروةً دونها كل الثروات ... فجزاه الله خيراً، وسلام عليه في العالمين!

المحتويات

